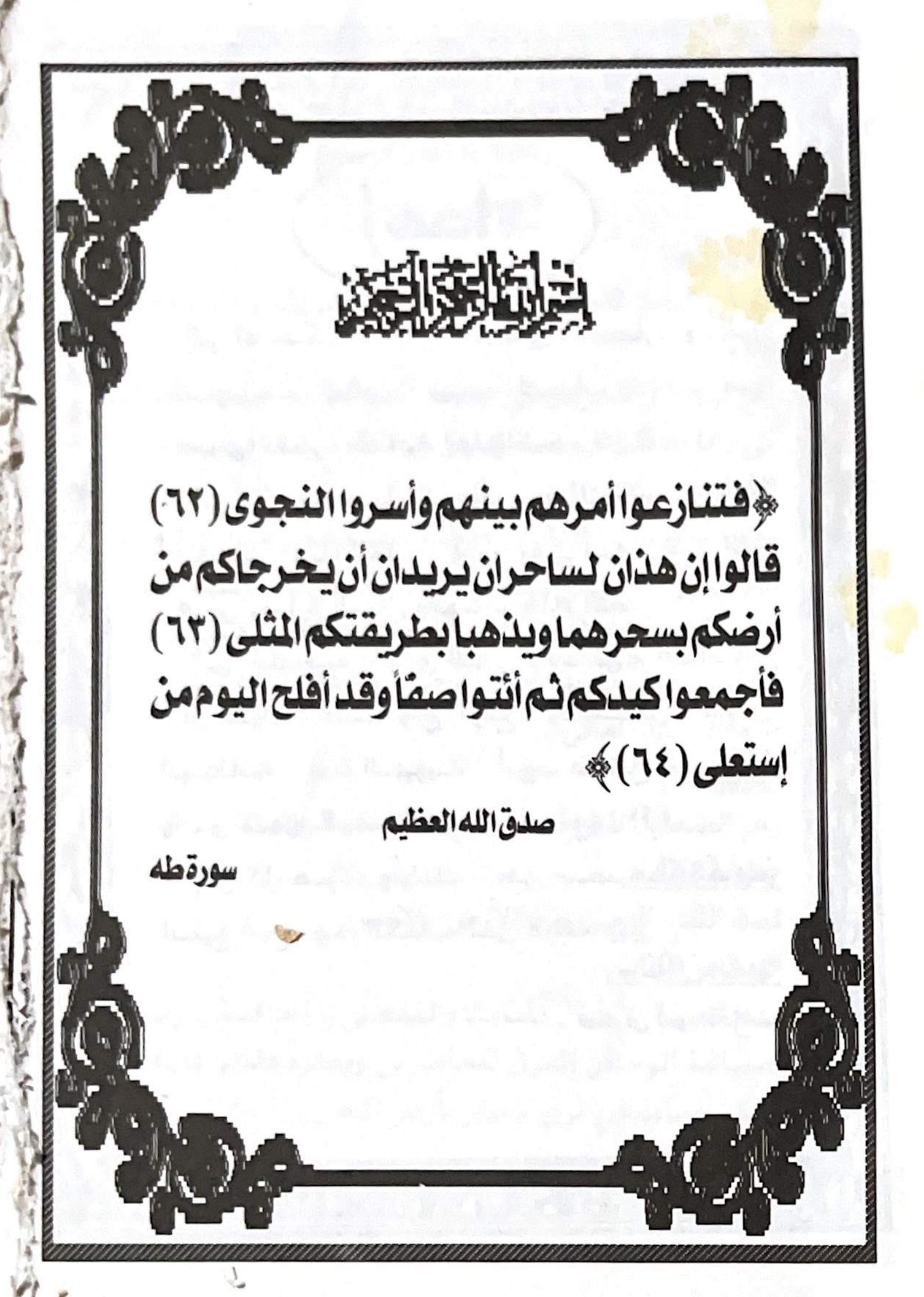

حلفا الجديدة
(الخطيئة والقربان)
كري احمد ابو القاسم

حلفا الجديدة
«الخطيئة والقربان»

فكرى أحمد أبو القاسم



الطابعون مطبعة البريد الحديثة تلفون ٤٦٧٦٩٩

إهداء

إلى (مشكيله) .. إحدى قرى كجبار .. وعلى لسان أرقين نقدم كشف الحساب ونلقى فى حضرتها دفاترنا القديمه لعلها تنجو من المأساة ..

إلى أرواح شهداء الرفاص - تلك الأسر التى أبتلعتها مياه السد .. ومن بقى منهم فى البر الغربى يصارع الرمال والصخر والماء الآسن ..

إلى الحلفجيه الحيارى الذين أرادت بهم الدراسات أن يكونوا .. (النموذج الرائع .. ودالقبائل .. هجين البطانة .. نواة الهوية .. أدروب صالح أبو سن) .. والذى لاندرى كيف نخاطبه وبأى لغة ..؟؟

إلى كل هؤلاء وأولئك .. وفى حضرة صمتهم البليغ أبوح بهذا الكتاب الذى لايكاد يبين ..

فكرى أبو القاسم

حلفا الجديدة
الخطيئة والقربان

حلفا الجديدة:

الوطن البديل للمهجرين النوبة وهم سكان وادى حلفا حتى دال جنوباً .

تقع فى شرق السودان في منطقة خشم القربة ، مستنقعات قديمة في قاع المنطقة المنخفضة لسهل البطانة .

الخطيئة:

بكل أبعادها .. أدناه .. أخطاء جسيمة فى قبول فكرة السد العالى أولاً والثمن البخس ثانياً والتهجير بالقوة ثالثاً .. والرضوخ بدون مقاومة أخيراً . وكان المطلوب قبول الاقتراح المصرى بقيام مدينة حول البحيرة والمطالبة بنصيب من مال خدمات السد العالى .

القربان:

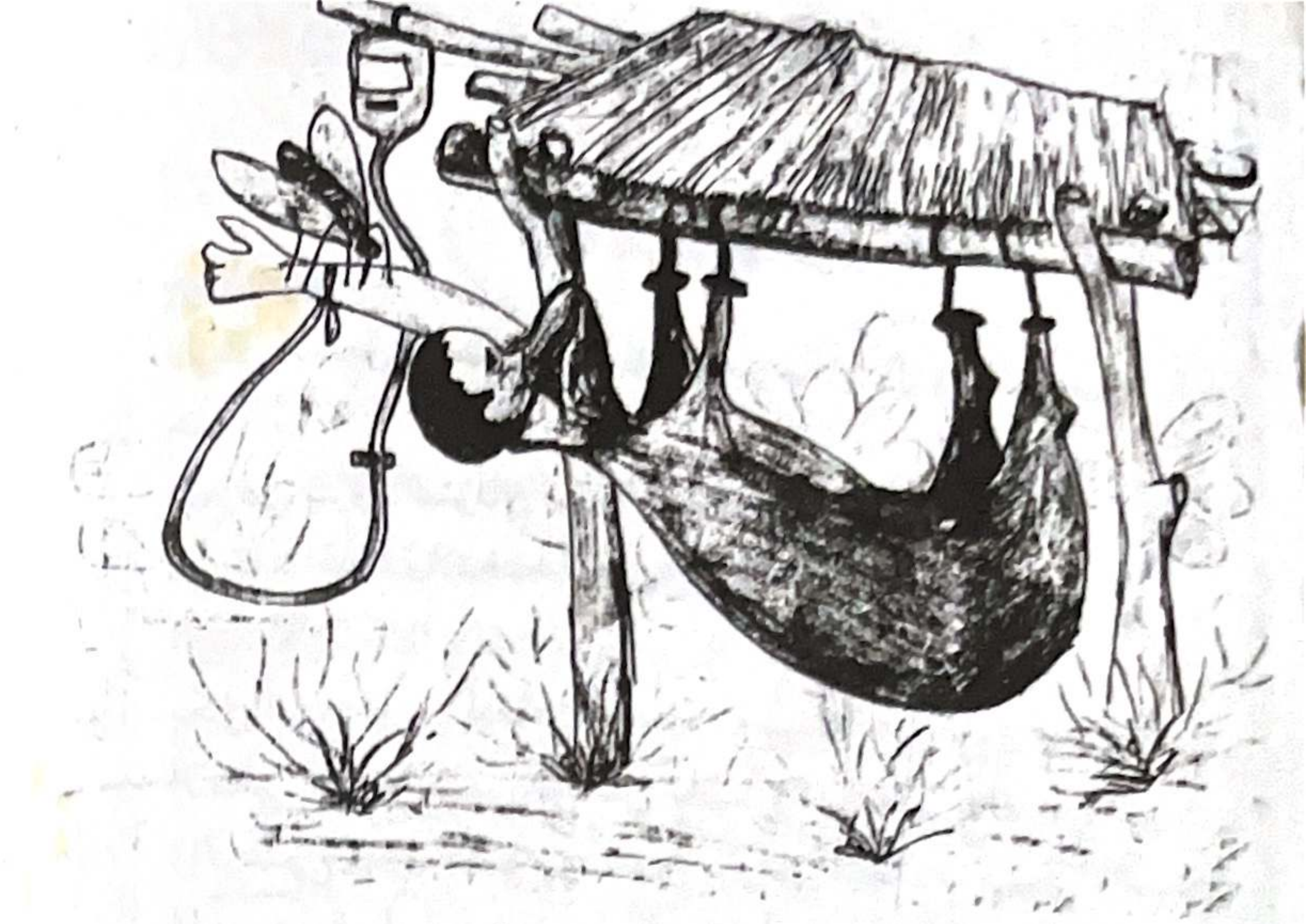
وهم الضحايا الذين دفعوا ثمن الأخطاء والتهاون .

خلاصة الكتاب:

قصة اللقاء التعيس بين الأرض والإنسان .

الهدف من الكتاب:

فتح شهية الأجيال للبحث والتقصى والمحاكمة . ومحاولة لصياغة الوجدان الممزق للحاضرين وبعشرة دفاتر قديمة فيها كشف حساب في قرى كجبار بأرض المحس .



الإنسان في خشم القربة

العشق والعلم والنخيل

زينوبة كل .. ما أفتح كتاب ..

ألقـــاكي فـــي أول سطر..

ألقــي الحبايب والصحاب ..

ألقــي الجنــاين والتــمر..

شاعر من الشايقية

فهرست الكتاب

المحتويات	الصفحة

هذا الكتاب

* المطروح فى هذا الكتاب فى مجملة وجدانيات موثقة ، تصف مأساة أمة من النوبه ، تم تشريدها فى أقصى قاع البطانة .. مقدمة للأجيال القادمة لفتح شهيتها للبحث والتقصى والمحاكمة ، ومن لم يتذكر لايستطيع أن يتصور المستقبل.

إن سقنا لهم حقائق التاريخ ، ما فعلنا لنرصد ولا لنعطيهم ماينبغى أن يعرفوا وتلك مهمة المؤرخين ولكن ليحسوا .. ولتكن المعرفة بعد ذلك معينة على السلوك .. وهذه القيمة أن وجدت فيهم فقد غلبوا آباءهم .. ولا يهمنا بعد ذلك حرّاس التاريخ الذين يقدسون التاريخ وحقائقه .

* فى هذا الكتاب قراءات متوعة لاختلاف مظاهر الأزمة .. وإذا كانت اللغة فيها بوح وعشق للأرض والثقافة وأحياناً الإنسان ، فما ذاك إلاّ لأبراز حجم الخسارة .

* هذه الأبواب والفصول أردنا لها أن تكون مرافعة تتوخى ذلك «الحياد المستحيل» فالحياد بمفهومه العادى والمتوقع غير ممكن وخاصة إذا كنا لانكتب تاريخاً .. وربما هناك سبب آخر . هو أن أوان الحكم وإستخلاص العبر لم يأت بعد .. ولم يأت رجاله .

الأزمة الآن مازالت لها ذيول باقية ، ومازالت جموع الغربان لم تغادر سماء النوبة في أرض البطانة .. وإذا كانت تلك الغربان تنبأ بها مؤلف كتاب «الغربان فى سماء النوبة» فى الخمسينيات بإعتبارها نذير شؤم ، فنحن الآن بعد خمسين عاماً نؤكد إنها مازالت فوق الاشلاء .

لماذا إذن نتوقع الحكم من جيل لم يكتو بنار الأزمة ؟؟ .. الجواب ببساطة .. لأن الحيثيات أمام تلك الأجيال ستكون مكتملة .. وربما نحن الآن منفعلون بالأزمة .. لغتنا أقرب إلى الصرخة منها إلى الحقيقة .

* ولكن نؤمن بأن الهجرة المعاكسة التى بدأت الآن ، لابد أنها ستكتمل بين يدى جيل أو جيلين .. وعندها ستصبح «خشم القربة» مجرد تاريخ ، سيرتها ستدرس للأجيال والتي ستعيش بين ضفتي البحيرة ..!! ومن ترسبات الطمي ستمتد جزر وهو أمر متوقع منذ الدراسات الأولية لمشروع السد العالى .

* حتى ذلك الحين سنبقى الآن واليوم بعده مع «الجيل الضحية» ولانملك سوى حيثيات الأزمة .. والعذر كل العذر إذا حملت الأصوات نبرات التوجع .

* اللغة فى هذا الكتاب ملونة ، تماماً كتفاصيل الظواهر التي نطاردها . سهلة فى بعضها .. لغة تجريدية غامضة فى بعضها الاخري.. الثقافة النوبية ، التى أنا محسوب عليها .. ليست فقط تهبط على الإنسان من فوق رأسه غير مكترثة لتفصيل الذكورة والأنوثة .. بل هي نظام خاص يضبط التعامل اللغوى النوبى حتى وهو فى لحظات التعاطى مع اللغات الأخرى .. ومن عمليات الضبط هذه تظهر «الخصوصية» التى نقصدها وهى إستهلاك المفردات وحلب رحيقها .. وربما الأفراط أحياناً فى هذا الإتجاه لاتبقى إلاّ زهرة جافة . وقد سئل الأستاذ جمال محمد أحمد عن سبب الغموض فى كتاباته فقال : (... الكلمة لها عندى قدسية وأنا أمقت التكرار ومسألة الكتابة للجماهير العريضة أضرت كثيراً بطريقة الكتابة نفسها .. وأنا أؤمن بنظرة العقاد فى أن يرتفع الكاتب بمستوى القراء وليس المطلوب أن يهبط الكاتب ...) .

كل الذي أردته مما تقدم ، أن أتحسب لداخلات السليقة النوبية إن وجدت .. والغموض فى هذا الكتاب بلغ ذروته عند دراستنا لخليل فرح .. وهو فيما نعتقد ، أمر طبيعيى لأن المفردات التى تطارد الكيان فى أعماق الوجدان ، لابد أن تنعكس عليها ما على الصورة من غشاوة .. فأظهار الغموض هنا هو الوضوح نفسه .

* وكان لابد من تلوين الأسلوب أيضاً فالتعبير بواسطة التحليل السياسى

وتحليل الشخصيات والتحليل النفسى «والقصة والتذوق الفنى .. يقرب المعنى بزواياه المختلفة .

في الباب الأول حاولت أن ألاحق الخسائر الغير منظورة من خلال إبراز مكامن النبض فى المزاج النوبي .. وكيف إنه كان منتجاً في تقلباته ، وذلك من خلال ذكر إسهامات تلك العينات المذكورة من الشخصيات . ولامجال هنا بالطبع للفخر والعنصرية بل هو أبراز لقيمة العناصر المتروكة هناك تحت الانقاض في مستنقعات البطانة .. والأمر هنا يشير بطريقة أخرى إلى الخسائر الإضافية التى تحملها الشعب السودانى من جراء سياسات حكومة عبود ، وقد تحملت الخزينة السودانية من قبل أغلب تكاليف الهجرة .. وقد إخترنا الإمام المهدي وخليل فرح كمزاج نوبي مستعرب ، أما بقية الشخصيات - إبراهيم أحمد - جمال محمد أحمد - داؤد عبداللطيف - مصطفي محمد طاهر فقد إخترناها نماذج مختلفة للمزاج النوبى المشبع .

* الباب الثانى بفصوله المختلفة تركنا أمره لوصف الأزمة ، بمستوياتها المختلفة الروحية والجسدية ، والأزمة فى المستوي الأخير واضحة وبينة وقد لاتحتاج لزيارة المنطقة أن أردت أن تقف عليها .. فيكفى إحصائية لعدد الأسر المهاجرة فى السنة الأخيرة لضواحى الخرطوم هرباً من الفقر والملاريا والمسكيت والتلوث .. أو يكفى فحص غير دقيق لسجلات المواليد والوفيات إن وجدت ..!! أثناء إعداد هذا الكتاب كان عدد الوفيات فى قرية «الكاتب» أربعة فى أسبوع واحد .. ورغم أن أسباب الموت كانت مختلفة إلاّ أن هذا الرقم فى حد ذاته مخيف .. وكان لابد من ذكر عينات من الشخصيات ، لنقرأ عليها آثار الأزمة . وكانت هناك شخصيات (فقول ، أيوب) .. دفعنا بسيرهم رموزاً للمقاومة الصامتة .

* الباب الثالث برمته للتحليل السياسى .. وهو برمته للأجابة على السؤال ..

من المسئول عن تشريد هؤلاء فى خشم القربة ؟؟ هل هم وكلاء النوبة الذين بهم تم تمييع القضية .. أم حكومة أزهرى التى قبلت فكرة السد العالى .. أم حكومة عبود التى على يديها إكتملت فصول المأساة .. أم كانت المسئولية الكبيرة من نصيب الجماهير التى انساقت للمصير .. أم لعنة الأثم عضّت بلاد النوبة ؟؟!

* أما الباب الأخير فقسم بين الفن النوبى الذي حاول أن يتجاوز الأزمة بالتبرير والكلمة الملحنة .. والقسم الآخر للصور والتعليق عليها .

* هناك جزء يسير من هذا الكتاب تعرّض للنشر من خلال الجرائد ولكن لسوء حالها التى وصفناها فى «موائد الأوهام» آثرنا أن نجمع الأجزاء كلها بين دفتى هذا الكتاب .

شهادة نعتز بها

آثر المسئولون فى مجلس الصحافة والمطبوعات عدم ذكر أسم البروفسير محمد إبراهيم أبو سليم على تلك الشهادة التى قدمها لهم ، عندما طلبوا منه . وربما كان ذلك امعاناً فى طلب الشهادة «النظيفة» .

رغم ذلك كان قد إستقر فى يقينى قبل أن أتحقق ، بأن إستاذنا الكبير هو صاحب الشهادة . وقد ثبتناها على الغلاف كقلادة تعتز بها . ومن غرائب الصدف ، إنه فى الوقت الذي كان فيه يراجع هذا الكتاب كنت أقرأ له «الحركة الفكرية فى المهدية» .

أهمية هذا القلم وخطورته عندى ليست فى تلك الألقاب العلمية التى تزينه ولكن فى أنه خط فى مسيرته الطويلة بين الوثائق ، معالم واضحة يمكن أن يبني علي هديتها هوية مازالت لم تتشكل بعد في السودان .. وذلك من خلال «تسويق» المهدية في عقول أهل المدن والشماليين ، مستغلاً في ذلك كون «المهدية» بؤرة متوهجة بمعاني الوحدة الوطنية فى تاريخ السودان .

جاهد كثيراً عن طريق «الطرح المحايد» في أن يعيد صياغة المفاهيم القديمة للثورة المهدية ، لتكون قريبة من أنواق المثقفين وخاصة أهله فى الشمال .. وربما لن يجد الصادق المهدي من يستعين به سواه في مرحلة البناء الفكري اذا كان جاداً فيما سماه ببرنامج «الصحوة» .

رغم انه يحمل صبغة «الاكاديمي المحايد» الا أنه فى خدمة الأنصار كاد أن ينجح فيما فشل فيه جيش النجومي في شمال السودان !! ، اما فى غرب السودان فلابد لحزب الامة من « روح أبو سليم » فى عصر العولمة .

لكي تكون المهدية مشروعاً منتجاً فلابد من « غرب » متذوق لأفكار المهدى و« شمال » يحملها في عقله .

لم يقدم المهدي في تحليلاته «نبياً معصوماً» ولكن إذا أراد الإنحياز كان يقدمه بشراً ممتازاً ، مشيراً الى نقاط الضعف من خلال آراء خصومه دون تعليق .. لم يقل لنا بأنه كان يصطاد السمك بدون «طعم» .. ولم يقل أن أسباب خلافه مع شيخه «حفلة ختان» .

ربما «المزاج النوبى» الذي سنقف عنده كثيراً فى هذا الكتاب لعب دوراً كبيراً في صياغة مقدرات أبو سليم «التوثيقية» . ونعنى بها ملكة الذوبان في النص بغية فهمه وترتيبه أو لتوجيهه من الداخل . لهذا عندما يكتب ينتج الرموز متخفياً خلف الوقائع التاريخية حتى انك لاتستطيع أن تحدد موقعه بين الضوء والظل .. أو يستطيع أن يتحرك لمسافات بعيدة فوق الحبل المشدود .. وربما باغتك بموقف واضح واحياناً تظل تتساءل عنه .. أما عندما يتكلم فمن السهل رصده ومحاصرته .

هذه الآثار وتلك المقدرات جعلتنى أن اعتز بشهادته . أما ملاحظاته وتوجيهاته فقد وجدت طريقها للتنفيذ .. ولكن رغم ذلك أقول وفي فمي ماء . بأنه :

١. تحت وطأة الانزعاج من التلف الذي أصاب ملف هذا الكتاب فى جهاز الكمبيوتر ، من قبل «صبية الكمبيوتر في سوق الله أكبر» .. دفعت علي عجل نسخة من المخطوط «الغير منقح» لمجلس الصحافة .. ولكن الحمد الله تركوني لذي لب حكيم .

٢. اما في امر النقعة والمحصورات أثرنا أن ننفذ الوصية ونترك مافي النفس حتي حين .

٣. أما سبب عدم التفصيل في حادث المعلم الذي ذُبح بين طلابه . هو أن المهجرين أنفسهم عند وقوع الحدث كانوا قد بلغوا منعطفاً في المأساة ، كانوا فيه قد تعلموا القتل .. بسبب الخوف أو الدفاع عن النفس !! ولم يكن أمرهم كما كانوا عند قطع يد العمده .. المعذرة لأستاذنا الكبير والشكر أجزله لمجلس الصحافة والمطبوعات ، الذي ألقي بي في حضن قلم البروفسير أبوسليم ..

المؤلف ،،،

عندما زارنا عبود



لا أدري كيف جاءوا بى هنا فى «أمبراي» وهى شريط من الأرض محازى لجمارا وهى تلك التى ستقف عندها فى باب جذور الإنتماء .. بقيت ضحى ذلك اليوم من شتاء ١٩٥٩م كما بقيت فى الذاكرة صورة عبود ورفاقة وهم على شرفات الباخرة التى كانت تقترب بحذر شديد من شاطىء «مشرع العمد» وهم بازيائهم العسكرية التي كنت حديث عهد برؤيتها - ما تعودنا أن نري عسكرياً إلاّ جندى الهجانة الذي كنا نراه علي جملة وهو فى عجلة من أمره فى تلك الزيارات النادرة - وقفت غير بعيد متوارياً خلف مركب خشبى قديم ، وعلى مرمى البصر منى أحواض متناثرة من البصل الأخضر ، منكسة الأوراق ، بعد أن ألقت زهور بيضاء ذابلة في شقوق أحواض جافة .. وقفت هناك أحملق في ضباط عبود . وهم يتفحصون الأهالى بنشوة مطمئنة كمن يعد قرابينه قبل الصلاة .. النساء يزغردن ويلوحن في الفراغ بالطرح السوداء كأنهن يستحضرن فرحاً غائباً ومنهن من أستغرقت فى هستريا الرقص كأنها مأخوذة بنشوة زار .. وما من فرحة سوى صدمة الزيارة على أهالى قرية

منسية .. والجلباب الأبيض في حلقات «الذكر» وهي طقوس إعلان فرح فيها مفردات منزوعة من قصائد التراث الصوفى فقدت بطول إنقطاعها عن جذورها مضامينها . وما بقيت منها سوي إيقاعات حزينة تئن بها حناجر القوم ، تماماً كتلك الألحان الجنائزية التي يقرأون بها «الصمدية» وهن يترلون فقيدهم في مثواه الأخير .. من هو عبود هذا وأي مستقبل قاتم جاء يبشرهم به ؟؟ لم تكن هذه الأسئلة مطروحة فى ذهن الراشدين من الحضور ناهيك من أن تكون من بين مساءلات صبى لا تعترف الدوائر الطبية بثلاث سنوات من عمره ، فعمره موصوف «بالتسنين» حتى في وجود شهادة الميلاد وربما جدلية سوء التغذية والتخلف العلقي هي التى تحكم الوقائع هنا

لم يبق في الذاكرة شيء بعد ذلك سوى عبود يركب حماراً تم تزيينه على عجل .. تحرك الركب إلى صيوان الإحتفال ! الكل يجرى خلفه وتداخل الأسود والأبيض كأحجار على رقعة شطرنج . أما الصبي فقد عادوا به من حيث أتوا ولا ندري ماذا قال لهم عبود هنالك . وإن كنت علي يقين بأنه لايملك لقوله سوى بقايا كلمات بقيت بعد تلك الدمعات التي قيل أنه ذرفها عندما تأثر بإستقبال الضحايا له . ومهما كانت إنسانية تلك المواقف فانها لاتعني شيئاً سوى بكاء النخّاس على رقيقة بعد أن باعهم .

وقيل أنه حمل منظاره ، علي سطح الباخرة التي كانت تسير محازية لجبل الصحابة . ومد بصرة للغرب وإنبهر بنخيل أرقين !!

ونقل عنه قوله : (... لم أكن أعلم أن حلفا بهذا الحجم وهذا الجمال وهذه الروعة ولكن هذه إرادة المولى ولا يد لنا فيه ...) وربما كان قد تبينت له بيعة الغشيم وأزمة الحكم فى السودان !!

لا أدرى ماذا قال لهم هناك .. وربما قد قرأ لهم ماكتبوه لكل الرؤساء من بعده .. عبارة (يا أهل الحضارة) وهم نشوي بالمديح مطأطئين رؤوسهم .. ولابد أن رفاقه كانوا يمدون ألسنتهم .

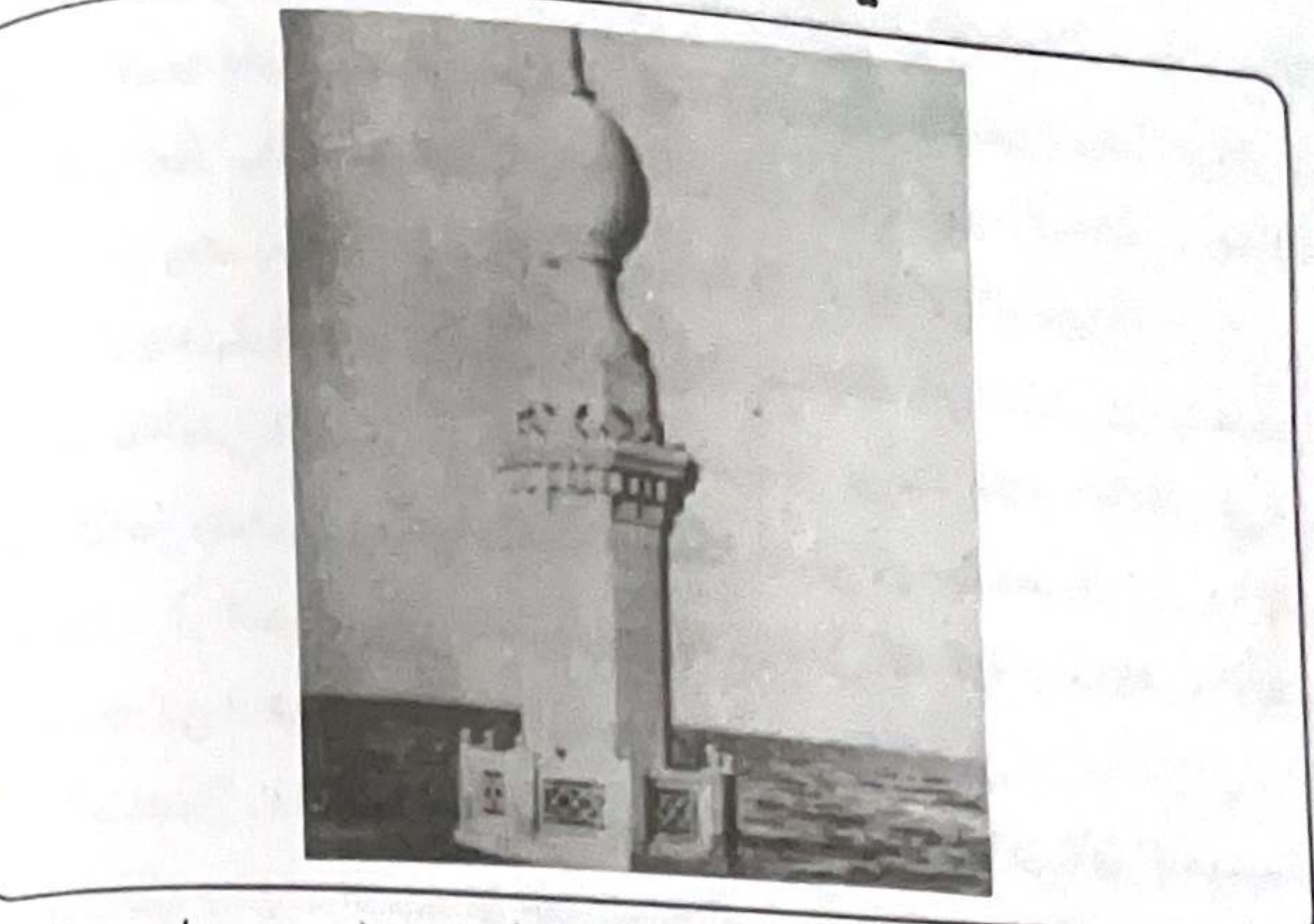
فأهل الحضارة قد تم بيعتهم مرتين .. مرة علي يد طلعت فريد فى اتفاقية مياه

النيل .. ومرة أخرى قد باعهم مقبول الأمين ليعمر بهم مستنقعات البطانة .. فقط لأن هناك فرصة لاحت له لبناء خزان علي نهر عطبرة وكان يمكن ان يتم بناء خزان ويقام مشروع علي نمط مشروع الرهد لتوطين الرحل لمن يختار الإستقرار هنالك من القبائل الأخرى ويتم بعد ذلك ترحيل أهالى حلفا للمناطق التى إختاروها .

هذه اللقطات المطمورة فى غياهب الذاكرة . تستيقظ علي شكل رؤي متقطعة كلما أشتدت الأزمة علي المهجرين في حلفا الجديدة . وربما عندما تتناثر في الذهن تستيقظ مشاعر متداخلة شبيهة بأضواء منعكسة علي مرآة محطمة !! وربما كلمة من أغنية قديمة .. أو إسم قرية أو حتى وجه إنسان فى الذاكرة .. كل هذه الأشياء أو بعضها تحدث فى النفس ما يحدثه الحجر فى بحيرة راكدة .

وحينما ينتفض بك الوجدان تتزاحم عليك الخيارات ولا تدرى لأي الأحاسيس أنت أقرب .. هل تفرح بهذه اللحظات التاريخية التي خرجت منها لتول .. أم تأسى علي نظم الحكم فى السودان ؟!

هل نلعن الخطيئة أم نواسى جراح القرابين .. كيف نقرأ إعتذار عبود .. هل نحاكمه لنستخلص العبر لغيرهم ؟! أم نرضى بحكم القدر!! هكذا تتزاحم الخيارات وأمر الله نافذ ولهذا حاولنا أن نستصحب الأمرين معاً ونبحث في الأسباب راضين بأمر الله .. ولهذا أيضاً ستجدنا عزيزي القاريء بين الصفحات نتلفت مرة مع التحليل وأخرى مع القصة وأحياناً مع الأغنية والصورة .



هكذا مضغ الموج حصيلة القرون وانطلقت المأساة بتشريد جيل من النوبة في أصقاع موبوءة .. وهكذا أيضاً بقيت المأذنة عقب الوجبة المرعبة لحناً باكياً في موكب الذكرى .. وما البكاء الذي نريده هنا دمعات تسيل فوق أطلال كما حسبها ضباط عبود ولكنه لحن يوقظ الوجدان ويشحذ الهمم حتى تعود حلفا إلي حيث كانت .. وكيف كانت ؟! وصفها صحفى قضي فيها أياماً معدودات .. وربما لأنه كان خالياً من غشاوة السياسة قال بأنها : (.. مدينة لها ملامح وقسمات وقامة وكبرياء وجذور بعيدة ، وتنضح بعبق التاريخ، تتدثر بالغموض والثراء الحضارى ..) وقال ايضاً «كنت إنتهز كل لحظة فى الأيام المعدودة التى أمضيتها فيها لا تعرف عليها متأملاً ضفاف النيل وأشجار النخيل المثمر الباسق المهيب وأتوقف لدي الحفريات الأثرية الجارية في باطن أراضها أو أتمعن في اللمسات الجمالية علي واجهات المنازل . وكنت وقتها أتساءل هل يمكن أختفاء كل هذا ودفعه واحدة ؟ وهل يمكن الحكم علي مدن بالموت غرقاً مثلما يحكم علي البشر بالإعدام شنقاً ؟) .

البكاء الذي نريد أن ننقل عدواه من المأذنة إلى الانسان .. ليس دمعات تسيل ، لأن الاطلال نفسها قد إندرست . البكاء هنا لتحديد حجم الخسائر .. وهو هنا إثارة غبار وفتح ملفات وأيضاً تساؤلات .. عن من المسؤول ؟ البكاء هنا محاكمات ولأنها بلا قاعات ولا سجون القاضى فيها الضمير . والخصوم هنا قيم متعاركة .. وليسوا باشخاص فالذين صنعوا الاحداث لم يبق منهم أحد . إذن النتيجة هنا ليست بأكثر من إستخلاص عبر والدمعات إن سالت فهي (دموع رجال) لا تستدر عطفاً من أحد لأن أحداً لايملك أن يعيد التاريخ .. وإن حبسها الرجال تستحيل طاقة تبنى القرى حول البحيرة ، كما يحدث الآن بالشرق والغرب بوادي حلفا رغم مرارة التجربة وكثرة المعوقات وهذه بالضبط هي حكاية المأذنة التي تقاوم الموج .

كيف نغير الواقع ؟!

أية حركة تحاول أن تفهم الواقع بدون أن تبدأ بالانسان .. أو تحاوله تغييره بدونه .. أو تستهدف من التغيير مستقبلاً لايكون فيه الإنسان أولاً تنتهى إلي الفشل .

الأسباب الخارجية :

ترحيل مدينة حلفا من الشمال إلي الوسط لم يتم لأسباب عادية ولا في ظروف عادية لأنه جاء في سياق صراع إقليمي ودولي إنطلقت شرارته من عصر عبدالناصر يوم أن رفض البنك الدولي بتحريض من أمريكا والغرب ان يمول مشروع السد العالي فمولته الكتلة الشرقية بزعامة الإتحاد السوفيتي . وكان الأمر يمثل بحق علامة فارقة في تاريخ المنطقة .

د . إسماعيل الحاج موسي

التهجير والكراهية :

لقد فقد الذين هاجروا احساسهم بعمق الاستمرارية التاريخية التي كانوا عليها واصبحوا كالمنبت لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع ، بينما فقد الذين بقوا (في وادي حلفا) نفس الشيء وأكثر من ذلك . فقدوا إحساسهم بإنتمائهم لباقى النوبيين وآلوا علي أنفسهم ألاّ ينعم واحد من هؤلاء بحلفا إذا قدر لها أن تزدهر .

محمد جلال أحمد هاشم – جريدة الصحافة

البحيرة العارية :

هل تصدق أن تبقى شواطى أكبر بحيرة إصطناعية في العالم دون أن يكون حولها نوع من حياة البشر . وهل هناك حكومة عاقلة تترك مثل هذه المساحة التي تحدها من الشرق الصحراء النوبية ومن الغرب الصحراء الكبرى عارية ؟!

داؤد عبداللطيف – رئيس لجنة توطين أهالى حلفا

أخطاء السيد داؤد :

.. ولعل السؤال الأول والمهم هو هل يمكن للإدارى أن يعمل وهو يفتقر إلي ثقة القيادة السياسية ، ثم ألم يكن من مصلحة النوبيين أن يحاول داؤد إستئناس القيادة

السياسية نحو خطه وأن يصبر علي جموحها وحماقتها . إبعاد داؤد عن التهجير والتوطين كان كارثة علي النوبيين .

بروفسير محمد إبراهيم أبوسليم

لماذا كانوا سفرجية وطباخين !!

.. وأصبح التعليم إستثماراً يعوضهم عن قلة الأراضي وإنعدام وسائل العيش السهلة في بلادهم فاهتموا به إهتماماً شديداً وبدأ النوبيون يعملون أدنى الأعمال في مصر ، كطباخين وسفرجية في القصور لدي حكام مصر وباشواتها وكبار موظفيها ويقبلون العمل كبوابين وخفراء وجنود في خفر السواحل وما دون ذلك من أعمال يمسحون البلاط ويغسلون الأواني .. ليعلموا أبناءهم في مصر ونشر التعليم في بلاد النوبة .

عندما تحرك البريطانيون جنوباً نحو الخرطوم إصطحبوا عدداً لا يستهان به من الطهاة وخدم المنازل ، ومن ثم الحقوا بخدمة قصر الحاكم العام والسكرتير الإداري والمالي والقضائي وقادة الجيش وغيرهم من كبار الموظفين . وهكذا أصبح النوبيون هم القوة الثالثة في مجتمع الخرطوم بعد الإنجليز والمصريين .

فهم الذين يسيطرون علي الوظائف التي يشغلها غير الأجانب في السودان . وفي ذات الوقت هم أقرب الناس للسلطة الحاكمة بحكم تواجدهم في منازلهم فاكتسبوا عطفهم وثقتهم فافادوا وإستفادوا من ذلك كثيراً .

مصطفي محمد طاهر

حلفا وإستقلال السودان :

حلفا بموقعها المميز في وادي النيل ظلت الناقل الوحيد والمباشر لنشاط الحركة الوطنية في السودان الي مصر ، وعبرها عرف المصريون بتجاوب شعب السودان مع ثورة ١٩١٩م بقيادة الزعيم سعد زغلول وعبرها أيضاً ثورة ١٩٢٤م التي قادها علي عبداللطيف رئيس جمعية اللواء الأبيض في السودان وعن طريقها سافر أول وفد سوداني بزعامة الرئيس الأزهرى إلي مصر حاملاً راية الكفاح المشترك لمصر

والسودان ضد الإحتلال الإنجليزى . وكانت لحلفا شهرتها الخاصة بإرسال الأنباء والتقارير من مصر إلي قيادات الحركة الوطنية في الخرطوم وأم درمان وعطبرة وشندي ومدني .

محمد سعيد محمد الحسن

شاعر يرثى حلفا :

ويح آثارك النواطق باتت *** ترقب الموت بعد خلد طويل

ويح ثغر يصير قاعاً سحيقاً *** بعد أن كان هادياً للسبيل

بعد أن كانت البواخر تجرى *** فيه بالخير والثراء الجزيل

كم شهدت المصاب في كل عهد *** كم بلوت الخطوب في كل جيل

الأستاذ علي صالح داؤد

كيف نغير الواقع :

* لكي نغير الواقع لابد من أن نفهه .. والفهم الصحيح هو أن نقرأ الواقع من «اعمق ماضي نذكره الي اقصى مستقبل نتصوره » التاريخ في هذا الفهم «ليس ركاماً من الاحداث» نتسلي بها بل «خبرة متراكمة نتعلمها لنبنى مستقبلنا» .
* جهود العلماء المتخصصين وحدها لاتكفى في غياب الإدارة و«الثورية» .
* استرجاع أحداث الماضى يزيد من تصور الإنسان للمستقبل .
* التطور الإجتماعى هو حل مشكلات الناس في المجتمع لا أكثر ولا أقل .
* قمة النجاح هو تحقيق كل الممكن . «لا وجود في المجتمع لما يسمي المشكلات الخاصة ، إن كل المشكلات التي يواجهها إنسان في حياته . هي مشكلات اجتماعية في حقيقتها الموضوعية» .
* يجب أن لا «نقيم خطط تغيير الواقع الا بعد أن نعرف من حركته في الماضى «تاريخه» كيف تغير حتى أصبح كما نعرفه) .

بتصرف من كتاب «نظرية الثورة العربية»

الباب الأول

ليس للتعصب ولا للفخر ولكن لتحديد حجم الخسارة .. والممكن الضائع !!

الفصل الأول :

المزاج النوبى .. فوائده .. ألوانه .. وجذوره ..

الفصل الثانى :

نماذج من المزاج المشبع

١. إبراهيم أحمد «مزاج نخبوي»
٢. جمال محمد أحمد «وجدان مفكر»
٣. داؤد عبداللطيف «عفوية منتجة»
٤. مصطفي محمد طاهر «قوة الإنتماء»

الفصل الثالث :

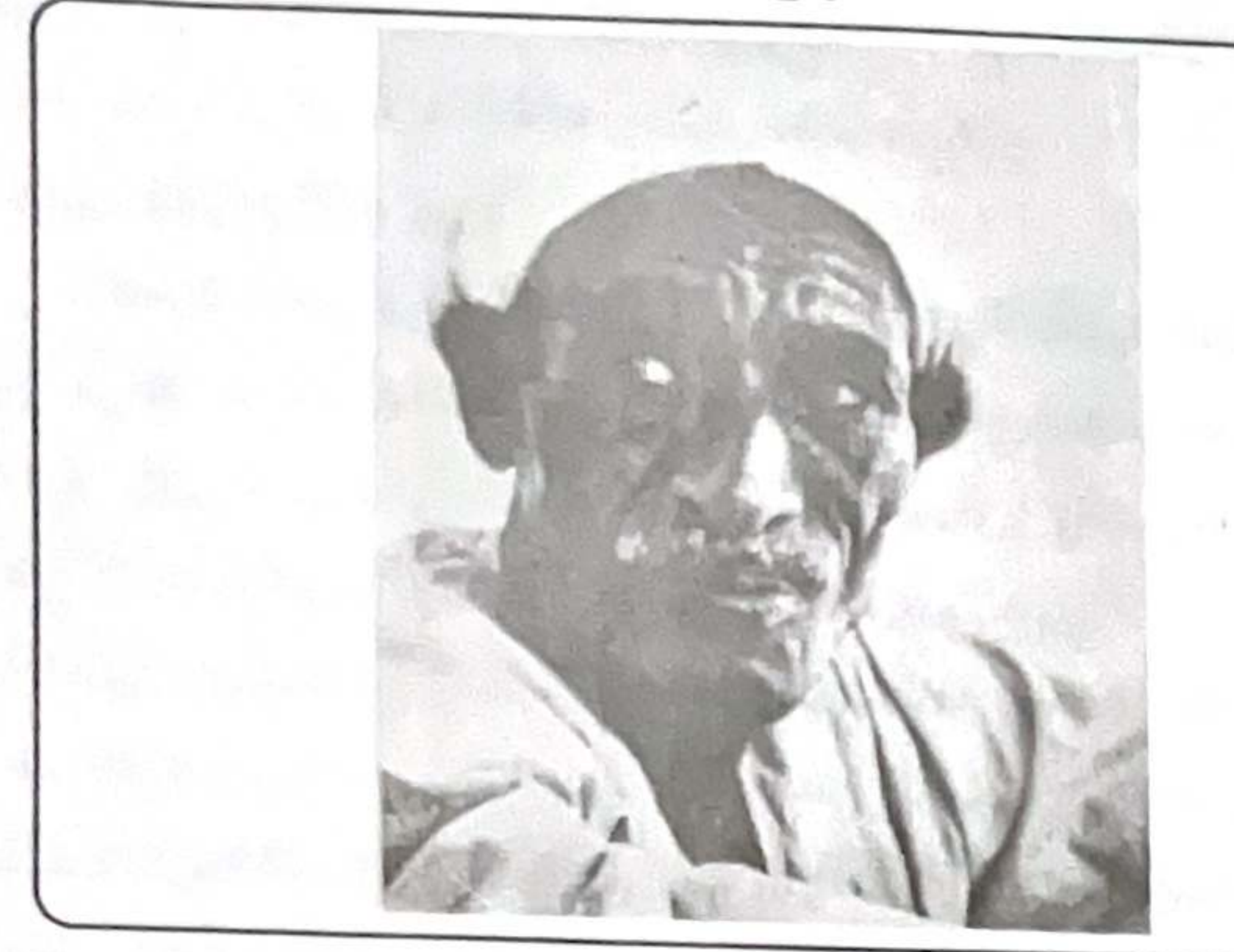
مزاج نوبى مستعرب

١. المزاج النوبى وأثره على تفكير المهدى
٢. خليل فرح «المزاج الطليق»

الفصل الأول:

- المزاج النوبى ..
- فوائد أخرى ..
- ألوان المزاج النوبي ..
- جذور المزاج النوبى ..

المزاج النوبى



ا. الأثر الثقافى للمزاج النوبى:

فى إحدى المسرحيات ولعلها اللواء الأبيض لم يجد المؤلف أفضل من طباخ نوبى يكمل الحبكة .. ربما كان عليه فنياً أن يحدث بعض التوازن وذلك لكى لايطغي الخطاب المشحون بالكراهية للإنجليز . فالطباخ النوبي بلغته المتميزة وتلقائيته المعهودة لم يخف إعجابه بالإنجليز . هذا الموقف رغم إبرازه في المسرحية بطريقة عرضية مهمشة يمثل الآن تياراً طاغياً في مجالس الكبار ، وهؤلاء يترحمون علي أيام الإنجليز . وهنالك دور آخر لايختلف كثيراً يلعبه (الحلفاوي) من خلال النكتة وفي ذلك أيضاً (توازن) غائب في الثقافة السودانية . فإن قال ما ينسب اليه أو لم يقل فهو (جحا السودان) ومن خلاله يتنفس المجتمع من ضغوط (الأبوة المغلقة) والتى تعززها الأمية والجهل .

هذه القيادة غير الرشيدة قد تدفع المثقف أحياناً إلى عقلانية قاتله دون أن تحترم عقله وعصره ، وهنالك أحياناً نجد من يسجل تبرمه من التكاليف الدينية عن طريق

هذه النكات .. أياً كانت درجة الصدق فيما يحكي عنه ، فهذا الإختيار فيه الكثير من الصواب فهو بالفعل أنسب من يمثل خميرة (عكننة) في مجتمعات الأبوة المغلقة والتي قد تدار بشيخ طريقة أو طائفة أو عمدة أو نظام عسكري .

جذور المزاج النوبي :

ربما العزلة الجغرافية وتداخلها المنظم مع الهجرة الدائمة طلباً للرزق لعبت دوراً كبيراً في تغذية الثقافة المحلية حتي انها استطاعت ان تصمد أمام التيارات الثقافية الوافدة والتي كانت تأتي دائماً مدعومة بالقوة العسكرية والتجارية .

في كل هذه القرون تراكمت التفاعلات في الوعاء النوبي ، حتي أن الفروع إبتعدت عن الجذور واستحالت إلي مذاقات متجذرة في ثقافة الحاضر النوبي .

هذه الوشائج القوية بين الحاضر والماضي أرضعت اللغة النوبية حتي تضخمت وإتسعت لدرجة السيطرة التامة علي خيال الإنسان وثقافته ، وربما أدخلت عليه الوبال أحياناً . وأحياناً أخري إذا تم صياغتها وإستثمارها ، عادت عليه بالخير .

من ظاهرة (التضخم اللغوي) هذه ثبتت خصوصية نوبية امتزج في وعائها اللحم والدم والعظام بالفكرة والرؤية والخيال حتى إنك فى بعض الحالات تستطيع أن تتنبأ برد الفعل من خلال قراءة ملامح الإنسان ، ولكى لاتتوهنا دلالات كلمة (خصوصية) يمكن أن نستعير كلمة (المزاج) بإعتبار أن المزاج فكر يستمد معاييره من الفرد وأوهامه أو بإعتباره لون من التفكير يمكن أن نجده في غير المجتمع النوبي .

فوائد أخرى :

الفوائد التي جناها السودان من هذه (الخصوصية) كثيرة ومتنوعة لم تكن فقط في سهولة تهجير الحلفاويين وقيام خزان الروصيرص وامتداد المناقل وإقامة خزان في خشم القربة ، بل أن المزاج النوبي كان مهماً في احداث التوازن المطلوب في انتقال السلطة للوطنيين السودانيين من الإنجليز ولا يستطيع احد أن يتجاوز في ذلك دور إبراهيم أحمد ، وماهو ببعيد في سيرته عن ذلك الطباخ النوبي سوي الواجهة

(الوظيفية) ، ففي المواقف التي يستفاد منها كثيراً - والتي لم يأبه فيها لإتهامات (العمالة) للإنجليز - الكثير من ظلال المزاج النوبي .

إذا كان من مكونات المزاج النوبي الأحساس المفرط بالذات والميل الفطرى لما هو غير مألوف ، ورفض المركزية ، نستطيع أن نفهم كيف أصبح المهدي دولة ، مع توفر شروط أخرى كقدراته علي تكييف مزاجه الخاص بالإرث الصوفي .

هذا التعلق المفرط بالرمز في مناخات لغوية ، كالعربية التي لاتترك أنثى ولا ذكراً دون أن تضع الحواجز بينهما.. يأتي بالعجب .

وقد تجده في لغة جمال محمد أحمد المميزة ، فالتلاعب بفنون التقديم والتأخير ساعده كثيراً ليستنطق الأساطير في رسم هوية أفريقية مازالت حتى اليوم تنادينا من بعيد .

وهنالك فنان مثل خليل فرح ، دفعته هذه الخصوصية لأن يتوغل إلي أعماق بعيدة في الوجدان السوداني مابلغها أحد حتى الآن .

لأننا سنعود لهؤلاء مرة أخرى سنكتفي هنا برأي محجوب عمر باشري مؤلف كتاب (رواد الفكر السودانى) وهو يترجم لداؤد عبداللطيف .. إذ يقول : (فالتماسك العضوي التاريخي والأنثربولوجي لم ينشأ من مدينة (حلفا) ولكنه نشأ من أهلها فكلهم متحدون في لغتهم ومشاعرهم وعاداتهم وقيمهم ، يمتصون كل هجرة وافدة .. ويصيغونها في اقاليمهم .. فداؤد خرج من بين أهله المتماسكين صلابة توفده الحضارة النوبية القديمة التى هي أساس حضارة السودان وهي التي خطت الصورة الواضحة للسودان القديم) .

الوان المزاج النوبى :

رغم أنه ليس من السهل تخطيط حدود واضحة للمزاج النوبى سنحاول هنا في نقاط تحديد ما أمكن من الملامح :

* المزاج النوبي لايميل كثيراً نحو التفاصيل بل دائماً تجده محلقاً في الكليات

وربما لهذا لانجد في المناخ النوبي الفوارق الكبيرة بين المذكر والمؤنث .

* يقدس المنطق لأن البناء الفكري دائماً يقوم في الهواء الطلق . هذه النزعة دفعته لحب العلم واستفاد منه كثيراً ، بل تفوق به علي الآخرين ولكنه من جهة أخرى أضعف فيه شروط التدين !!

* يرفض الاطار ويقدس الحرية الشخصية لدرجة الضيق بالمركزية أحياناً .. من أيجابيات هذه النزعة أن تملأ الإنسان إحساساً بالكرامة وتدفعه للتفوق ولكنها من جهة أخري تجعلهم مجتمعاً بلا نماذج ولا زعامات .

* لأنه يقدس فرديته يعانى كثيراً من التفريق بين الحقائق وأوهامه الشخصية .

* لدي النوبى ميول فطرية للغير مألوف ، ربما سببها أن الحقائق في مستوى اللغة أهم بكثير مما هي عليه في الواقع .

* المزاج النوبي في أغلب الأحوال (أنزلاقي) للأبيض أو الأسود لايحب كثيراً أن يقف عند اللون الرمادي وإن إضطر لذلك يستعين بسيف المنطق الذي يلازمه في كل الاحوال .

هذه خطوط كثيرة ومتداخلة ليس من السهل الفصل بينها ولكنها في نهاية المطاف تشابه نفسية إنسان المدينة أو ميول الفنانين .

هذا المزاج النوبي الذي يشكل في أحسن أحواله معالم وعى غائم . يستطيع أن يتفاعل في كل الأوعية .. وربما أفرزت ظواهر اتسعت حتى كادت أن تصبح دولة ، كما في مثال المهدي . وذلك عندما تم صياغة هذا المزاج الطليق في وعاء (التدين) وفي هذا المضمار أفرزت دعاة سلفيين أو شيوخ طرق صوفية . يقول في ذلك صاحب كتاب السد العالي ومأساة النوبيين : (قام نشر الإسلام في السودان علي عاتق هؤلاء النوبة الذين نهلوا العلوم من الأزهر .. وعملوا علي نشرها في النوبة وبقية أنحاء السودان .. أمثال الشيخ إدريس ود الأرباب الشيخ خوجلي عبدالرحمن «أبو الجاز» – الشيخ أرباب العقائد الذي بنى أول مسجد فى الخرطوم). ويقول أيضاً وهو يصف

النوبة بأنهم .. (يخضعون كل أمورهم للعقل والمنطق . ولا يفعلون شيئاً لم يقتنعوا به .. يزنون كل شيء بميزان العدل والعقل والمنطق ينظرون إلي الأمور نظرة شاملة ولايكتفون بالجزئيات .

وهم بعد ذلك مسالمون ، فالنوبي لايحمل شوداً – عكازاً كما يفعل جاره في الشمال ولا سكيناً كما هو حال جاره في الجنوب . سلاحه عقله وسيفه في النزاع منطقه) .

وربما لو تم صياغة هذا المزاج في وعاء (فنى تعبيرى) لأفرزت كظاهرة خليل فرح ، التي مازالت رموزها حية بين الناس مايقارب القرن من الزمان ، تغذي الخيال وتستعصي علي التأويل وتتوالد في ساحات المعاني المفتوحة في كل الظروف والمناخات .

اللغة النوبية هى الجذر الحيوى :

هذه الظاهرة ما أسبابها ..؟ رغم أن الظواهر جذورها كثيرة ، إلاّ أننا هنا نستطيع أن نحدد الجذر الحيوي فيها بأنه اللغة النوبية .

فالإنسان هناك مصاب في هويته الإفصاحية للتعارك الحاد للثقافات في وعائه ، فهو مضطر لكي يعيش باللغة العربية ويفكر بالنوبية . المفردات تتحرك في إتجاهات متعاكسة .. وربما لهذا مطلوب منه ليبذل طاقة جبارة إذا إضطر لإستعمال أدوات التلطيف اللغوي كالمجاز والإستعارة والإيحاء والكناية .. وإذا كان الأمر كما قيل بأن المجاز أبلغ من الحقيقة فلابد أن التعويض يكون في الجانب (العقلانى) .. وخاصة المنطق البارد الذي لايكترث دائماً لحواجز الواقع .. ومن هنا يمكن أن تدخل أحياناً الحقيقة متوحشة في أحاديث الحلفاوي وقد تطال العقيدة .. وهو باب يرتاح إليه (الغواه) وهم كثر في المجتمع السوداني المغلق ، وربما الإنشراح والتفكه مصدره هذا اللقاح بين الفوائد والمصائب .

أما لحظات التعبير العفوي فلا مجال للعربية فيها . فالسيادة للغة الأم وإذا إضطر

لأي سبب كان ليتحدث بالعربية في لحظات العفوية هذه ، المفردات تولد بزي نو

وإن كان لابد من توضيح .. فمسألة (المذكر والمؤنث) أوضح تعبير .

الإنسان ينظر إليه في هذا المناخ اللغوي كهوية واحدة . وربما السبب في ذلـ

طغيان الجانب الوجداني ، فالنوبية لغة وجد أكثر من انها تصلح للأسواق .

المتحدث ينظر بقلبه ، لهذا لاتهمه التفاصيل الخارجية وهذا أمر معروف في

المواقف الوجدانية حتي في اللغة العربية وربما هذا المناخ الوجداني سببه الصرا

الطويل بين الثقافتين العربية والنوبية .. فالعربية مع مرور الزمن تتقدم علي حسا

الثقافة القديمة ، لأنها شرط من شروط العقيدة أو هي لغة التفاصيل اليومية ، وكلما

تقهقرت (السليقة) النوبية إقتصرت المفردات علي المعين الوجداني .

الذكورة والأنوثة بطبيعة الحال متعانقتان ، في قاع الوجدان ، كما هي ذائبة في

طفل لم يبلغ الحلم والغموض الذي قرأه الصحفي محمد سعيد محمد الحسن في

كتابه (قصة إختفاء أجمل مدينة سودانية) وهو يتجول في سوق وادي حلفا قبل

التشريد ربما هي (إيحاءات التنوع والتناغم) فالمنطقة أصلاً منطقة تلاقح حضاري .

ففي ملامح البشر قد تجد بقايا أغلب السلالات البشرية .

قد تجد الملامح الزنجية وقد تجد أيضاً ملامح الأنجلو ساكسون وبين هؤلاء وأولئك

تجد الدماء البلقانية بكثرة وهم بقايا الأوربيين الذين كانوا يخدمون الأتراك أو مماليك

بحر (قزوين) وهؤلاء إشتراهم حكام الدولة الأيوبية وهم أطفال ليخدموا في الجندية

والقصور .

وإذا كان السحر في تجمعات هذه الألوان ، فربما الغموض في قدرة هذا الوعاء

الأغبر «وادي حلفا» في جمع هذه المتناقضات .

ثقافة واحدة تلف كل الأشياء . وربما وهو يتجول رأي زنجياً من غرب أفريقيا

يقاسم إبن أحمد الخواجات زياً موحداً أو لغة نوبية ، وربما وجد الجلباب والطربوش

والجرجار ولكن لن يجد صاحبها ، فالإنسان هنا (هوية لغوية) أكثر منه جسد نو

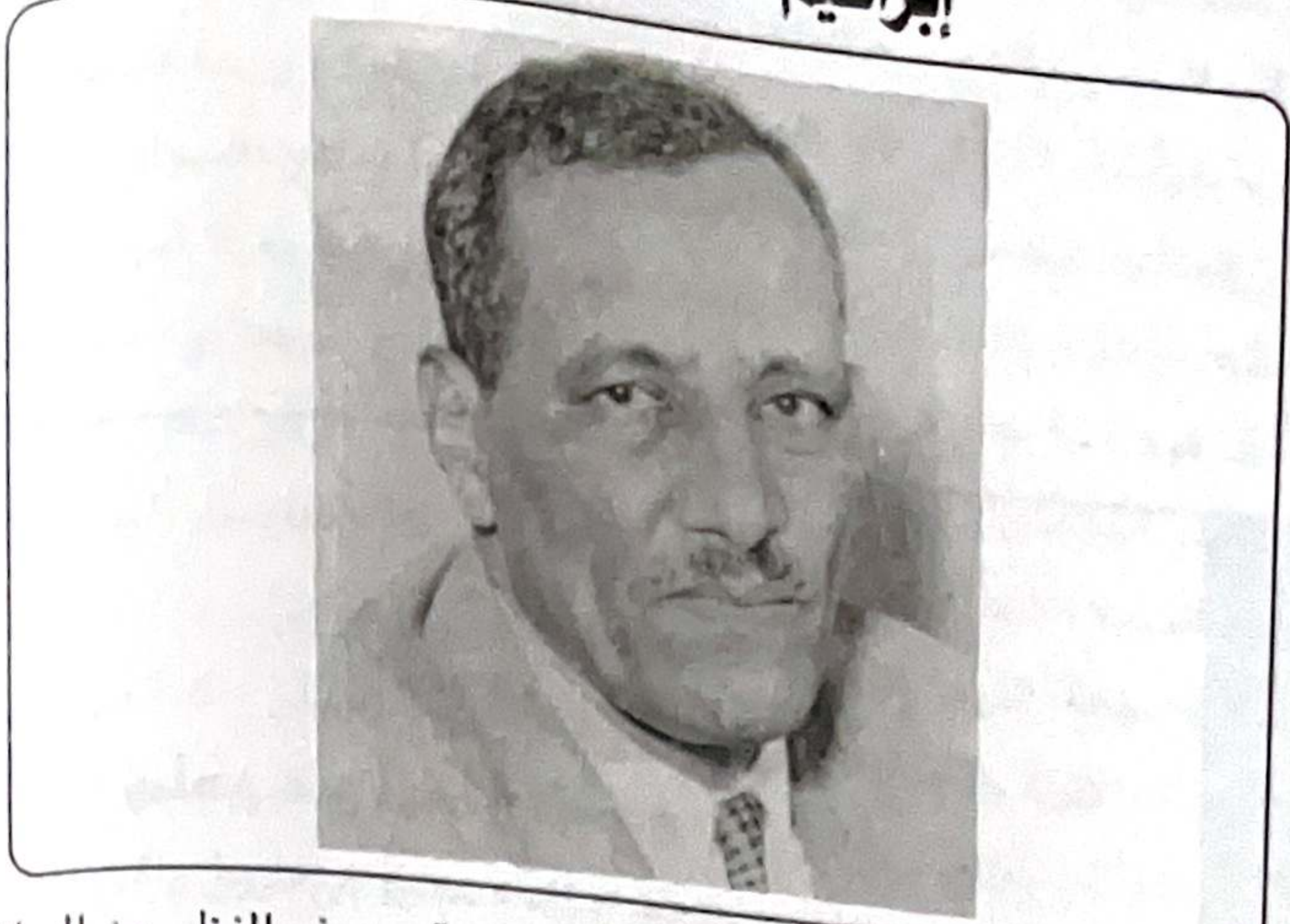
ملامح مميزة لهذا لايستطيع أحد أن يدعى سيادة هنا .

الفصل الثاني :

نماذج من المزاج المشبع

١. إبراهيم أحمد «مزاج نخبوي»
٢. جمال محمد أحمد «وجدان مفكر»
٣. داؤد عبداللطيف «عفوية منتجة»
٤. مصطفي محمد طاهر «قوة الإنتماء»

إبراهيم أحمد (المزاج النخبوى)



نهج مؤلف كتاب إبراهيم أحمد في تناول الشخصية بصرف النظر عن الدوافع إ وجدت . كان مفيداً للغاية ، لأن التغنى والتلميع دون حياد لشخصية مثل الأستاذ إبراهيم أحمد في مثل هذه الحالة الثقافية التي نحياها لابد أن تحدث توازناً ل مابعده .

التوازن هنا مثل ذلك التوازن الذي يبحث عنه مؤلف مسرحية اللواء الأبيض من خلال «الطباخ النوبى» وعلي ذلك زد أن الأستاذ إبراهيم أحمد لم يكن في مسيرة ومواقفه مايلهب العواطف .. كما أراد لنفسه .. رغم أهميته للخواص والعوام .

فقد كان مهماً للخواص بآثاره في التعليم وللعوام بتنظيمه للإقتصاد ، ولهذا سيظل هذا الكتاب محاولة فريدة حتى ولو صدرت مؤلفات أخرى ولعل هذا الذي سقناه يجعلنا نعتقد أن الذي بذله مؤلف الكتاب لم يكن سهلاً بل مقدراً ، الإعتراف المدعوم بالصورة بعضويته لنادي الروتاري يعني في عرف التيار السائد الآن أن الأستاذ عضو بطريقة أو بأخرى في المحافل الماسونية ، وهي الآن تهمة لاتقل عن تهمة (عمالته

للإنجليز) والتي كانت تكال من قبل الخصوم في نادي الخريجين ، وفي هذا إعتراف رائع قد يؤدي الي تصادم سيقود بدوره إلي تلاقح يثري الساحة.

رغم أنه كان لايروق له أن يكون رجل فكر وفلسفة إلاّ أن المشاركة الكثيفة والمؤثرة من جانبه دائماً، مهما كان موقفنا من الإنجليز تجعلنا ننظر إليه كحالة ثقافية وهي حالة ثقافية لاتؤمن بالطفرة ، أي أنها تكتفى بمعطيات الواقع والحواس بإعتبارها أقصر الطرق . وإذا كان لابد من مجال للعاطفة ففي مثل تلك القناعة ، ليست أكثر من تلك المتعة التي تتبدي في عملية الإنهماك في العمل وقد يسمونها باخلاقيات العمل ، أما الإنفعال بها يسمونه بالانضباط .

أهل هذه الثقافة هم أكثر الناس إحساساً بضرورة التغيير ولكن لايتم لديهم إلا من خلال القوانين نفسها التى رسخت الواقع المرفوض ، ولهذا فهم ليسو في عجلة من أمرهم.

إبراهيم أحمد كان رافضاً للإستعمار كأحمد خير المحامى والأزهري ولكنه كان يحترم قوانينهم ، كان منهجه هذا يكاد يحرج الضمير الإنجليزي . وقد نستشف هذا المعنى إذا أمعنا النظر في لغة المذكرات المتبادلة بينه وبين الحاكم الإنجليزي . ولهذا إحتار في أمره الفريقان .. فالوطنيون كانوا يعتبرونه رجل الإنجليز والحكومة الإنجليزية رغم توجسها منه لم تجد له بديلاً ولهذا أيضاً ظل رجل المرحلة حتى خروج الإنجليز .

كان لايملك قاعدة جماهيرية بطبيعة الحال . ولم يكن له بعد ذلك دور يذكر إلاّ في الظل الإقتصادي ، أما مرحلة وزارة المالية والتي دخلها ممثلاً لحزب الامة ، فمهما كانت الإنجازات الإقتصادية فيها فهي مرحلة مليئة بالتناقض ، فالبون كان شاسعاً بين منهجه وما كان يؤمن به وبين الولاءات التي كان يحميها في الإجتماعات العلنية والسرية ، وربما لهذا كان يستميت في محاولة التفريق بين حزب الأمة والأنصار . وربما عدم إشتراكه في حكومة أكتوبر كان تصحيحاً لموقفه هذا ، وربما أفضى لظهور

قوة جديدة في قيادة الأنصار . وهناك مأخذ آخر سنتطرق إليه في باب آخر . وهو أن مواقفه في معارضة فكرة السد العالي لم تكن بحجم ثقله السياسي .. سوي بعض التصريحات التي كانت تخدم المصالح الحزبية أكثر من أي شيء آخر .

جذور الانضباط في شخصية إبراهيم أحمد ومواقفه ممتدة لأعماق بعيدة في الظاهرة النوبية ، أما أسباب الظاهرة هي :

* غياب معايير مطلقة تحكم المزاج النوبي لعدم وجود مركزية تربوية جعلت عملية (التدين) تتم من خلال التجربة ، لهذا قد نجد الجو الفكرى للإنسان النوبي يختلف كثيراً عن إنسان الريف السوداني الذي يتدين من خلال التربية . لهذا يضطر إنسان المدينة في السودان للإستعانة بـ (الحلفاوي) إذا أراد أن يحدث توازن في فكرة سائدة تنقصها جرعة عقلانية ، حتي أصبح (الحلفاوي) رمزاً للتوازن الفكرى في السودان المعاصر ، ولكن آفة هذه الميزة صلابة في غير موضعها أو (عناداً) لعدم إعتدال المزاج .

تعدد المرجعية هذه قد تساعد الباحث إذا توفرت لديه شروط الرخاء الإقتصادي لكي يتعامل بحياد مع الخيارات ، وإستفاد الأستاذ إبراهيم أحمد من النموذج الإنجليزي في الإنضباط لدرجة التفوق علي بعضهم وربما الأزدواجية اللغوية التي يعانى منها الإنسان النوبي لعبت دوراً في اتقانه للإنجليزية كلغة وثقافة .

من حسنات هذا التيار الذي كان يمثله إبراهيم أحمد أن يقبل الإنسان بأي نسبة من الممكن ليتعامل مع الواقع المفروض . أنظر كيف يستثمر حتي حالة كوننا في مؤخرة الشعوب المتخلفة عندما يقول (إذا كانت هناك أي فائدة نجنيها من سيرنا في آخر قافلة الأمم فعلينا أن نستفيد من غلطات الذين سبقونا) ومن حسناته أيضاً أنه يتحسب للطوارىء ويضع لها مبرراً لكي لا تبقي عقبة أمام تحقيق الأماني إذ يقول : (إننى أقدّر أن الكثيرين يفسرون الحرية - خصوصاً بعد سنين الكبت - بأنها عدم التقيد بالقوانين) وربما غياب هذه النظرة هي التي دفعت حزبه لتسليم السلطة للجيش

عندما كان وزيراً في حكومة السيدين .

بلغت ظاهرة الانضباط أقوي تألقها في هذه الشخصية في عمليات الاعتراف التي نسبت له فقد كان يعتذر للجنوبيين نيابة عن الشماليين وهو رئيس مؤتمر الخريجين عن المظالم والحروب التي ارتكبها الشماليون وكأنما كان يشير الي تجارة الرقيق ولكنه لايندفع دون ذكر الحقائق ، فيذكر ان الذي قام به الشماليون أقل بكثير من الذي قام به الاوربيون . وفي موقف آخر يعترف بالجميل للشعب البريطاني الذي بني كلية غردون من جيبه الخاص ..

اذا كان ماتقدم هو الجانب المشرق لابراهيم احمد ففيه اعتمدنا علي خطبه ومراسلاته ، رغم ان المؤلف يعتبرها لغة مؤسسات أكثر من هي كتابات معبرة عن دواخل نفسه الطليقة ، وما ذاك الا لانني أردت أن ادرسه كحالة ثقافية أو (ظاهرة) مكملة للذي يحدث الآن من انفتاح للحريات .

هذه الظاهره التي نحن بصددها الآن اذا فصلناها عن قشورها ودوافعها ونظرنا للبابها فهي ثقافة اسلامية تندرج تحت باب (المداراة) وهي مندوبة ، وقد فصلوا بينها وبين (المداهنة) .. فقالوا : المداهنة محرمة وهي معاشرة الفاسق واظهار رضي بما هو فيه من غير انكار عليه أما في المداراة فقالوا : هي الرفق بالجاهل في تعاليمه وبالفاسق في الانكار عليه واستدلوا بحديث الرسول (ص) عندما قال : (ياعائشة متي عهدتني فاحشاً) وذلك عندما انبسط النبي (ص) في وجه رجل كان قد قال فيه (بئس آخو العشيرة) .

اما الجانب السالب لهذا التيار فيتلخص في انه عقلانية مادية لاتملك ضمانة للاستمرار ، كحل لمشكلة المجتمع وان كان مهماً في مراحل البناء الاولي ، فالانسان عندها يصبح آلة صماء لاعاطفة له ولاتواصل وكل ماأصيب الانسان بالخواء الروحي من جراء عمليات الاستهلاك والرفاهية ، تعطلت عمليات الانتاج نفسها . فلا يمكن ان يكون المحرض الاول للعمل هو عقلانية الهدف وحدها والا انتهت تلك العقلانية

المزعومة الي ماكانت تهرب منه من قبل وهي .. الاحلام .. الفلسفة .. الفكر ، فللغايات أهمية لاتقل عن أهمية الأسباب .

وفي ثنايا الواقع القائم غيب مجهول . والايمان في منطلقاته عملية رياضية لهذا نستطيع أن نقول إن الفلسفة والأحلام واللغة والفن والحكمة عناصر مهمة في أي صفقة تجارية ناجحة .

ويبدو كما هو واقع في الترجمة ان الاستاذ رحمه الله طال به العمر حتي بداية التسعينات فشهد ذبول عصر الحداثة وبداية عصر مابعد الحداثة ، فالعقلانية المادية بدأت تنحصر مع التطور التكنلوجي وبدأت في المقابل تتسع دائرة الفكر والحلم والاسطورة وبدأ في الساحات الاوربية ما يشبه انشار ظاهرة الحنين للرمانسية ووجد الخواجات أنفسهم وسط عالم مسحور وصلوا اليه عن طريق الاستنساخ ولكنهم لم يستيقظوا الا وقد احيطوا بالحركات الدينية هنا وهناك وهم الآن يحاربونها بأسم (الأصولية).

من باب اعتبارنا للأستاذ كحالة ثقافية لمساهماته الضخمة ، في قيادة نادي الخريجين ، في ظل الأستعمار الأنجليزي ، وفي اشتراكه في الجمعية التشريعية ومساهمته في التخطيط للتربية وبناء جامعة الخرطوم وقيام الأحزاب والتخطيط ايضاً لأنشاء الشركات وقيام البنك التجاري .. لكل هذه الانجازات نعتبره أحد التجليات الراقية للظاهره النوبية في تيار الفكر السوداني المعاصر .

ولهذا كله ايضاً نعتبر منهجه في التعامل مع الاحداث (خميرة) مهمه يجب الاهتداء بها في بعض مناحي عملية الاصلاح الجاري الآن لتبقي التجربة وسط اعاصير العولمة التي تجتاح العالم .

جمال محمد أحمد (الوجدان المفكر)



إذا صدق ماقيل عن الدبلوماسية بأنها هندسة الموافقة بين المتناقضات ، فانها اذاً هي النار التي عليها نضجت تجارب الاستاذ جمال محمد أحمد .

قد تستريح الي إعتبارك أياه من المحافظين وقد لاتبقى علي هذا ، حتى يؤرقك روح الرفض فيه . اجتمع علي ساحته الأوربى بالنوبى والعربى دون أن يطغي أحدهم على الآخر ، دائماً تجد الأول . وهو فى الأصل متهم بأنه من (الإنجليز السود) . فى وجدانه يمكث الثاني وعلي لسانه يتربع الثالث .. وربما هذا العطاء الثقافى الثر سببه نضج الإتجاهات المتلاطمة هذه . لايخطيء الناظر فيه ملامح التنوع رغم أنه كان قد أصبح ذا سلوك مميز . ربما لهذا إستيقظت في الصحفي المصري مفيد فوزي نوازع متنوعة إستغرق فيها وهو يعدد أوصافه .. يقول بأنه (.. واحد من الصفوة في السودان ومن الضروري لكاتب يبحث عن كيمياء الشخصية السودانية أن يقابله .. ولأنه أحد الذين عكفوا بجدية علي الدق في الجدار الافريقي الصلد .. ولأنه عاش أكثر من مرحلة وهو من المؤمنين بأن التاريخ سبيكة واحدة وأن الماضي يدخل في عروق

الحاضر وأن المراحل لاتموت أبداً ..)

نزعة المفكر في الاستاذ جمال أكسبته حساسية ، لايدعك تتحدث في حضرته إ
بالشاهد والمثل. كان علي الملك صائباً عندما وصف لغته (بالمميزة) وعلة تلك اللغ
الخاصة في تقديري من تلاقي الثقافة العميقة بالوجدان النوبي المشتعل .. المعن
بطريقة اخري ان الالفاظ المنتقاه من مصادرها العربية الصافية تكتسب أبعاداً روحي
لاتملك بعدها إلاّ أن ترقص مرغمة علي الإيقاد النوبي السريع .. هذه السرعة أظهر
ماتكون في المواقف الوجدانية المنثورة ولابد أن تصطدم بالغموض فى مثل هذ
الأجواء العبقة بالحساسية اللغوية. لذلك نعتقد بأنه لابد من وجدان ملتهب أو ثقاف
مماثلة في القاريء لكي يلاحق هذه المعاني التي تتبخر بمجرد أن تهبط علي المخيلة

ويقول الأستاذ محمد علي أحمد (.. امتازت اللغة النوبية بمقدرة فائقة لأي موضو
تتناوله وأكتسبت بعد أن فقدت قدرتها التدوينية بلاغة لاتحد فابقت نفسهاجانب السر
اخر.. ما انكفأت على نفسها وانقرضت . فالاحاجي النوبية تأخذ لبك تصور الأشيا
بدقة متناهية لاتعرف في الحديث عرضاً .. تنحو بكل منحى .. تفصل الشيء تفصيلا
غير اثر .. فاثرت في لغة الضاد وألبست الضاد شيئاً من لبوسها .. وما كان لها ان
تفعل لولا أصالتها .. لو لا أعتدادها .. فهي لغة شفاه .. كل هذا وغيره جعل لجمال
لغة متفردة سماها البعض بغير كثير حذر لغة جمال محمد أحمد .. خذ مثلاً قوله :
(التقدم كان كل عصر مضى منبع الأوجاع .. يعطيك كثيراً ويأخذ بعد شيء لقاء ..)

لنوسع دائرة الإتفاق مع الكاتب حول تلك الأوصاف التي أطلقها علي اللغة النوبية
نسوق هنا مثالاً أخر وهو لغة الفنان خليل فرح النثرية .. يقول مشاركاً في حوار كان
دائراً حول تحرير المرأة (دارت الألسن . وجمدت الأقلام في هذا الموضوع وما كنت
أكتب كلمة لولا أنني أقف يالقاريء ليستنتج رأيه علي ضوء تلك النار المتأججه بين
أقلام الكاتبين وألسنة المنتقدين . قد لاينكر الطبع ولا العلم والعقل . إن الشرائ
أوجبت تعليم المرأة فعم يتساءلون ؟..) .

ويمكن أن نقول الشيء نفسه في حكاية (الهوية) الأفريقية التي ولدت عند جمال من تلاقح الوجدان النوبي بالعربية .. فلقد ولدت عزة الخليل من قبل واصبحت الآن رمزاً للهوية السودانية .

من مؤلفات جمال ، المسرحية الأفريقية ووجدان أفريقيا وسالي فوحمر وعرب وأفارقة .. أفريقيا عنده ليست تماماً كتلك التى يتحدث عنها الدبلوماسيون . عند هؤلاء كينونة محشوة بالسذاجة والفاقه والخشونة ، أما في مؤلفات الأستاذ وأن كانت كذلك فأنها تعود إلى مرفأ في أعماق سحيقة في وجدانه ولعل هذا التداخل بين الممكن والمستحيل في أفريقيا حري به ليبحث عنها بين أحداث الأساطير أو في شخصيات المسرح الأفريقي أو ربما لهذا رأي الفضائل في تلك الأساطير التي قد تكون من بينها مظاهر حياة ينكرها عقله .

يقول في وجدان أفريقيا .. (إنتقل لواقعة في التاريخ القريب لأفريقيا فتتزاحم الأشياء والنظائر من ماضى بعيد ، فأكره ألاّ أشركك هذا الذي أحسه فأقف أرجع للوراء للجذور راجياً ربط القديم بالحديث).

هذا التراحم بين الماضى والحاضر والربط بين القديم والحديث لم يكن فقط في لحظات الإبداع وحدها بل تجده في واقعة المعاش .. ففي باب منزله في الخرطوم (العمارات) – والتي استوقفت كل من زاره – تجد لوحة تحمل اسم سره شرق (وسره شرق) هذه قرية صغيرة ذات ملامح فقيرة وهي أحدي قري وادي حلفا قبل الغرق .. كيف إجتمع هنا .

بيئة أخذت حظاً من أسباب الحضارة وأخري مليئة بالفاقه والسذاجة ؟ وعلي هذا زد أن مثل هذه اللوحة لاتعني شيئاً لدي إنسان هذه الرفاهية ، وهنالك من بينهم من انطلق من هذه القري ناسياً اهلها .

سره شرق لدي جمال تمثل أقرب المرافيء لذاته في أحشاء التاريخ لأنها مسرح الطفولة ، ولإستحالة اجترار مثل تلك الحرية أصبحت التجارب الثقافية المنصهرة في

بعضها هوية ممتدة ، سره شرق في نهاية أمرها أفريقيا من خلال السودان ، فليس غريباً إذن إذا تصالح الأفريقي والعربي في بوتقة سره الكامنة في الوجدان وربما لهذا لم يستطيع أن يمسك بتلك الهوية التي يطاردها في أفريقيا ، ففي وجدان أفريقيا يقول : (ما قصدت من بحثى حقائق تأخذها بينك قصدت أن أترك معك ذكراً يلح عليك لا أبرر التيه الذي جاء بك هنا حين أقول أن دليلي في غابة الفكر الإجتماعي كان الكاتب الأفريقي نفسه) .

التصويب الناضج لعمليات البحث عن تلك المتعة الكامنة في التاريخ ، ألقت في روع الأستاذ جمال بان مفتاح الينابيع موجود علي أعتاب سره شرق لهذا احبها .. وصدق أوهامها ، ولكنه رغم ذلك لم ينس عقلانيته المعهودة وواقعية وربما لذلك (عقلن أشواقه) من خلال الأسطورة . فمن خلالها إستطاع أن يبنى أساساً راسخاً بجذور ممتدة إلى قاع وجدانه حيث الحقيقة الناصعة .

وهنا إنتهى دور سره شرق التي أصبحت حجراً في أساس بنائه الفكري ، وسره هنا شبيهة بزينب الجميلة بنت القرية بطلة الأسطورة التي كانت محسودة من بنات قريتها ، وهي رمز للحقيقة فالوصول إليها ومصاحبتها تتطلب من الجهد ما يوازي هذا الطلب الذي ذكره في كتابه حكايات من سره .. إذ يقول (سانثر في الريح جوالاً من السمسم فلو كنتن حريصات علي مصاحبة زينب فاجمعن كل حبة سمسم وأعدنها إلى الجوال ..) . ورغم أن الأسطورة تقول بأن البنات قمن بالمهمة الصعبة لدرجة اخراج آخر حبة من بطن دجاج إلا أن القصة تنتهي بزينب وقد أصبحت من نصيب الغول (أربكى) . وهو حيوان أسطورى يرمز للجانب اللانهائي للواقع المعاش .. والقصة توحى كأنها الحقيقة لايستطيع أن يحتفظ بها أحد مهما بذل من جهد . والجانب الخافى من الجمال أكثر بكثير من الذي نراه ومن هنا نستطيع أن نجمع بين الماضي والحاضر . القديم والحديث .. لأن المناهج المطلوبة لحل قضايا العصر لاتستطيع أن تتجاوز هذه القوانين العلمية . ولو أستطاعت سره شرق أن تشكل

وجدان الكاتب وتصل إلى مثل هذه الأبعاد فلا غرابة إذن أن أصبحت قاعدة لكل القيم التى يؤمن بها جمال محمد أحمد .

ففى قيم الأسطورة التي ذكرنا بعضها ستجد جوهر الديمقراطية والحوار والرأي الآخر وفيها أيضاً معنى التذوق والإبداع والكيان الهارب بل وستجد تلك العلاقة التي ذكرها جمال في كتاب «الدبلوماسية» بين مجالس الأجاويد في القرية والدبلوماسية كعلم.

الأسطورة في وعائها العقلانى الجديد أيقظت في الأستاذ أحساساً بالثقة أفرغها في الكيانات الميتة حوله حتى أيقظ في الناس معانى جديدة كمثل قوله فى أفريقيا (ستبقى أفريقيا متدينة .. تدين أفريقيا في زعمي أنا .. حقيقة يخطي من يتصور أن عنصراً آخر من العناصر التى تدق علي باب روحها دقاً عنيفاً سينتصر ..!) .

حتى تلك الأسئلة التى كانت تختصر مشكلة الهوية فى السودانية كان يعتبرها دليل صحة وعافية فعندما يسأل هل أنت عربى أم أفريقى ..؟ كان يقول عبقرية السودان تكمن فى محتوى السؤال .. لهذا كان يعتقد أن السودان وصل المرفأ وصارت هناك عبارة (قومى سودانى) بدل قومي عربى وماركسى .. ونستطيع بعد ذلك أن لا نستغرب إذا وافته المنية وهو يفكر فى مشروع ولايات النيل المتحدة الذي لم ير النور . وكان فيه يتنبأ بقيام دولة من دول حوض النيل في العشرين سنة القادمة .. أما حبه لمصر – والذي سنناقشه بإعتباره مشكلة جيل في الصفحات القادمة – وهو النموذج المطلوب في إعتقادي ، لأن حب أقوياء ليس نتيجة لاحتقار ذات أو طلب مصالح فعندما يناقش الأصول الثقافية للقومية المصرية . ويسرد الأحداث من نابليون ومحمد علي حتى قيام الثورة المصرية تدرك معانى العشق المتبصر الذي لاتغيب عنه القوة والضعف وربما بذلك نأي بنفسه عن مزالق الأحزاب الإتحادية والأشقاء .. رغم أن المصريين أطلقوا عليه مصباح الأخوة السودانية المصرية .

هذا البناء الفكرى (الهرمى) الذي يقوم برمته فوق قاعدة سره شرق كان وصيته

الوحيدة للأجيال القادمة ، وقد ذكرها باشفاق غير معهود قائلاً (حياة الشعوب قط
من ماضيها وانا لست سلفياً . لا تموت أي مرحلة من مراحل التاريخ . انها تتدم
في المرحلة التالية . التاريخ تيار يتداخل ولكن لايبتر بعضه البعض . أخاف علي
إنسان السودان في الغد أن يغفل عن هذه الحقيقة) . ولاغرابة إذن إن قدموه باعتباره
كاتب سره شرق ولا اذا وضعها عنواناً لداره ، فهي في نهاية امرها رمز لكيان جمال
محمد أحمد الهارب ولأجل ذلك ظل يبحث عنها بتجاربه الوظيفية والثقافية ومن مسرح
سره شرق انطلقت افكاره التي وقفت عند حد النبؤة . نقول «النبوءة» لأن الأشواق
وحدها لاتبنى حتى ولو نجح الكتاب في نقل عدواها .. مازالت نبؤته التي أطلقها علي
أفريقيا (صاحبة الحضارة الأصلية) تثير الإستغراب كما لايستطيع أحد – رغم ظهور
العلامات – أن يتصور أن تتحد يوغندا وأثيوبيا مع السودان ومصر في دولة (ولايات
النيل المتحدة)..

أصدقكم القول باننى نفسى وأنا من .... سره غرب لم أستطع أن أستوع
كيف حرّك الأستاذ جمال تلك الاساطير الميتة والقصص الساذجة التي كنا نسمعها
في مجالس (الحبوبات) منطلقات فكرية بمثل هذه القوة والمتانة .

ولكن يبقى السؤال من سيكمل المشوار ؟ وعلى يد من ستهبط تلك الأشواق ..؟
لانستطيع أن نحدد ملامح البطل الآتى ولكنه حتماً سيأتى وفى جعبته سر صياغة
الإنسان الجديد .

الإستغراق في أفكار الأستاذ جمال الثرة لهانا عن عادة قديمة مارسناها مع كل
الشخصيات التي مررنا بها . وهي البحث عن خطوط المزاج النوبي في سلوك
الشخصي وربما أيضاً سبب آخر وهو صعوبة إختراق تلك النعومة البالغة التي كان
يتخفى وراءها حتى إن أحدهم وصفه بأنه كان (يسخر من القبح دون أن يجرحه) .

وأذكر ذلك الإرتباك الذي أدخلنى فيه عندما سلمني مقالاً مكتوباً بخط اليد بعنوان
(غمنى مؤتمر جوبا) وطلب منى أن أصححه !! ولا أزعم بأنه كان يعلم شيئاً عن

قدراتى واذكر اننى لم استطع ان استبين سطوره خشية ان اتوهم وجود خطأ في مكان ما ، وأذكر أننى سلمت المقال للأستاذ محمود أبو العزائم في مجلة الوادي وبذلك تخلصت من الحرج .

يقول الأستاذ الهادي أبوبكر (الشىء اللافت للنظر في سيرة جمال والداعي لوقفة تأمل أنه لم ينتظم في حزب أو جماعة رغم صلاته الحميمة بأعضائها ، كان ينفر عن قيود الأنتماء ولم ير بأساً بأن يقبل وظيفة المترجم للجمعية التشريعية رغم إيمانه بالفكرة الاتحادية .. وكان لا يأبه كثيراً بما يقال عنه مادام هو مقتنعاً بما فعل كان رحمة الله يحب أن ينطلق حراً حاملاً أراء راعياً لها) وربما أن الذي قاله الاستاذ قد تجده في رصفائه النخبة من النوبيين كداؤد عبداللطيف وإبراهيم أحمد رغم أختلاف التجارب وأساليب التعبير في السلوك فهذه الاوصاف (بضاعة نوبية). وعن بعض خصائله تلك يقول الطيب صالح . عندما يلومونه بسبب مشاركته في ثورة مايو كان يقول (هل نظل رافضين . أو متفرجين ؟ دائماً علينا أن نشارك لعلنا نغير مسار الاحداث) ويقول أيضاً انه كان (لايثنى عليك ثناءً صرفاً ولايثنى عليك وجهاً لوجه ولكن عن طريق شخص آخر) ويصفه يقول (كانت طريقته عجيبة في الحديث ينسج لك غلالة رقيقة من المحبة يخلق مناخاً للألفة يستحضر أصدقاءه الغائبين ويداعب الحاضرين ويذكر أفراد عائلته واقاربه وأصهاره ، يصنع من كل هذا عائلة كبيرة ممتدة هو مركزها . لاينصح ولا ينتقد . وحين يسخر يسخر برقه . وإذا أثنى بخفه حتي لاتكاد تتبين ثناءه إلاّ بعد حين لايغضب لشيء ولايندهش لشيء) .

<u>أسئلة حول موقفه من تهجير أهالى حلفا :</u>

إحتفل بقريته سره شرق حتي جعلها علي لسان الناس ، ولم يترك لها حتى اساطيرها ، فقد أفرد لها كتاباً بعنون (حكايات من سره) وفوق ذلك كان وفياً لتراث قومه وهمومهم .. رغم ذلك موقفه من تهجير اهالى حلفا لم يكن بمستوي هذا الوفاء الذي عرف به لتراثه .

أوراقه الخاصة تقول بأنه إعتذر عن قبول منصب رئيس لجنة توطين أهالي حلفا وفي تلك الأوراق يقول أيضاً بأنه (.. أفيد حيث أنا ، وأريد أن أكون فيه علي أن لي أتأخر لحظة واحدة في التعاون مع كل من يعمل من أجل هذه المنطقة التي لاتهم أهلها وحدهم بل السودان كله ..) ومعلوم أيضاً أنه نصح داؤد عبداللطيف بأن يقوم بالمهمة ، وسنناقش تبريره في أبواب قادمة ولكن هنا سنكتفى بالقول بانهم وضعوا بانفسهم ماكانوا يخشونه . ولم يقف عند ذلك الحد بل انه كان يسدي نصائحه لضباط عبود في كيفية إمتصاص ردود الفعل . ففي رسالة لحسن بشير نصر يقول (.. كان علي حكومة السودان أن تعلن للناس أنها تميل إلي اختيار خشم القربة موطناً جديداً لأهل حلفا ولا تمانع في أن تستمع الي ما يدلون به من اراء مخالفة . إن الطريق الذي سلكته الحكومة لن يقود إلا لنزاع أو جدال . كان الأولى أن تبين الحكومة اختيارها هذا المبنى علي بعض الدراسات وان لاتترك الناس هكذا دون قيادة يتجادلون بينهم وهم لايملكون الحقائق التي يبنون عليها اختيارهم ..) .

مواقفه تلك ووفاؤه لأهله ولتراثه تدفعنا للتساؤل أما كان الأجدر أن يكتفى بتسجيل رفضه إذا كان أمر السد العالي واقعاً لايرد .. وهل قبول الأمر الواقع يبرر المشاركة في تبريره ؟ وإذا تدخل لكي لايتفرج ماذا كانت النتيجة .. ألم يتحمل مع جيله (الأنجليز السود) جزءاً كبيراً من المسئولية ؟ وإذا كان مرغماً علي قبول فكرة الهجرة ماسبب الغموض إذن .. ؟ هل هو الحرص علي الوظيفة أم هو الوجدان المكبل تجاه مصر ؟؟

من يقرأ له الأصول الثقافية للقومية المصرية يعرف أنه كان متبصراً في عشقه لمصر بخلاف (جيل الذكريات) أم كان الامر هو ماذكره الأستاذ محمد على أحمد عندما برّر موقفه هذا بأنه إيثار وتسامح ؟ فقد ذكر بالحرف (يتوج عبدالناصر زعيماً وحلفا وماعليها من حضارات تحت الماء) هل التسامح ممكن في حقائق الوجدان ؟ كل شيء ممكن ووارد وإلي أن ينتهي بنا الترحال في حضن إجابه مقنعة ، سأظل معلقاً

بقناعاتى السابقة وهي تقول إن الإنتماء للثقافة في الإنسان النوبي يأتي أحياناً على حساب الأرض ، فإذا وجد من يتعاطي لغته ومن يقاسمه همومه لايهم في أي أرض يقف وربما من هذا الباب خرجنا من وادي حلفا بمثل هذه السهولة التي يحكيها التاريخ .

من أقوال جمال محمد أحمد :

حراسة التاريخ :

أكثر سدنة التاريخ يريدون لك أن ترصد الذي وقع يوم وقع لاتحس ولاتفكر تجلس علي السور بين بين ، كأنك في عرض أزياء لادخل لك فيه . ولا ينكر الواحد قيمة الراصدين حراس الوثائق لكني لا أعتقد هذا هو التاريخ كله .

سره شرق وجنة جمال :

كل ما تقدم بي السن يعاودني الحنين الي مراتع الصبا وأحس في العودة بأن هناك نوعاً من الجنة قد فقد وسعيت الي تعويض هذه الجنة المفقودة بالاسفار واختيار الاماكن التي قد تشابهها ومع ذلك فلم يكن بإستطاعتي تعويض متعة العمل في الساقية وهذه المتعة كانت تجبرني علي الإستيقاظ مع نسمات الفجر في عز الشتاء مع إنحسار النيل في مثل هذه الأيام وبعد هذه اليقظة في عز البرد أذهب مع أهلي لنقل الماء الي بئر الساقية وإزالة الطمي والطين منها .

نبؤة :

إنه في الأثنين وعشرين السنة القادمة سيكون من دول حوض النيل اتحاد كونفدرالي .. ستصبح كلها ولايات إتحادية وسيكون الهدف من هذا الإتحاد تقليل وحدة الإختلافات وضمان الأمن .

جمال وجيل الإنجليز :

سؤال : انتم الجيل الذي قاد النضال حتى نلنا الإستقلال ولكنه بكل أسف لم يتحمل تبعات مابعد الإستقلال وربما تنطبق علي بعضكم مقولة (خرج الإنجليز البيض وبقى الإنجليز السود) .

يرد على السؤال بقوله : (هذا إتهام يحتوي علي جزء من الحقيقة وليس كلها بمعني ان الجانب الإيجابي فيه كان يتعلق بالذين شغلوا المناصب التي كان يحتلها الانجليز وشرع هؤلاء في البناء ولم يكن علي بالهم ان الحريات التي يعملون في إطارها ستصبح مصدر تساؤل ظناً منهم أن النظام البرلماني الموروث من الإنجليز سيستمر ولم يخطر في البال إنه سيقتال)

حضارة السودان :

لقد ظل السودان ألف عام ينقل الحضارات القديمة لأفريقيا أعني حضارات الهند والصين وينقل العقائد الأفريقية إلي مصر القديمة آلهتها وأساطيرها . ويرجع بعض الباحثين إنها الأصل في آلهة مصر القديمة والجذور لأساطيرها البديعة .

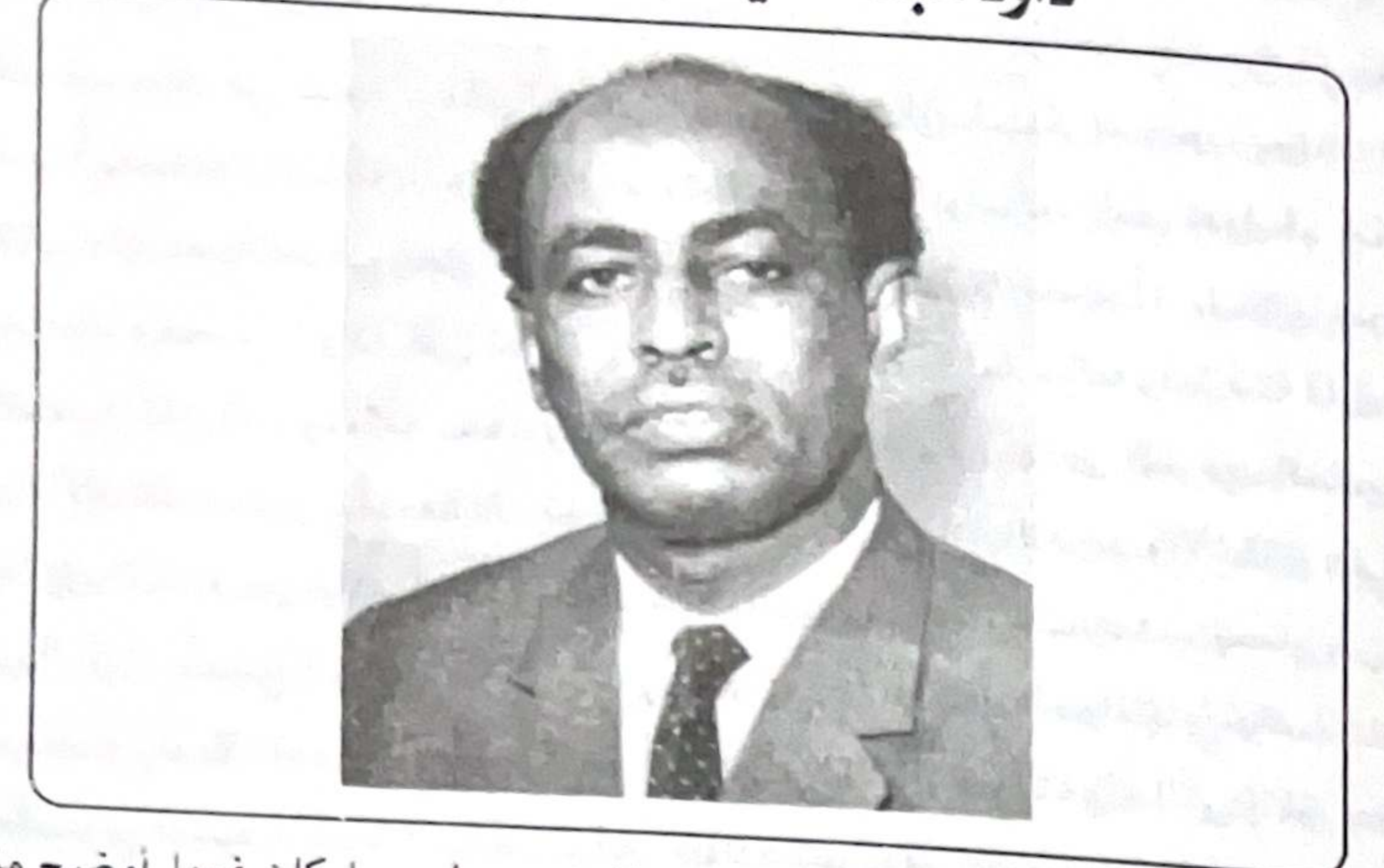
تحذير ثقافي :

حياة الشعوب قطعة من ماضيها وأنا لست سلفياً ، لا تموت أي مرحلة من مراحل التاريخ . إنها تندمج في المرحلة الثانية . التاريخ تيار يتداخل ولكن لايبتر بعض البعض . أخاف علي إنسان السودان في الغد أن يغفل عن هذه الحقيقة .

الغموض في كتاباته :

مسألة الكتابة للجماهير العريضة أضرت كثيراً بالكتابة نفسها . وأنا أؤمن تماماً بنظرة العقاد في أن يرتفع الكاتب بمستوي القراءة وليس المطلوب ان يهبط الكاتب الي مستوي القراء ، ويترتب علي هذا الحديث إضمحلال مستوى اللغة .

داؤد عبداللطيف (العفوية المنتجة)



الصبغة النوبية في هذه الشخصية شديدة الوضوح بل ربما كان فيها أوضح مثال يجسد النموذج النوبي . سبيكة بشرية حاوية لأنواع شتى من النوازع والاهواء متداخلة في بعضها ، ولابد من بعض الارتباك لمن يسبر غورها .. ربما لم أجد الاستاذ محجوب عمر باشرى مؤلف كتاب (رواد الفكر السوداني) محتاراً إلا عندما جاء دور السيد داؤد عبداللطيف وذلك بالرغم أن الأستاذ معروف بتخصصه في ترجمة العشرات من الشخصيات السودانية يقول (.. حديثنا عن داؤد عبداللطيف ليس بالسهل . وقد إختلف الناس فيه . داؤد عبداللطيف القصير القامة ، المعتدل الصورة ، الضخم الرأس ، النشيط الحركة ، الضاحك الساخر ، السريع الكلمات ، تراه فتعجب بسرعة خاطره ، وقوة ملاحظاته وقدرته الفائقة اللمّاحه فى إستبيان الأشياء . فقد تستهين به في باديء الأمر ولكن إذا سرت معه شوطاً انبهرت انفاسك وبدأت تصغى اليه ، حتى ولو كان حديثه موجهاً ضدك ، لأن جانب الفكر فيه يصقله بالحجة ، فهو نوع من البشر لاترمي اليه الجماهير لانه واضح لايغلف حديثه ولا يزينه



لكنه يكشف ويكاشف ، فخير وصف له انه مفكر سياسي وأستاذ للسانه ..) .

لم يستطيع الأستاذ ان يمارس منهجه الحيادى المعهودالذي يجنح للمدح في تحليل الشخصيات في كتابه .. فقد إضطر ليعترف بأن داؤد لم يكن محبوباً بيد أنه كان مفيداً بمنطقه ونشاطه .. وهو هنا أقرب للبروفيسر أبو سليم الذي يقول في مقدمة كتاب داؤد عبداللطيف رجل المهام الصعبة بانه (لم يكن كله حريراً ، بل كان شوكاً وصديقاً وخصماً ، وإذا كان قصيراً ، في المثل السائر ، أما حكمه وأما فتنة فان داؤد القصير كان فتنته وحكمه معاً ، وكان يعمل في كل ميدان بهذين الطرفين الحادين.) أما الأستاذ محجوب محمد صالح فقد بلغ به الأمر درجة التعجب والأشفاق علي من يحاول الكتابة عن داؤد ، لأنه في نظره (.. الذي يسعي ليكتب عنه .. يحتار من أين يبدأ وأين ينتهي ! وقد كان داؤد - رحمه الله - متعدد الجوانب والمواهب دنيا عريضة رحبة زاهية متألقة..) هذه الألوان من النوازع والأهواء التى إتفق حولها معاصري السيد داؤد ، لأنها في نهاية المطاف تصب في (فرديته) أو أستقلاله الفكري تبدو متواجده ومتداخلة وربما من هنا تبرز صعوبة فرزها ، وهي متشابهة كعلاقات العناصر في رأس الهرم .

إذا أخذنا انتمائه السياسى مثلاً .. فقد نجد في مزاجه الشخصى كل ألوان الأحزاب المعروفة فبحكم أشواقه المحلية ستجده مع الأشقاء . وبحكم مصالحة الآنية ستجده منضوياً في صفوف حزب الأمة ونقول (مصالحة) لأنه لم يكن مفهوماً أن يقبل الترشيح في دائرة مقفولة . وفوق انفتاحه لكل ألوان الطيف كان قارئاً لكتب اليسار .. وربما لهذا لم يكن من السهل إحتواؤه سياسياً أو لذات الأسباب لم ينجح سياسياً .

كان - رحمه الله - كتلة من المزاج النوبي ظلت مقذوفة في فضاء الطموح ، اشتعلت مرتين عند وظيفة المجلس البلدي والعمل التجاري .. وربما نبتت الظاهرة عند المحطات السابقة الذكر وخاصة عند محطات وظيفة حاكم محلي . فقد وجد في هذه الوظيفة منفذاً لأشواقه الموروثة ، في أن يجعل مزاجه الشخصي أهدافاً للآخرين عن



طريق النشاط والصبر علي النتائج ، إستطاع أن يحل معضلات التساؤل الكبير (كيف أصبح مقنعاً للآخرين رغم «فرديته الخشنة» ؟ وقد نقل عنه بأنه كان يؤمن بأن (لكل فعل رد فعل ولا يسلم من نتائجه الا الذين لايعملون) .

من عاصروا سوق الخرطوم في أيامه يصفون كيف أنه كان ينشر الرعب في الباعة المتجولين غير المنظمين ولكنهم يذكرون أيضاً إنجازاته في بناء أحياء الخرطوم وتخطيط المدينة .

وجد السيد داؤد نفسه في وظيفة الحاكم المحلي وبالفعل إستطاع أن يجعل عفويته منتجه «والمزاج نظام» ، وكان لابد أن تتوفر شروط كتلك التي توفرت له في سوق الخرطوم - عندما وجد فرصه كان فيها مطلق اليد ووجد واقعاً يمتص أخطاءه - في الوظائف التي تقلدها بعد ذلك . نقول بضرورة توفير مثل تلك الشروط لأن «المزاج الطليق» لايكون منتجاً في كل الظروف ، والمثل هنا إخفاقات السيد داؤد في التصدي لمشكلة التمرد في الجنوب وقبوله رئاسة لجنة توطين أهالي حلفا ، والسبب ربما لأنهم لم يتركوا له فسحة ليعمل فكره وقد لايكون هذا تبريراً كافياً لأن الامر أن صدق ما كان خافياً عليه. فقد كان معلوماً بأن الجنوب قبل تعيينه مديراً للأستوائية أو بحر الغزل كان مشتعلاً . وقد لخص المشكلة في جنوب السودان في كلمتين ربما الناس في حاجه اليها حتى يومنا هذا فقد قال للجان التحقيق التي برأته بانهم في الشمال كانوا يعطون (الديمقراطية لأناس يطلبون الوظيفة) .

أما إخفاقاته في لجنة أهالي حلفا سنعرض لها في (الباب الثالث) تحت عنوان من المسئول ؟ وإلي ذلك الحين دعنا نقول بأن سياسات التوطين كانت معدة سلفاً قبل تعيينه رئيساً للجنة التوطين ولم يكن تعيينه ذلك إلاّ لتمرير تلك السياسات .

هذا الذي نعده نحن إخفاقاً أو فشلاً . هذا الطراز من الشخصية لا يأبه له أصلاً ، فمثل السيد داؤد كما يبدو من الشهادات المختلفة لمعاصريه لايعترف بالفشل ولايملك (نفساً) لذلك الإنكسار ولكنه في الوقت نفسه لايقدم نفسه عارياً من المنطق !! وربما

لهذا امتهن (السخرية) واجاد السيد داؤد في دروبها بإعتبارها أذكى المخارج من هذه المعادلة الصعبة وهي بضاعة نوبية قديمة تتصدر الآن المجالس مثل (نكات الحلفاوي) .

السخرية في الوعاء النوبي لها مذاق ثقافي خاص وهي محاولة .. جادة لإمتصاص أخطاء المنهج أو لتمرير أخفاقات أو لستر ضعف شخصي ، أكثر من أنها مطلوبة لاستدرار عواطف المستمع بالاضحاك ، وكأنما يسخر ليُضْحك نفسه أولاً . وهنا قد يصلح دليلاً ما نقل عن داؤد بانه كان يسبق مستمعه بالضحك المجلجل وربما إذا تأملنا تلك الحالات التي كان يلقي فيها النكسة سنجد دلائل أخرى فقد نقل عن داؤد انه أثناء هروبه من بحر الغزال بعد إنفجار التمرد .. منع القائمقام عروة من الرد علي مصادر الرصاص لكي لاينتبه المتمردون فيقوموا بالقضاء عليهم .. فقال له الضابط بعد حين (كيف لم أفكر في هذا وأنا العسكري) فرد عليه «وكيف ستبرهن أنك جعلي؟» ونقل عنه الفاتح بشاره في مذكراته بانه عندما حاصره المتمردون ... ألح علي حكومة أزهرى أن ترسل قواتاً من الشمال .. وبدلاً من ذلك أرسل إليه أزهري ينصح بالحكمة . قال إنه رد علي أزهري (.. إذن أرسلوا لنا حكمه ..) ، كما كان بالسخرية يبدد الخوف ، كان كذلك يدافع عن نفسه فقد ذكر المؤلف الذي ترجم له .. عندما سخروا منه قائلين : (البربري لما عملوه مدير وقت الحاره هرب) رد ساخراً «.. البربري هرب من واو وجاء الخرطوم وجدكم الملك نمر هرب من شندي الي يوم الليلة ماعارفنه دخل وين» . اما عندما تم تعيينه رئيساً للجنة توطين أهالي حلفا لم يجد ما يرد به حيرته إلاّ بسخرية أطلقها .. ولاندرى هل كان يسخر من نفسه ام من الآخرين - فقد نقل عنه قوله : (لقد أوكلوا لي مهمة لم يسبقنى إليها أحد الا سيدنا نوح عليه السلام ، ولكن نوحاً لم يترك لي ملفاً للرجوع إليه للإستفادة من خبرته) .

إذن السخرية في تجربة داؤد كما كانت عند قومه عنصراً مهماً ، فقد كانت إحدى آليات ترقيع أماكن الضعف الشخصي ، والسخرية إبنه شرعية لزواج الفكر بالهوى .

عقله الجبار كان يخدم مزاجه الشخصي ، لهذا كان هناك من يضطر للإصغاء إليه حتى (ولو كان حديثه موجهه ضده) . أو كما يقول الباحث أبو سليم .. (كان لايرحم خصمه أو من يستثقله ، يتابعه بالمقالب والسخرية ويجهز عليه يعادي خصمه ويخاصم من يستثقل وأن كان بغير ذنب) . هذه الإرادة الجبارة هل من الممكن تحديد جذورها الحيوية ومن أين كانت تستمد قوتها ؟ وهل كان محقاً عندما كان يستخف برؤسائه ..!! قيل إن سبب قبوله في مدرسة الإدارة هو تطاوله علي المفتش الإنجليزي واحتجاجه الساخر بقصر قامة الخواجه وذلك عندما رفضوا قبوله في ثلاث دورات متتالية لقصر قامته وصغر حجمه «.. وقد كان قبوله في ذلك الوقت إستثناءاً وخروجاً علي قواعد القبول) رغم كل هذا نجاحه الإداري لايختلف حوله الناس .

هناك بعض الحقائق مازالت حية وباقية من عهد الليبرالية الآفلة وهي موجودة علي الافواه علي شكل مقوله وهي في الواقع نظرية وهي مقولة (العبره بالنتائج) ، وطالما كان الأمر كذلك لا معنى لمتابعة الجذور .. وفوق ذلك إن الإرادة في منابعها الصافية لاتفسر الخصوصية والتفرد إذن يبقي البحث في السطوح الظاهرة ونسأل مجدداً عن عوامل تفجير تلك الإرادة التي دفعت بظاهرة «داؤد عبداللطيف» وربما هنا نستدير الي حيث انطلقنا وهو الثقافة المحلية والبيئة .. وقد تجلتا في اللغة النوبية التي إستحالت الي بنية منفصلة تصحب الإنسان النوبي أينما حلّ ولكي تعبر عن نفسها لاتشترط التراب التي نبتت فيها ولا تشترط المجتمعات التي إنطلقت منها . لهذا كل التجارب المغايرة والمجتمعات والثقافات الأخري التي يمر عليها الإنسان النوبي المهاجر لا تفعل أكثر من أن تعمق الثقافة في الإنسان النوبي وهذا ربما ما كان يشير اليه الاستاذ محجوب عمر باشري بقوله : (فالتماسك العضوي التاريخي والانثربولوجي لم ينشأ في المدينة : «يقصد وادي حلفا» ولكنه نشأ من أهلها فكلهم متحدون في لغتهم ومشاعرهم وعاداتهم وقيمهم) . فالكاتب هنا يلمس قضية بطريقة معممة ولكنها متجهة في إتجاه فك طلاسم كثيره .. منها قضية الإنتماء وعلاقتها

القوية بالارض .. فقضية إستعمال الرموز في اللغة النوبية ومسائل المذكر والمؤنث وقضية الثقة المفرطة بالنفس ، قضايا وعناوين كثيرة أجملناها في بداية هذا الفصل في عنوان خطوط (المزاج النوبي) ولأن المطلوب هنا علاقة اللغة النوبية بتفجير الإرادة .. سنقف عند بعض العناوين .. ربما جدلية العزلة والتواصل التي تضافرت في خلقها الجغرافيا والتاريخ في منطقة النوبة كما ذكرنا من قبل لعبت دوراً خطيراً في نضج الثقافة المحلية ، وزادت فيها جرعة النظره الكونية التي تنظر للأعماق السحيقة أو للآفاق البعيدة أكثر من الإهتمام بالتفاصيل القريبة .. ولكي لا نتوغل في الغموض الذي لا بد منه نأخذ مثلاً قضية الإنسان وهويته في اللغة النوبية فالمفردات النوبية لاتهتم بالتفاصيل الظاهرة من الإنسان كصفات الذكوره والأنوثة إنما تشير اليها كهوية واحدة ، كائنا هو طفل في مرحلة ما قبل البلوغ ، واذا توغلنا في هذا المناخ اللغوي سنجد أن المفردة التي تشير للضمير المنفصل (أنا) هي نفسها التي تطلق اسماً علي «القلب» .. والقلب كما هو معروف يمثل أكثر أبعاد الكيان البشري شفافية .. أي البعد اللانهائي في الإنسان .. وعندما يستيقظ القلب في الانسان كما هو معلوم لكل البشر فلا حدود ولا نظام ولا إطار هناك ، ويصبح الإنسان محوراً للوجود .. (هو القانون وهو النظام). في مثل هذه الإجواء تتشكل عناصر المزاج النوبي وهذه الطاقة التي تنبعث من هناك هي ما تعنيه بالإرادة . لهذا كان البروفيسر أبو سليم يشير إلي بضاعة نوبية متفشية عندما نقل عن داؤد إنه (تعامل مع رؤسائه من السياسيين بقدر من الإستخفاف ، إستخفاف من يراهم أصغر منه ودونه في الذكاء والمقدرة) .

مصطفى محمد طاهر من مؤلفاته (قوة الإنتماء)

رغم انني لا أعرف شيئاً عنه سوى ما قرأته له أو عنه في الكتابين «داؤد عبداللطيف» و «السد العالي ومأساة النوبيين» .. إلاّ أنه فيما يبدو هو أحد الرموز الحية لظاهرة (اليسار العفوي) .. وهي بضاعة نوبية ، إستفادت منها الساحة السودانية كثيراً في الثقافة والسياسة عقب الإستقلال . هذه الشخصية التي قد نجد لها نظائر في المجتمعات الأخرى . متدينة لدرجة التصوف ولكن بشروطها الخاصة . البناء الفكرى لديها يتم في الهواء الطلق .. وربما أهم مكونات هذه الظاهرة .. (فنان وقضية) .. أما في تجربة الأستاذ باضافة مواصفات المزاج النوبي - التي تكلمنا عنها سابقاً - إستمدت الظاهرة زخماً وعمقاً .

شاحب .. قلق لايستقر علي حال (أخو أخوان) متلاف .. طفولة حاضرة ، إذا إنفعل بالشيء ينسى سواه ، يضيق بالتأطير .. إذا رضى عنك (الغنماية تأكل عشاهو) وإذا غضب منك جحيم لايطاق !! يشرب بشراهة .. يميل للخير الخالص .

هو مؤلف كتاب (السد العالى ومأساة النوبيين).. هذا الكاتب طاقة جبارة من الإنفعال إستطاع بقلمه الرشيق أن يبنى هرماً في الوجدان النوبي بترتيب الاحداث والوثائق حتى أن الحيرة لابد أن تنتابك وأنت بين أوهام العاطفة وحقائق التاريخ بقلمه الرشيق حاول أن يفرض علي التاريخ النوبي مزاجه الخاص .. وربما لو إستجاب الأستاذ لنصائح الباحث الكبير أبو سليم والتي ثبتها في كتابه الأول (داؤد عبداللطيف) لكان من السهل أن نزعم بأنه بمؤلفاته تلك نجح إلي حد كبير في صياغة وجدان جيله .. ولكنه بدلاً عن ذلك أوقف التاريخ في (دغيم) وفي دغيم في بيت العمدة وفي البيت إنتهي بداؤد عبداللطيف .. ومهما كان انبهاره بهؤلاء فقد نجح بمؤلفه الأخير في ان يفرض مذاقات النشأة الخاصة كوقائع تاريخية . ولا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يوثق لتلك الفترة بمثل ما قدم به ، فذلك ليس لأنه إمتلك ناصية المعلومة ، فكتاب حسن دفع الله (هجرة النوبيين) من أقوي المصادر للمؤيد والمعارض

ولا لأنه فقط عايش وشارك في المقاومة بل لأنه طاقة عاطفية جبارة ، تحيل قشرة المعلومة إلى رحيق دفقاته الروحية الجاهزة هي العصا السحرية التي بها يفتعل بها ينقل عدوي الانفعال اليك .. يلقي بوجدانياته موثقه حتي يحتار المتأمل في الفصل بينها !!

قد يهرب بخشونته الآخرون ولكن لايملك النوبي أمامه سوي الاقتناع بما يقول أو التعاطف ، وإذا سخط عليه فهو كاليتيم لايستطيع أن يجرح شفافيته .

الجزء الأول من الكتاب يبدأ مشتعلاً ولكن الجذوه تخبو كلما تقدم حتى تصير رماداً .. وهي اللحظات التي تحمل أثقال الرحيل .

إنفعاله الجبار في الجزء الأول من الكتاب يستحيل عند ملحمة البقاء إلى بحيرة صباحية لامعة لا تترك فيك شوارد العاطفة دون أن تمتصها .. كأنما بالكتابة تقيأ كل أثقال السنوات .

يضطرك لتندفع معه ولكنه لايتركك إلاّ بينه وبين التعصب شعره .. عندما يتكلم عن الاسلام والعروبة ورماه الحدق تسير معه خائفاً كأنك فوق جسر شاهق مهتز ، لكن يطمئنك بمخرج (التدين الطوعى). يمسك جرح نوبى قديم وهى قضية الوظائف الحقيرة في مصر (سفرجية وخدم) ولكن ينظف الجرح ويضع عليه من ريقه فيلتئم ، فقد جعل هذه الوظائف سبباً في إستقلال السودان بتقديم الزعماء السياسيين كالأزهرى ونورالدين في البلاط المصري بل وعن طريق هذه الوظائف ساهم النوبي في تعليم جيل الإستقلال من السودانين غير النوبة وبل جعل هذه الوظائف الحقيرة سبباً مباشراً لتفوق الحلفاويين عن القبائل الأخرى !!

قفزت قطرات من الدموع تواريت بها خجلاً عن من حولي وأنا أودع صفحات كتابه الأخير «السد العالى ومأساة النوبيين» فقد رأيتهم وهم يجرجرون رجلاً مسناً أصرَّ علي البقاء رغم رحيل أهل قريته لينقذوه من الطوفان .. يقول المؤلف (فلما يئسنا من إقناع المرحوم الأستاذ صالح عثمان من الخروج إلى البر الشرقي والإنضمام إلينا ،

قررنا أن نذهب إلي أرقين بمركب شراعي ونرحل حاجياته وامتعته قسراً . وعندما استعملنا القوة رقد الاستاذ .. علي الرمال كمن يحتضن الرمل والدموع تنهمر من عينيه دون توقف وكأنها تنساب من معين لاينضب)

ويقول في موقف آخر بعد أن حكى قصة الام وابنتها واللتين تفرقتا إلي كوم (أمبو) في مصر والأخرى الي القرية ٣٣ في حلفا الجديدة .. يقول وقد تمزقت روحه (لقد كان تقطيع أواصر النوبيين وتمزيق أرحامهم ، وتحطيم قيمة الإنسان فيهم هو أحد جرائم السد العالى ، لقد قتلوا الانسان في داخل الانسان النوبي وقطعوه ارباً ورموا به في احضان الفاقه والفقر . فانزوي بين الاحياء الفقيرة في كل من الخرطوم والقاهرة ، فلم يكن النوبيون قبل الهجرة يعرفون الكلاكلات والدروشاب وأمبده والدخينات في الخرطوم ولا أزقة بولاق والدكرور والدرب الأحمر في مصر)

يقول عنه الأستاذ محجوب محمد صالح بأنه «لعب دوراً قيادياً في التعبئة وفى التنظيم طوال سنوات الخمسينات وحتى بداية الهجرة . إجتماعات ، مظاهرات ، منشورات . إعتقال وسجون وتشريد من العمل ، ثم بعد أن أصبحت الهجرة حقيقية ، ملحمة البقاء في العراء والتصميم على ألاّ تموت وادي حلفا» .

أما الأستاذة سعاد إبراهيم أحمد فتحكى ميلاد قصيدة كتبها الأستاذ بعد ان سكت عنه الغضب عن أولئك النوبيين الذين (يتوهمون أنهم يمكن أن يعرضوا عن فقدهم للأرض العريقة بالمال) وكنا نبغي لو ضمتها في مقدمة الكتاب .. وهي تقدم له تقول (لقد تابعت جهد المؤلف ومثابرته لتوثيق الأحداث وخلفياته عملياً وهو الذي شارك فيها بنفسه، ودفع ثمنها ملاحقة وإعتقالاً وتشريداً من العمل حتى إضطر لبيع المسكن الوحيد الذي كان يمتلكه في الخرطوم ليتمكن من إعاشة أسرته . رغم ذلك كانت جل موارده تذهب للإنفاق علي عشقه الدائم للتوثيق والبحث لقضايا النوبيين . فالملاحقة والإضطهاد لم توهن قدرته علي المواصلة حتى نالت منه العلل لتقعد به لشهور دون أن يتوقف يوماً واحداً من العمل والمتابعة وهو علي فراش المرض حتى

فارق الحياة) .

أما البروفسير أبو سليم الذي قدم له كتابه الأول داؤد عبداللطيف بحياد الباحث الحذق قد لاحظ في سلوكه مايمكن أن يعد مهماً في فهم هذه الشخصية .. يقول : «وهو رجل مقاتل يتمسك برأيه ويدافع عنه بكل ما أوتي وحتى عندما تظن إنك قهرته بالحقائق والرأي تراه يرسل ضحكة الإستجابة لما قلت والإستخفاف بالرأي المعارض له ويعود لما كان عليه من رأي وموقف» .

كان الأستاذ مصطفي محمد طاهر في كتابه «السد العالي ومأساة النوبيين» أحياناً يميل للغة البوح عندما يسأم من الأرقام والوثائق ، وأحياناً أخرى تطغى دفقة الروح . بعيداً في قاع الوجدان يطارد كيانه الهارب .. أو أن «نوبيته» هنا إستحالت إلى كينونة لا تتحملها إلاّ الأنغام . يقول وهو يصف ليالي حلفا الجميلة .. «خاصة في الليالي القمرية حيث ينبعث ضوء القمر ويترامي محتضناً الرمال الذهبية .. فاننا نرى الرمال وقد إنسكب عليها ضوء القمر ليحيلها إلى سماء ذهبية تتلألأ دون إنقطاع حتى تلامس النيل .. وفي النيل روائع أخرى .. ترى ضوء القمر ينبعث فوق مياه النيل وهي ترقص طرباً على انغام ذلك المغنى وهو يجلس في مركب شراعي يمخر عباب نهر النيل حتى يصل جزيرته تلك في خنشاب جنوباً وربما جزيرة فرص شمالاً .. وذلك هو المشهد الذي كان يربطهم ببلادهم ويشدهم الي جذورهم» .. هكذا كان ينسى نفسه احياناً في كتابه المليء بالوثائق والأرقام حتى أنه عندما يستيقظ كان يعتذر بمثل قوله : «ترون أننى قد أسرفت . أقرّ بذلك .. ولكنكم حتماً ستعذرونني» .

وحتماً سنعذره إذا علمنا أنه نام حتى صباح اليوم التالي عندما ابلغوه عصراً بقيام ثورة أكتوبر .. بعد أن القي ما كان يحمله أرضاً !! ومن قبل كان قد أضرب عن الطعام لمدة ٢٢يوماً .

وجدان يحمل كل تلك الأثقال لابد أنك واجد عنده بعض التعصب أو تلميع غير موفق لأشخاص أو لمواقف ولكنه في نهاية المطاف إستطاع أن يحشر وجدانه بين الوثائق والأرقام حتى إستنطقها لغة نوبية فصيحة بطريقة مثيرة للأعجاب .

الفصل الثالث :

نماذج من المزاج النوبى المستعرب

١. المزاج النوبى وأثره على تفكير المهدى .
٢. خليل فرح (المزاج الطليق) .

المزاج النوبي وأثره علي تفكير المهدي

برغم مرور أكثر من قرن من الزمان ، ما زالت آثار تلك الومضة التاريخية الت أشعلها الدنقلاوي باقية حتى اليوم . وما زالت التساؤلات يكتنفها الغموض حول الوسيلة التي بها .. إستطاع احد أبناء دنقلة في أقصى شمال السودان أن يستقطب مختلف القبائل والجماعات من مختلف جهات السودان ليوحدها خلف دعوته - رغم واقعها القبلي والجهوي - ويفجر بها ثورة بهذا الحجم من الإتساع والشمول ، بل وكيف أصبح غرب السودان داراً لهجرته ومهداً لدعوته ومسرحاً لانطلاقة الثورة وانتصاراتها الاساسية ..!!

وهذه ملاحظات أبدأها كتاب (الثورة المهدية مشروع رؤية جديدة) وهي ملاحظات ذكية بصرف النظر عن النتيجة المستخلصة .. ولأننا لسنا بصدد محاكمة الفكر سندلف مباشرة لما يجب أن يقال في هذه العجالة .. وهو أن العروبة ، لم تكن هماً في السودان بحجم تلك الطاقة التي حملت الثورة المهدية علي الإنتشار .. ونقول ذلك مستصحبين المعنى المخفف للعروبة من عروبة الدم الي عروبة اللسان . وفي الحسبان كذلك أهمية العروبة والإنتماء إليها في صياغة التراث الشفاهي والأساطير المحلية في مجتمعات السودان .

(العروبة) التي ظهرت أشد ما تكون في سياسة الممالك السنارية لم تكن إلا مساحيق مكلله للجهود والطموحات الشخصية كتجربة عبدالله جماع والعبدلاب فيما بعد ..!!

سار الكاتبان (عبدالعزيز حسين الصاوي ومحمد جادين) في هذا الكتاب المتم - من ناحية السرد والتبرير - في إتجاه تدعيم إفتراضهم القائل بأن نجاح الثورة المهدية سببه الحاجة لإكتمال صيغة العروبة في السودان .. وكان لابد أن يأتى مقاس اليدين علي قدر السرير وبالفعل إضطرا للترقيع هنا وهناك ولو إفترضنا أن الفونج قبيلة عربية طبقاً لأساطير بعض البطون المحلية..! فهل من المستساغ أن نغض الطرف عن الدور النوبى في صياغة السودان ، لمجرد أن الأقرار بهذا الدور يهد أركان هذا الإفتراض ..؟!أو لمجرد السهولة (في المحاججة) بعادة توريث ابن البنت ..!!وربما من باب المصاهره

هذه دخل كثير من الوافدين ، ولكن أيضاً نستطيع أن نقول إن الصيغة المحلية أو الثقافية النوبية كانت أقوي وهي كذلك حتى يومنا هذا .

وربما كان سبب قدرة الثقافة النوبية علي البقاء ليس فقط في قدرتها علي صياغة الوجدان الاجتماعي بل لانها في الاصل لاتتعارض مع الثقافة الاسلامية في مفهوم الإنتماء .. فكلاهما يرتكز علي الثقافة واللسان كمحاور للإنتماء .

نحن لانغلق الباب أمام هذا الإفتراض رغم أن التاريخ يحفظ أسماء ملوك من النوبة أعلنوا إسلامهم وهم في الحكم .. ولكن الذي لاشك فيه هو أن هذه العادة لم تكن إلاّ محاولة متقدمة في الثقة بالنفس وذلك في إحتواء القادمين .. والخوف علي الاجيال القادمة دائماً يأتى من باب البنت وربما لهذا زواج الكتابي من المرأة المسلمة فيه الكثير من اللغط والخلاف أكثر من زواج المسلم من الكتابية .

كل الذي تقدم يدفعنا للإعتقاد بأن العربي المسلم المصاهر للنوبة كان يثري الثقافة المحلية أكثر من أنه كان يقوضها .. ولا نعتقد أن (العصبية) العربية تستطيع الإستفادة من الإرث النوبي إن لم تقدم نفسها بالفهم الإسلامي .. أحب أن أشير هنا أن العصبية ليست كلها شر ، فمنها مالابد منه في بناء التمايز « .. وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ..» وهذا هو القدر الذي أخذ به أبوبكر رضي الله عنه لحل مشكلة السقيفة فقد عدد مآثر الأنصار حتى إنه كاد أن لايترك لغيرهم فضلاً ولكنه في نهاية الأمر جعل الخليفة من المهاجرين لأن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا (القريش) .

خلاصة الأمر في هذه الفقرة ، هي أن العروبة عند ظهور المهدي لم تشكل هاجساً للإنسان إلا بقدر الحاجة لمواجهة بعض عمليات الإضطهاد بمفاخر قد لاتجلب الا بعض الفوائد الوقتية !! وربما هذا هو القدر الذي كان يحمله المهدي في تجواله .

ويبدو أنه لم يكن يعاني من هاجس الإنتماء ، والدليل الوصية التي تركها لخلافته وموقفه من الأشراف . لا نستبعد في جذور إنتمائه القبلي أن ينتهي نسبه للقبائل العربية وخاصة كتلك التي سكنت حول أسوان ووادي العلاقي كبطون قبيلة ربيعة . كل

هذا جائز له ولغيره من أبناء المزاج النوبي ولكن الذي لاشك فيه هو ان الصياغة النوبية لوعيه في اخطر مراحل التكوين واضحة المعالم .

الصياغة المقصودة هنا ليست بالضرورة اللسان النوبي او مكان النشأة إنما هي (الذهنية) أو اللبنات الاولى لبنية الذاكرة ، أو هي قوانين تحرك الدوافع في اللاوعي والذاكره كما هو معلوم تلعب أخطر الأدوار في حفظ الهوية فعمليات الحفظ تعتمد علي موقف الإنسان من الرموز أو بمعنى أخر كيفية التعامل مع الواقع .. ولا يهم بعد ذلك شكل اللغة أو الوطن .. أينما يحل الإنسان يمكن أن يصوغ قوانين الواقع طبقا لقوانينه الداخلية وقد ذكر البروفيسر ابو سليم في كتابه (الحركة الفكرية في المهدية) بأن الميرغني الكبير ذكر بأنه قابل أحد الدناقله وهو يدعي بأنه المهدي المنتظر وكان ذلك قبل ظهور المهدي .

هنا يكمن سر تفوق المهدي فهو توليفة لعجينة من عناصر مناخات مختلفة كما سيظهر في فكره وكما لاحظ ذلك أحد أحفاده «الصادق المهدي» في كتابه «ايدلوجية المهدية» .

مزاج نوبي ذو محتوي إسلامي في بوتقته تمت عمليات نضج وإختزال وتركيز وذلك تحت وطأة الرياضة الروحية . والهجرة الدائمة. الرياضة الروحية العنيفة أخذت أشكال الزهد والتقشف والورع لدرجة أنه كان يخشي علي نفسه ما إستحله شيوخ من عطية الحكومة . وربما الاساطير التي نسجت حول تقواه وكراماته لم تأت من فراغ فمهما كانت نسبة الحقيقة فيها فهي إشارة إلي هذه الطاقات العالية التي شكلت تجربته. فهو (ذهنية نوبية) عميقة الأغوار إستبطنت حتي اخبار الثقافة والفلسفة من إبن سيناء والفارابي وفوق ذلك أخبار السياسة . وهذه امور من الثقافة والسياسة ما كانت تستهوي المجتمع الصوفي رغم ما كان من العلاقات الجديدة بين السياسة والصوفية قبل العهد التركي كما يقال في سيرة الشيخ ادريس ود الارباب .

يبدو أنه كان يتابع أخبار المهدي الغابرة في دولة الموحدين في المغرب الأقصي ،

ومهدي السنوسيه الطازجة في ليبيا ومهدي الغرب الافريقي «دان فود» وبقايا التراث الشيعي متوفرة بالطبع في الإرث الصوفي

تغذي مزاجه بهذه الأخبار والسير ، قبل وأثناء المجاهدة الفردية والترحال من خلوه إلى أخرى حتى بدأت تراكمات هذا الطحين الثقافي تأخذ شكل طفرات وتغيرات نوعية ، وعلي أثرها بدأت تظهر «فردية» أخذت تتنامي طبقاً لتراكم التجارب الجديدة .. وهنا سر الأسماء الكثيرة التي كانت تطلق عليه فقد كانوا يطلقون عليه «ذى الخال .. وأبي فلجه .. أمام الوقت .. وقطب الزمان أو المهدى المنتظر» . هذه الأسماء الكثيرة كانت دليلاً علي صعوبة ملاحقة الناس للعلامات التي كانت تظهر عليه طبقاً لتطوره الداخلي وربما كانت تشتد وتيرة التغير كلما صادف نجاحاً في الوسط الذي كان يدعو فيه .. وربما متابعة التغيرات التي كانت تطرأ علي الدعوة اثناء معاركه في فتح الابيض ووجوده في قدير ترينا هذه الأطوار. هو نفسه لم يستطع ملاحقتها فقد حدث بعد تلك المراحل ، ان اعلن بأن أمر الخلافة قد داهمه وانه ذلك المهدي الذي كان يتطلع للإنضمام اليه ، كانت هنا أخطر مراحل هذا التطور والخطورة تكمن في انقطاع التواصل بين المتذوق والمتلقي لتعطل اللغة ، فالمفردات هنا لاتملك أرضاً تهبط عليها ، والقوانين التي كانت تحكم دوافعة في اللاوعي ، هي الآن سيدة الموقف ، لهذا الأمور في نسقها الطبيعي إذا آمن أناس بعدم حجية ما يصدر بعد ذلك وكان طبيعياً أيضاً أن لا يلتفت المهدى الي كل ذلك فقد كان مشغولاً بفرديته المتدفقة من تلك العوالم الشفافة رغم تلك الهوه المحفوره بين حقائق التذوق أو أوهامه وبين العقل إستطاع المهدي أن يجمع بينهما وجعلهما يتعايشان في الناس حتي مماته وذلك عندما استطاع أن يلهي الناس عن الخلافات وسلط إنتباهم علي تفاصيل الحياة اليومية الملحة .. وقد كانت المظالم التركية هي القضية الأولى في المجتمع السوداني .

هذه الملكة القيادية الفذة التي بها إستطاع أن يفرض قناعاته الشخصية ، جذورها الأساسية تشرب من نزعة نوبية قديمة مذكورة في الصفحات السابقة بين خطوط

المزاج النوبي . وهي أيضاً من الأوصاف التي ذكرها الكتاب سابق الذكر . يقول الكاتب وهو يقيس أموراً أخرى على هذه الترعة (إذا تأملت الأمر علي ضوء ما عرف عن المهدي من إستعداد فطري ومكتسب للخروج من السائد والمألوف مهما كان متمكناً وقوياً ، إذا اقتنع بخطأه) ويقول : «فان ذلك يوحى بقابليته للإنفلات من أسر التقليدية .. وبذلك يبدو المهدي مهيئاً نفسياً وذهنياً للتجارب مع النوازع الغير تقليدية» . ورغم تلك المآخذ والإنتقادات التي عددها السيد الصادق المهدي في كتابة (ايدلوجية المهدية) مفنداً ومبرراً لم يستطع خصوم المهدي ومن كان يسميهم (علماء السوء) ان يقفوا أمام دعواته تلك. العقلانية الساحرة التي كانوا بها ينتقدون الأساطير والخرافات وكرامات الصوفية لم تستطع أن تفعل شيئاً أمام منشورات المهدى التى كانت تحرض الجماهير بمثل قوله (ان الترك كانوا يسجنون رجالكم ويسحبونهم من القيود ويأسرون نساءكم وأولادكم ويقتلون النفس التي حرمها الله بغير حق .. وكل ذلك لأجل الجزية التي لم يأمر بها الله ورسوله ، ومع ذلك لم يرحموا صغيركم ولم يوقروا كبيركم ، وكيف نسيتم هذا كله ولم تأخذكم الغيرة في دين الله ولا في انتهاك محارمه) نجاحات المهدي تلك في تحريك المقاومة ضد الاتراك ردمت الهوه بينه وبين مريديه ، لهذا فرض نفسه دون أن يأبه بشيء . وجاء بأمور واجتهادات ما كان ليتصدي لها غيره . وربما هذه (الفردية) المنقطعة النظير هي السبب الذي أفشل الخليفة عبدالله في كسب الولاءات .. فبمجرد موت المهدي انفجرت الأزمات .. وما تلك السنوات التي أعقبت فتح الخرطوم حتى معركة أم دبيكرات بأكثر من بواقي تـــلك الومضة التاريخية .

خلاصة الأمر ، في قصة المهدي هذه ، بالزاوية التي أردناها ، ترينا كيف أن الجذوه النوبية إشتعلت وأضاءت عندما وجدت ما ينقصها في المناخات الأخري .. وربما لو سافر المهدي شمالاً للأزهر كما كان يتطلع لتغير وجه التاريخ ! وربما كان اسهامه سيقف عند إضافة عدد الفقهاء ، فما كانت تستطيع ان تمنحه أروقه الأزهر

ما منحته أياه الخلاوي والخلوات في السودان . وما من شيء يحتاجه المزاج النوبى أكثر من إطار يضمه وينظم إنفعالاته .. وربما لو نشأ المهدي في تلك المناخات التي اشعلت ثوريته ، وحملت دعوته ، لما استطاع أن ينمو ويتفرد بمثل تلك التي شاهدنا إرهاصاتها الأولي في خلافاته مع شيوخه ، ولا وجود لتلك الجرأة التي بها أطلق إجتهاداته الفقهية والسياسة .. ولما إستطاع ان يقيم ثورة بهذا الحجم في غياب هذه الفردية الطاغية .

كيف نغير الواقع؟!

إذا تجاهلنا حقيقة إتصال المعرفة الإنسانية وأهدرنا (جهلاً أو تعصباً ، خبرة السابقين) .. بحجة الخصوصية والتفرد فلن نفعل أكثر من تكرار الأخطاء التي تعلموا منها .

خليل فرح (المزاج الطليق)

في أبريل ١٩٨٤م نشر لي الأستاذ والأديب السوداني علي الملك دراسة بعنوان «عزة الخليل الأنثى والوطنى» .. وقد ضاعت أغلبها بين الأوراق ، ولكن من حسن الحظ وجدت تلخيصاً بقلم الأستاذ لإحدى الحلقات المهمة ، لهذا سانقلها هنا لتكون الصفحات الجديدة شرحاً لها ، يقول الأستاذ وقد كان مشرفاً علي صفحة الأدب في جريدة الصحافة .. (تناول الكاتب في الحلقة الماضية التي نشرت في الإسبوع الماضى لخليل فرح وشعره بعدين أساسيين . فمن الناحية النفسية نزع الخليل إلى الشعر الغنائي – رغم إستطاعته كتابة الشعر الفصيح – لأنه لايستطيع أن ينفي الآخرين عن عالمه اللفظي ، والشعر الغنائي فيه حرية تدفعه إلى التأمل في الجمال ، وهو يقف وراء ثورة الفنان علي الواقع . فالشعر الغنائي هو ثورة ضد اللغة الفصحى التي هي جزء من الواقع ورمز إجتماعي أكثر من أن تكون وسيلة لافراغ تجربة داخلية عميقة . ومن الناحية الإجتماعية فالمغني في عرف المجتمع السوداني مجرد «صائع» وهذا يتيح للفنان تحقيق رغبته الأساسية وهي الانفكاك عن الزمان والمكان بمطاردة الرؤية التي تجسمت في مفردات لفظية متعددة في شعر الخليل بالإضافة إلى النزوع نحو إتخاذ مواقف سياسية تدعو للإستقلال ، غير الأنغماس الكامل في الحياة الحسية .. والمرأة عموماً في شعره مجرد رمز لحقيقة غير مجسدة في الطبيعة) هذا ما نقله عني ولا أريد أن أزيد فوق ما قال ولكني سأذكر شيئاً كنت قد قلته آنذاك وهو مفيد هنا ، لأننا الآن بصدد الكلام عن أثر المزاج النوبي في قدرات الخليل التعبيرية .. أذكر انني كنت قد قلت بان الشعر الفصيح لم يكن له مساحة كبيرة في ابداعات الخليل إلاّ نادراً وحتى في تلك اللحظات النادرات كان يعتمد علي ذاكرته فقد كان يعبر عن الشاعر المثقف أكثر من المبدع الذائب في موسيقى الوجود .. فعندما يقول

صفّر الفجر فوق هام النجود *** حلة من زبرجد منضود

لديك فسحة من الوقت لتسأل هل رأي الشاعر «زبرجد منضود» تلك الرؤية التي تدفع الشيء إلى قاع الوجدان حتى يتلون الرمز به عند الإفصاح ؟!

وعندما يقول :

أبناء يعرب حيث مجد ربيع *** هو نبع جزيرة حيث بيت إياد

متشابهون لدي العراك كأنما *** نبتت رماحهم مع الأجساد

عندما تسمعه تحس بأنه «يسجل موقفاً» أكثر من أنه يعبر عن خلجاته . وربما الأفتعال يبلغ ذروته عندما يفتخر باهله المحس ويختار قيمة غريبة في القيم السائدة هناك . وهي قوة الشكيمة .. وربما تصلح كقيمة للفخر في مجتمع الصحراء أما في المجتمعات النيلية قد لا ترقى لمستوي التغنى بها وربما هذا يدفعنا لقضية اخرى وهي ان انتماءات خليل فرح وجدانيه أكثر من انها تشير الي موضوع خارجي .

الوطن كما سنأتي إليه – مستوي من مستويات العشق ولكن هذا لايمنع أن يتشبث أحياناً بأمكنة معروفة . وحتى هذه الامكنة كان نصيب ام درمان منها أكبر بكثير من نصيب جزيرة صاي الموطن الاصلي أو وادى حلفا مكان النشأة .. وقد يكون في هذا أثر المزاج النوبي واضحاً علي الشاعر .. هكذا يمكن أن نقول بأن اللحظات (المصنوعة) في شعر الخليل كانت دائماً من نصيب اللغة الفصحى ولكن تبقى للشعر الفصيح ميزة لايملكها الشعر الغنائي وهي ان للشعر الفصيح قدرة في حمل المعانى عندما يضطر الشاعر ان «يعقلن» تجربته الفنية وهي لحظات غير مطلوبة دائماً في الشاعر ولكنها لابد منها أحياناً لضرورتها .

الخليل بشاعريته الفذه استفاد كثيراً من هذه الميزة . حتى انه كاد ان يضع نظرية للعشق سنتعرض لها في الفقرات القادمة ولكن هنا أنظر إليه كيف تمر إنتماءاته من جسد إمرأة مروراً بغيبوبة الخمر ثم إلى السياسة قبل أن تتبدد في الآفاق :

ياطلعة البــدر بين الكأس والساق *** فعل المدا مه ام ذا طيف اشواقي

اراك دون كؤوس الشــرب مترعـــة *** وبين خديك مرآة لمشـــتاق

لا أكتـم الحـب في قلـبي فيقتلنى *** ولا أنـــام و غيري للعلا راق

وبين جنبي نفس كلما طلعت *** شمس علي الكون تاقت عبر مطرق
وللسياسة نجم في الصعود اذا *** أضاء إضاءات بنجمي الف آفاق

هموم الوطن والمجتمع أصبحت قضية هنا ولكنها في نهاية المطاف احدى تداعيات الدهشة التى انطلقت فجأة في لحظة تذوق (ياطلعة البدر) والفصل هنا بين الرموز ومواضع الحب شبه مستحيلة .

وليغفر لي القاريء هنا خشونة اللغة ووعورة الطريق فاقرب الدروب الممكنة لاتخرج من دائرة الغموض .. ويكفى لذلك سبباً أن الذي نطلب الأمساك به لنتفحصه هو مزاج نوبي طليق زئبقى «الكيان» وحتى إذا امسكت به لن تصله الا بعد ان يفقد حيويته كأرنب بري بين مخالب كلب صيد أو يذبل كزهرة في كف عابث .. ولكن العزاء في ان الذي نصل اليه هو الممكن المتاح . وفي احدي حالاته النادرة تلك وقد خرج لتوه من اجوائه المعهودة والمليئة بغيبوبة الخمر والنساء يقول خليل فرح :

رب ماض من الهوي بعثته *** ذكريات الهديل والتغريد
كل شيء الي البلى غير ذكري *** صورة من صبابة وعهود
كلنا بالحياة صب ولكن *** إختلاف النفس في المقصود

إذا جاز للعشق (نظرية) فلن تكن غير هذه الأبيات ، إستطاع ببصيرته المتقدة أن يستبين ملامح محبوبته وسط هذه الغيوم . كسر هنا قاعدة قديمة كانت تقول : (إن الذي يحب لايفكر) ولكنه الآن يحدد معني للحب فيصوره وهو يرحل بحثاً عن ذكرى في ضمير الماضى لمجرد ان يشتعل بلحن أو بجمال إمرأة أو قيمة كالحرية .

الحياة هي عملية البحث عن تلك الصورة الكامنة في الذكرى أو الحبيب الذي أراد أن يصوره ليبحث عنه في صوت المغنى أو هديل الحمام محجوبه في صورة العهود الغابره .

ربما عند هذه المحطات مرت حركته المضطربة باكثر البقع كثافة بظلال الحقيقة ..! وربما هي صدمة عاطفية .. أو لذة .. أو سأم من لذة .. أو إفاقة من سكر قاتل . فالشاعر هنا قد إقترب من تلك العلاقة الشفافة التي تربط بين الطفولة والايمان

الجمال .. فالصورة المجسمة للصبابه والعهود ربما تعبير بليغ للكينونة التي كان عليها الإنسان في مرحلة الخلق الأول عندما أخذ الله منه الميثاق .. (ألست بربكم قالوا بلا) تلك الكينونة المقصودة ستظل مطمورة بين تراكمات متفاوته لإيحاءات المادة أو مشاغل العمل اليومية حتى تستيقظ بطريقتين لتذوق جمال او رياضة روحية لحظات اليقظة تلك هي أكثر اللحظات إمتلاء بالمعنى واليقظة . و هي تعادل معني السكر أو التلاشي أو الصحوة أو الحضور ، ولكنها في نهاية الأمر لحظات يتنفس فيها الإنسان داخل كينونة مفارقة .. أنظر كيف يظل مشدوها عندما يسري فيه الإحساس .. أو فلتقرأه وهو يؤرخ لتلك البرهة المليئة بالمعنى

شوف صباح الوادى وجماله *** شوف خضاره وصيده ورماله

أما عند بداية حد الاستغراق أو عقب تلك اللحظات المفعمات بالسكون .. تأخذ المرأة التي كان يتغزل بخدودها وثيابها وقوامها ، أبعاداً أخري فيها يلاقى الشاعر كيانه الهارب أو ذاته المفقوده

مال نسيم الليل ببرودك
نامت الأزهار فوق خدودك
غرد العصفور فوق عودك

المرأة هنا أصبحت مركزاً للوجود ، أصبحت أقرب الكائنات من رأس الهرم ، حيث سال عندها جمال الطبيعة من نسائم وأزهار وتغريد عصافير وخضرة غصون .. الواضح انه نسى كل التفاصيل الصغيرة للجمال الحسى كالخدود والارداف .. فلا غرابة إذن إذا ظهرت تلك الأبعاد القائمة كأنها بعيدة في معناها عن «الكينونة» والتي بدورها تعنى حالة ممزوجة في المكان !! وقد نستشف ذلك من قوله :

يالطبيعة الواديك ساكن *** مافي مثلك قط في الاماكن

هذه الكينونة أو المكان الواسع التي تجدها أينما توجهت بين أوصاف أغاني خليل فرح ، إذا طغت عليها معاني الحرية .. هي نفسها التي يشير إليها الشاعر عندما



يقول :

قوموا خلوا الضيف في الجناين *** شوفوا عز الصيد في العساين

النشأة والشاعرية :

يتعجب الأستاذ علي الملك وهو يقدم لديوان الخليل متسائلاً .. كيف استطاع هذا (الرطانى) ان يستوعب سحر اللغة العربية حتي بذ بها أصحابها ..؟! حيرته هذا تشابه حيرة أولئك الذين تعجبوا من «الدنقلاوي» الذي جمع حوله قبائل الغرب وهم يبحثون في فكر المهدي . وما سنقوله هنا لايختلف كثيراً عما قلناه هناك إلا في بعض التفاصيل . وقبل ذلك نورد ما قاله الأستاذ الشاعر الهادي الصديق الذي حاول فنياً أن ينغمس في تجربة الخليل .. يقول الأستاذ بعد أن يناجي حلفا «حبيبتي الشمس المشرقه» . عن هذا الشاعر المحسي «الذي بدأ طفولته بالرطانة» بأن ميلاده كان (في جزيرة صاي أرض المعابد والمرافق التي يرجح أن يكون بها قبر تهراقا، هناك يفتح التاريخ كنزاً جديداً ويرسل طيرها أعجمياً لساناً «محسياً» فصيحاً وشاعراً وفناناً ، يزن اللحظة بفنه ويحاسب نفسه (على داير الملين) . وأضعاً صوته في صوت الجماهير وحاملاً وطنه في قلبه) .

والحس اللغوى أو الحساسية اللغوية هي من خصائص المزاج النوبى وهى هنا سيدة التجربة ، ولكن ماذا نعنى بالحس اللغوي هذا ..؟ وما أسبابه ؟ الحساسية بمعنى القدرة في إختيار المفردات الطازجه التي تناسب المعاني المحبوسة في اللغة والتي نضجت لتوها ، والنضج هنا محكوم بقدرة الوعاء ، كلما كان القاع بعيداً ظهرت هنا ذكري الصبابة والعهود اشد وضوحاً ، وكلما اشتدت ملامح صور تلك الذكريات قل صبر الانسان في الاحتفاظ بها وخاصة إذا كانت ذاكرة الانسان مليئة بالمفردات .. وللبيئة دور كبير في صياغة الذاكرة ، وهي إذا وفرت أجواء حرية التعبيرللإنسان تفتح شهية الأعماق او بمعني آخر تحرك النزعات الفنية من خلال الاختلاط بافراد عرفوا بالابداع . كل هذه الشروط البيئية والاجتماعية متوفرة في

البيئة النوبية ونحن بالطبع هنا لم نتكلم عن الخصائص الفنية للمفردات النوبية باعتبار ان الذي يهمنا في تجربة خليل فرح الوعاء النوبي وليس مفردات اللغة النوبية ورغم ذلك نقول بان توفر البيئة المساعدة والمزاج لايكفيان في تفسير ظاهرة خليل فرح «الفنية» نسبة لقوة وعمق الشاعرية فيه وربما لم يكن كل هذا خافياً علي الاستاذ علي الملك عندما تعجب . وتبقي أسباب أخري لها علاقة مباشرة بمكان النشأة (دبروسه) فقد نشأ هناك رغم أن موطنه الأصلي «جزيرة صاي» .

دبروسه احدى أحياء مدينة وادي حلفا ، يذكرونها عرضاً في تاريخ خليل فرح رغم خطورتها في تشكيل وعي وملكات الشاعر التعبيرية واقول «تشكيل» لكي لاننسى دور العوامل الأخرى كالوراثة والبيئة والثقافة ، فادوارها مفهومه من السياق لأنه معروف للجميع بأن السنوات الاولي في مرحلة الشباب والتي في الثابت ان الشاعر قد قضاها في حي دبروسه ، وهي أكثر سنوات العمر يكون فيها الانسان منتبه الحواس ويظل يجتر إنطباعات تلك المرحلة حتي نهاية العمر . وهناك جانب خاص لدور دبروسه في تشكيل شاعرية خليل فرح وهو بناء ذاكرة جمالية في الشاعر ، مفرداتها عربية نوبية حاملة خصائص مناخات لغوية متداخلة في إنسجام .

بطبيعة النسيج الإجتماع وموقع «حي دبروسه» من سوق مدينة وادي حلفا .. اللغة الغالبة في حي دبروسه كانت اللغة العربية .. انسان مثل هذه الاحياء كان لايعاني أزدواجية لغوية حادة ، مثل تلك التي كان ولا يزال يعانى منها انسان القري النائية من السوق شمالاً أو جنوباً .. ولايهم بعد ذلك ان تكون اللغة العربية المستعملة في مثل تلك الأحياء ذات مذاقات مختلفة من اللهجات المصرية والسودانية والفصحي .

سهولة الإنتقال بين هذه المناخات اللغوية المختلفة والغنية بقربها من السوق أو التعامل مع مفردات عربية تعودت الرقص علي الإيقاعات النوبية ، شكلت هوية إفصاحية راسخة في خليل فرح «الطفل» إستثمرها فيما بعد في احياء ام درمان أيما إستثمار !!

وربما رسوخ هذه الهوية الافصاحية وعمق جذورها الممتدة إلى البيئة النوبية دليلها ريادة الخليل في كسر حاجز الفصحى بالشعر الغنائي وقدرته الخارقة علي التصويب ، جرأته علي «ارستقراطية» اللغة الفصحي . ربما كان من أسبابها أن الايقاع النوبي محرض قوي لعدم الإلتزام بالقيود اللغوية طالما كان هذا مطلباً شعبياً وذلك ربما لأن اللغة النوبية طال بها العهد عن الكتابة والتدوين وقد قيل بأنها لغة غناء أكثر من أنها للأسواق . وهنا نستطيع أن نقول إنه إستفاد من خلفيته النوبية التي تعاني كثيراً من الازدواجية اللغوية ، في عمل تميز به وهو جرأته بكسر حاجز اللغة وذلك بادخال العامية السهلة في الإبداع الشعري وهو ماجعله «أباً شرعياً لشعراء الاغنية» .. ربما بذلك مهد طريقاً معبداً لشعراء الحقيبة ليقوموا بدورهم في تنزيل فن المدائح الي الغناء الحديث . ربما نجاحه في ذلك أدى الي إلتصاقه المنقطع النظير بجمهور ام درمان (ام القبائل ما فيك منافق) رغم انه كان يبدو كأنما بدأ تاريخه الشخصي هنا . كان لابد من هموم تاريخية تعوضه عن «نوبيته» والتي ماكانت لتعبر عن نفسها بوضوح لحاجز اللغة . ربما لذاك وجد ضالته في السياسة وحتماً هناك أسباب أخرى كأرتباط الفنان بقيمة بالحرية لهذا لاتستطيع أن تفصل في قصائده بين الذات والوطن والمرأة والطبيعة إلاّ إذا إستطعت أن تفصل الماء عن الدم وفي ذلك يقول مؤلف (نقوش علي قبر الخليل) - «وما دام الشاعر يحمل وطنه في قبله فأننا لانستطيع بسهولة أن نفصل ما بين الدم والماء في جسد الخليل . إنك تراه يحول بكلماته ساحة الرقص فرحاً ، الي ساحة الحرب غضباً) اما قدرته علي التصويب فقد تحتاج منا لوقفات رغم أنها بينة الوضوح . وذلك عندما تراه يرسم صورة المحبوب علي كل الأشياء التي يصادفها من أحياء ام درمان ووجوه النساء مروراً بهموم السياسة وحتى كؤوس الخمر . حتى أنه بنى أشكالاً هندسية وجعلها قاعدة هرم ، وجعل كيانة في مركزه .

أنظر هنا كيف جعل العاصمة المثلثة قاعدة الإنطلاق أما رأس الهرم فقد

جعلها في فؤاده .

عزه في حزا الخرطوم قبال *** وعزه من جنات شمبات حيال
وعزه لي ربوع امدرجبال *** وعزه في الفؤاد دوا يشفي الوبال

أم درمان صاحبة المذاق الخاص أو صاحبه «الذوق الخاص» التي اعدت له مسرح شبابه واستوعبت أغانيه ومفرداته .. ارتبط بها حتى انست الشاعر أهله ، فلا تجد في شعره ذكراً لموقع طفولته الا في بعض الاشعار التي دائماً ما كانت تأتي على شكل «أشعار فصحى» ، ومعروف أن الشعر الفصيح لدي خليل فرح يعبر عن ذهنه وقدراته اللغوية أكثر مما يعبر عن عواطف صادقه .

عندما تقرأ الأبيات التي يفتخر بأهله المحس لاتجد فيها تلك التلقائية والحراره التي تجدها في المواقف المماثلة .. أيضاً ستجد مثل هذه (الذهنية الطاغية) عندما يصف حفلة زفاف في رفاعه بقوله (رفعت إعلامها رفاعه .. شمخت بي كباره رفاعه .. هنا تلقي الخلق الاعرابي .. ولا خوف ولاضيم..) قيل انه قالها عندما زار رفاعة في حفلة زواج صديقه (سليمان كشه) اما تلك التلقائية والحرارة لابد انك واجدها في حفلات ام درمان:

في السيره بتسوي الهبوع *** ياجاهله خسرتي الطبوع
السيـرة مرقـت يانديـم *** والنور سطع غطى الاديم
تتهبع أم ديســاً رديـم *** ياعبده طربتنا القديم

أما ام درمان التي ربط كيانه بها كأنه ولد بها ونشأ عليها ، كانت الاستثناء الوحيد في صدق شعر الفصحي فيه ، ورغم ذلك نستطيع أن نقول بأنه (فصحي راقص) خفيف الظل علي حافة اللهجة المحلية .. أنظر كلمة (قبايل) مثلاً .

ويح قلبي الما انفك خافق *** فارق ام درمان باكي شافق
يا أم قبايل مافيك منافق *** سقى أرضك صوب الغمام

ولاغرابة إذن إذا جعل من أحياء ام درمان الطرفية مناطق إنطلاق للحرية

والشفافية أو ركز عليها سلماً جمالياً ارتقى عليه في رحلة بحثه الدائم عن كيان الهارب . واحياء ام درمان هنا تشابه تفاصيل جسد المرأة من خدود وحشا مبروم وقوام لادن .

رسم الشاعر حول ام درمان دائرة جعلها قاعدة ينطلق منها في حركة حلزونية كالتي بناها في مثلث العاصمة ولكن ربما لأن الفرق هنا هو عمق العشق اوجدَ الارتباط ، جعل البناء هنا متحركاً ، كالقدله التي تفقد معناها اذا توقفت وذلك بين أحياء المدينة أو بالطريق الشاقي الترام .

ربما ساكون مضطراً للتوغل في التجريد واتحمل مسئولية القول بأن سلم الجمال الذي يرتقي فيه الخليل هنا له شكل مخروطي تنطلق الحركة في شكل دائري ثم تتجه الي اعلى في شكل حلزوني وكلما ارتفع وتوغل في الشفافية تظهر علي التعبير نكهة دينية أو يضطر ليستعين بذاكرته الدينية تأمل كل ذلك في قوله :

من علايل أبوروف للمزالق   من فتيح للخور المغـــالق
قدلة يامولاي حافى حالق   بالطريق الشاقيه الترام

أما سبب النكهة الدينية التي تظهر علي التعبير كلما اقترب من رأس الهرم وقفنا عنده في السطور الأولى وقلنا أن السبب هو ظهور آثار مرحلة الخلق الأول أو الميثاق المعقود بين الله والانسان ويسميه الشاعر بعهود الصبا وهي كامنة في قاع الوجدان كمعيار نهائي للجمال .

ربما من هنا نستطيع ان نتذوق المعنى الذي يرمز اليه بـ(عزه) وهي هنا أقصي حالة ممكنه يصل إليها أثناء عملية التذوق «أوأعلي إرتفاع ممكن في سلم الجمال» دون ان يفقد واقعه ، أو بمعنى آخر أقرب حالة للنقطة الحرجة التي بعدها تصبح النشوة مهلكة .!!

عزه هنا لا وطن ولا أمرأة ولكنها تحمل ملامح كل شيء لأنها فوق الأشياء جميعاً (كبدر التمام) كل الذي ينظر اليه يستطيع ان يدعي قربا منه وكلهم محقون في ذلك

مالم يدعوا حكماً نهائياً .

هذه الحالة المفعمة بالنشوة (المنتجه) موجودة في وجدان الخليل وهي جزء من كيانه سيظل يطاردها لأنها كينونة مستحيلة خلقت معياراً للقيم لا لكي يحياها الانسان ! كل الذي أردنا قوله في السطور السابقة أن مقاصد الرحلة النهائية هي الكينونة وهي في الاصل نزعة دينية مغروسة في البشر وبداية الرحلة كانت رغبة حسيه بسيطة في جسد إمرأة أو رغبة في قيمة بسيطة كالحرية ولكن لعدم توفر شروط تحقيق تلك الرغبة اشتعلت في الشاعر معاني أكثر شفافية كانت كامنة فيه ولكن احياناً اذا لم تكن تلك الرغبة ناضجة أو طغت الحسيه عليها يهبط الإنسان من جسد المرأة في إتجاه معاكس .. فالهبوط في اغنية زهرة روما واضحة في الوصف :

شوف وريدها الماثل زي «زجاجة روم» *** القوام اللادن والحشا المبروم
والصدير الطامح زى «خليج الروم»

في الرحلة الأولى صعدت الرغبة في إتجاه أعلى فقد استحالت النسايم والزهور والعصافير الي كائن بشري ، اما في زهرة روما فتفاصيل جسدها إستحالت إلي زجاجة خمرة أو منطقة بارزة من الآرض والرحلة في طريقها إلي مقاصدها المذكوره كل الأشياء التي تحتويها التعبير تأخذ معاني يمكن الخلاف عليها كما هو دائماً في رموز خليل فرح ، ولكن تلك الكلمات التي تصف الكينونة التي تقصدها تفقد قدرتها علي الإيحاء مهما أوتي الشاعر من قدرة ومهما أوتي المتذوق من مقدرة في فهم المقاصد سيظل يتساءل مع الهادي الصديق «تري ماذا يخاطب الخليل بهذه المناجاة؟»

من حطامك أنا غصني وارف *** فيّ شن أبقيت للطوارق
غير قلبيا في همومه غارق *** ولسانا برده الكلام

عزه (مستويات النشوه) :

بقي أمامنا من الدروب الوعرة المزيد من المطاردة لصور المحبوب في أغاني خليل



فرح .. ووعورة الدرب هنا سببها .. الملاذ الغائم للكينونة . فالمحبوب احياناً لاتظهر ل ، الا وهو مغمس في غيبوية خمر أو جنس أو يصفها أحياناً كما لم يصفها أحد من قبل وهو مستغرق في لحظات وعي كثيف وهذه اللحظات تعقب دائماً لحظات الفشل الخالد . وأحياناً أخري يستحضرها بالرقص والقدلة في الطرقات ، هذه الحركة العنيفة بين الصور والمعاني والحالات ، ربما دفعته ليقف علي «برهة الحق» ولو بدو قصد منه .

* في تعبيراته كأنه يمشي وسط ضجيج الأشياء لهذا ربما كان (سامري اللمسة) دفقة روحه التي يفرغها علي الاشياء كانت ومازالت تبعث فيها الحياة . تستيقظ الأشياء علي أثرها وفيها ملامح المحبوب . ونستطيع أن نلخص قضيته بأنه يجمع كل هذه الصور لينسج بها حالة .. أو يستحضر بها كيان هارب هذه المعانى بصورة أخرى نجدها بين أحياء ام درمان والقدلة هنا كأنها استحضار عملي لذلك الكيان الهارب .. ونجدها أيضاً في صور اخري عندما تتداخل صفات المرأة والوطن وذات المفقوده ..

المرأة والوطن ..

* هذه المناطق المختلفة في مجموعها هي الوطن وهي المرأة وهذه المواضيع بالطبع اقرب الرموز لمعاني الكيان او الذات المفقودة ، الحنين الي الانطلاق وهو حالة نفسية تتولد من عمليات التذوق نستطيع ان نستشفها «من الضواحي وطرف المدائن»

* هذه الطاقة العاطفية تعود مرة أخري لتحرك الأشياء الأخرى فالانطلاقة التي وجدها في العسائن أفرغها في كلبة جمجوم وهنا إستمد الحيوان قيمة انسانية .

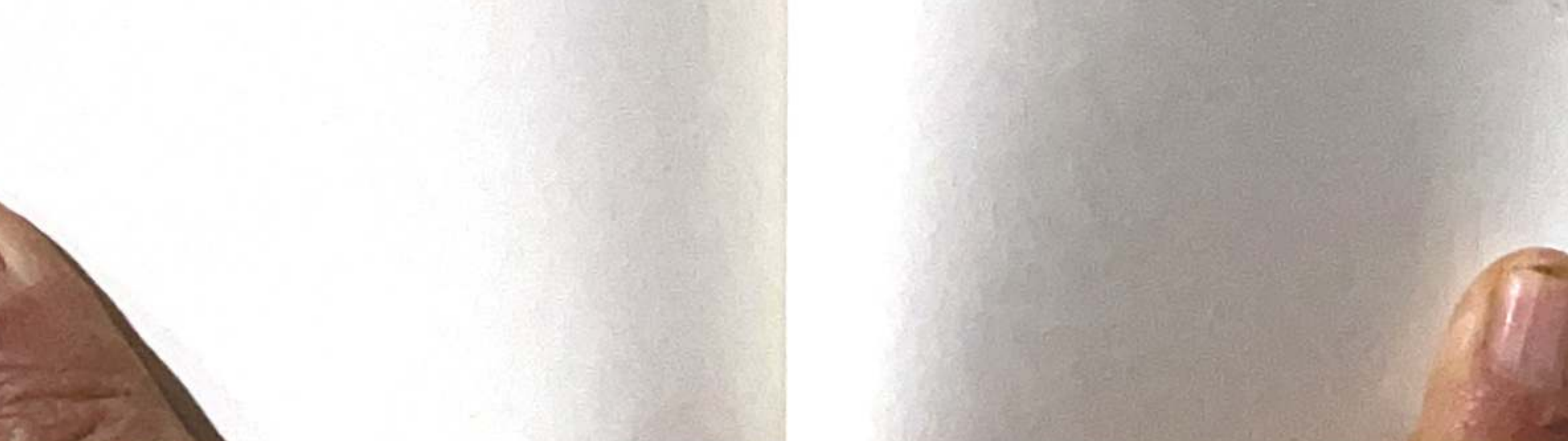
* الذاكره الجمالية المليئة بالمفردات والصور لدي خليل فرح تدخل المتأمل في هالة من الخطوط والروائح والألوان لا يستطيع بسهولة ان يحدد اتجاهاً . إرتباط الوطن والمرأة بالحرية والجمال لا يعني انهما شيء واحد لدي هذا الفنان ففي قوله (عزه يافاو هي الوطن) كان يدرك ان هناك فارقاً كمياً رغم انه لايدرك كيفيته ، الفارق في

تقديري خيط رفيع قد لايراه الإنسان عندما يصبح أسيراً لإحساس طاغي ، فالخليل رغم إنغماسه هذا يتطلع إلي شيء أسمي من حقائق الحس ولكنه لكي يعبر لايستطيع إلا أن يتخذ المرأة رمزاً لتلك العذوبة الخالدة ولكنه ايضاً يصطدم دوماً بحقائق الحس التي يحاول ان يهرب منها . ولا يستطيع هنا أن يتخذ حلاً لتلك المعادلة . لان للوطن جمالاً قد تذوقه بالضرورة كما تذوق جمال المرأة ولكن الفارق ان حب الوطن فيه سمو أكثر من ما في حب المرأة لانه يخلو من حافظ الحس المتاح ، لذلك المرأة في لحظات السمو وطن . فعزه «المستحيلة» تأخذ مدلول الوطن ، والوطن بدوره يأخذ بعداً آخر يتجلى في صورة ام درمان أو السودان ليصب في نهاية المطاف في الذات المفقودة التي تمثل الكون وهذا الكون بدوره السبب الأول لحب الحياة .

* الفاصل بين المرأة والوطن يتلاشي تدريجياً كلما سما الشاعر في حبه ، وكلما كان أقرب للحس تزداد الفواصل بينها فسلمي ومحاسن ورباب وأم جواب قد تمثلهم ليلي في لحظة سمو وأحياناً أخري عزه وعندما يرتقي باحداهن يفيض حبه ويشع في كل ما حوله وهنا تأخذ الطبيعة قيمة إنسانية ويتلاشي الفرق بين الوطن والمرأة فتصبح ليلي أو عزه هي الوطن .. (عز حزا الخرطوم قبال – عزه لربوع ام درمان جبال)

* المرأة التي أخذت قيمة الوطن أصبحت وسيلة لتلك (القدلة) فهو الآن حائر بين ألم الإنغماس ولذة السمو التي تلوح له بين حين وآخر .

بهذه الرؤية صارت المرأة تلك النقطة المبهمة بين النقيضين . عزه هنا تجسد ذاته «عزه في الفؤاد دواء يشفي الوبال» ولكن كيف السبيل ؟ لو وجد الإنسان الإجابة لتوقفت حركة الحياة ولكن الشعراء ينطحون هذه الحقيقة الي ان يتحطموا فوق صخرتها . قلب الانسان يقول له بامكانيته ملاحقة الذات واستنشاق الشفافية في تلك الكينونة وواقع الحياة يرفض تلك المقولة والخليل يجسد هذه الحقيقة بين الطيف والتركيز ولايجد فارقاً بين رضاب المرأة والخمر المعتق .والخليل كان لديه الخمر



اعترافاً بعجزه في ملاحقة الطيف . فخمرياته التي تميز بها عن الشعراء لاتخلو
شعور بالذنب بيّنه في أوصافه ولكن وهو ممعن في الهاوية . عندما لم يستطع ان يفر
بالمرأة إلي عالم التجريد الذي يصبو إليه كان يحن إلي الإرتداد بالقوة نفسها إلي
الخلف وذلك بمزيد من غيبوبة السكر .

املاً وانصف حتي التراب *** داير أشوف العالم سراب

ناوليني بالكأس الجديد *** ما تقول سكرت أخوك حديد

الحل لديه مزيد من أسباب العجز والتوغل في أعماق الحس بالخمر . صرخات البريئة في استجداء الخير قادته بين ذارعي الشر حتي وصل درجة الوهن . حتي ان بعدها احتقر كل شيء

لامني العزول قـال لي *** تروح ده سبيرتو ولا كروم روح

نار حمره بس إختاني روح *** بداوي فـي حشاي الجروح

كل كلمة فى هذه الفقره توحي كيف كان يستعذب إبتلاع هذه الجمرات في سبيل أن يجد حلاً لفتنة الأعماق . بالمرأة والطبيعة والنغم إراد أن يقفز لعالم الغيبوبة التا ولكن ضعفه الإنساني لم يسعفه فحن للتراجع للوراء حتى إستعذب السراب . فقد كان كالذي يبحث في باطن الارض ما عجز عنه في السماء لذا السراب هنا أخذ مدلولاً آخر للحقيقة . لانه افرغ فيه عاطفة الحب ، فلو توقف عند ادراكه هذا استطاع ان يخرج الحقيقة ولكن مأساته انه يريد أن يمنع الناموس السائد في الكون بمقياسه الإنساني الضعيف.

الغيبوبة والخلاص :

الحياة لدية كلها آلام لانه في اصطدام دائم بقوانينها ، فهو ضحية لاحساسه المرهف بالحقيقة ، يبحث عن ذاته ، وكأنه قد رآها . لذلك نزوعه للتجسيد أقوي . فالمعادلة الصعبة التي لاحل لها يجسدها في قوله

(إن سمح الحبيب ضن الزمن وخذانا *** وان سمح الزمن ضن الحبيب واذانا)

حيثية مفرغة في اللمحة أو في الوعي الكثيف الذي ينتابه من حين لآخر . فشكواه هنا من قوانين الحياة التي لا تسمح باستمرارية تلك اللحظات .. لذلك الالم لديه هو انقطاع اللذة . هذا الانقطاع يقوده حتماً للجنس وإستجداء الرعشة بحثاً عن الامل ولكن تكرار التجربة يحدث التآكل الروحي . الذي بدوره يتسبب في ضعف القدرة علي تحمل الالم وعندها يكون الهروب من الواقع بالخمر هو الحل . ففي تلك الغيبوبة تتراءي له الحقيقة كما يقول «هذه الدنيا علي علاتها مقلة انسانها بنت العنب» فاذا أصبح الخمر وسيلة لذلك العالم الشفاف فالاندفاع لكؤوس الخمر لا مجال للعقل في ردة ، لان العاطفة هنا مندفعة غير آبهة للحواجز الإجتماعية والدينية التي تقف دونه وفي ذلك يقول (دع ماقال مالك وابن دسوق) اذن ففى الخمر جمال كما في الطبيعة والمرأة فقيمة المرأة المفرغة في الطبيعة كذلك مفرغة في الخمر .

اسقنيها الصافية أم حباب *** رقة كاسك وقولي حباب

يا أم بنانا زانه الخضـاب *** ناولي كأسك حلو الرضاب

من زمان يابت السحـاب **** نور محافل وزينة رحاب

الذي يجمع بين رضاب المرأة والكأس هناذلك الحنين الجامع للحرية الشوهاء والتي يمرح في عبابها الشعراء بسكرة القبلة والخمر ، فهم جميعاً ينطلقون من قاعدة تعتبر الواقع وهماً ، ولذلك فالجنس والخمر سبيلهم للهرب . وفي كلا الحالتين إفراط وتفريط فالتشابه في الحدين واقع في نظرتهم لانهم كرقاص الساعة لا ينتظرون كثيراً حين يرتد للنقيض وهناك تشابه في الحدين ولا فرق في انتقاله بين غيبوبة اللفظ والحس والخمر !!

* يهرب من اللذة باحثاً في جمال الطبيعة عن الخلاص وعندما يصطدم بالفشل ويواجه ضعفه البشري يخاطب ربه قائلاً : «رحماك ربى إنهكت الليالي قوانا *** واعتلت جسومنا وصار هوانا هوانا» وفي موقف آخر يصرح بوضوح (انا مسلم قبلي ومسالم *** اخاف اقول الله ظالم) .



الخليل والهوية السودانية :

شاعرنا خليل فرح ظل ضحية الاحساس المرهف وربما كان مفتتناً بمزاجه الطليق ولكنه مع ذلك شكل بألحانه وأغنياته اوضح صورة ممكنه لمعنى الهوية السودانية ، ما زلنا في حاجة لتذوقها بترديد أغنية (عزه في هواك) وقد كان صادقاً ذلك الذي زعم بأنه (يحس بسودانيته) عندما يسمع اغنية عزه في هواك ، وذلك الاحساس ببساطة ، هي تلك الحالة التي فيها ، لايكون الانسان السوداني في حاجة للتساؤل (هل أنا عربي أم أفريقي؟) وربما هذا دليل بليغ لصحة مقولة سنقور وهو شاعر وفيلسوف افريقي معروف بأن العنصر النوبي أقوي لبنة لبناء الهوية في السودان .

والنوبي بطبيعة تكوينه الثقافي ينظر الي التراب غير مأخوذ بانتساب للعروبة ولا وجل من ملامح زنجية وربما لن تحل مشكلة الهوية في السودان مالم تنضج (الافريقية) في وعينا ولن تنضج الأفريقية في السودان مالم تصبح ثمرات التلاقح العربى النوبي حقيقة واقعة باعتباره حجر الزاوية في بناء الهوية في السودان .

وحتي ذلك الحين ستظل تجربة الخليل سابقة لزمانها .. وربما كان صادقاً من قال (بالرغم من أن هذا الجيل الحاضر يترنم في بعض الاحيان بقصائد هذا الفنان الا ان الامانة تقتضى ان نعترف بأن الروح الفنية لهذا الفنان لم تتغلغل بعد في نفوس هذا الجيل ومما لاشك فيه ان الكثيرين لايدركون القيمة الحقيقية لخليل فرح ..) .

الباب الثانى

الفصل الأول : أوجاع الروح

١. صدمة الهجرة .
٢. طقوس الفرح في أتون الأزمة .
٣. نوبيا (قصة من وحي الأزمة) .
٤. شخصيات المقاومة الصامتة .
أ- محمود فقول «محلات كلمة واحده»
ب- عم أيوب .

الفصل الثانى : معاول الإغتيال

١. خشم القربة «المستنقع الأغبر» .
٢. المؤسسة الزراعية «أزمة السياسات والإنسان» .
٣. أشجار المسكيت «بشارات الفقر» .
٤. بلازموديوم ملاريا «طفيل القربة» .
٥. التلوث «سموم فطريات ، مبيدات ، مياه شر» .
٦. الآمال والهروب .

الفصل الأول:

أوجا ع الروح

١. صدمة الهجرة .
٢. طقوس الفرح في أتون الأزمة .
٣. نوبيا (قصة من وحي الأزمة) .
٤. شخصيات المقاومة الصامتة .
أ- محمود فقول «محلات كلمة واحده»
ب- عم أيوب .

صدمه الهجرة

مجرد قبول عملية التهجير والتي أنتهت بالتشريد في مستنقعات خشم القربة كان إيذاناً بالقضاء علي هذه الشخصية (الظاهرة) ، والجريمة هنا عامة ومشتركة ، حتي تلك الحكومات التي سبقت عبود لم ترفض مبدأ إغراق المنطقة . والخلاف الذي كان قد حدث في قيمة التعويض وربما كان كما فسّره أحد فنانى المنطقة بأنه حكم مشيئة .. حتى ولو تمت مفاوضات اتفاقية مياه النيل علي يد خضر حمد أو ميرغني حمزة . كانت عمليات التهجير ستنتهي في خشم القربة . وبذلك فقد تم سحق الإنسان في روحه وجسده .

أوجا ع الروح التي نحن بصددها الآن كانت كبيرة لدي جيل الهجرة لأنه في الأصل ظاهرة لغوية كما ذكرنا في الحلقات السابقة . واللغة في الحالات العادية مسكونة بالوجود ، وحالة التقهقر الثقافي الثقافي جعل وجود المهجرين بكامله في اللغة ، لهذا كان يتطلب الأمر معالجة شفافة تقلل من آثار الصدمة عن طريق (الهبوط السلس) للواقع الاليم ولكن الذي حدث .. باسم البرمجة والتطبيع ، عاثوا فساد كالثور في مستودع الخزف وسمو (التجمعات القديمة) باسم القري ووزعوها مرقمة وكانت هذه اولى اوجاع الروح في المنطقة الجديدة .

الأسماء القديمة للتجمعات النوبية أوعية لغوية تراكمت عليها تجارب السنوات حتى غدت معتقة تحرك الوجدان بمجرد أن تذوب في الأذهان .. أسماء انفصلت عن أصلها الآول وأخذت مذاقات جديدة لتصبح رمزاً للذات النوبي لدي المجموعات التي القوا بها للتو في تلك (الاشلاقات) وهذه الأسماء المليئة بالدلالات والمشحونة بالمعانى اختزلوها في ارقام وترميزات شكلية مغلقة لا تنتج إلاّ ذاتها ...٢ ، ٥ ، ١ ، ٢١ ، ٣٣ ... ارقين ، قرص ، سوه ، دغيم ، عنقش ، عمكه .. أسماء لاندرى مصادرها إن كانت من التواراة باعتبارها بقية من مملكة نوباتيا كسره أو فرص أو كانت من التراث الإغريقى كأرقين ودبيره أو أسماء قبائل عربية كدغيم والصحابة أو حتى أسماء



خواجات كدبروسة . قوة دلالاتها تغنينا عن مسألة البحث عن معنى الأسماء «والاسماء لاتعلل» والاسم عندما يصبح رمزاً للهوية ، البحث عن معناه ضرب من العبث .

تركوا الأمر لإنصاف متعلمين وأكاديميين عاطلين عن أي تأمل فنفذوا المهمة في فترة قصيرة طبقاً لإلتزامات طلعت فريد في إتفاقيات مياه النيل بإقتلاع حضارة السنوات في مدة أقصاها أربع سنوات !! وبتعويضات غير مجزية . قطعوا ما شاءوا من الأيدى والأرجل ليأتى المقاس علي قدر السرير !! علي أثر سياسة التسمية تلك كان لابد أن تتوالي الإنعكاسات السيئة من الترسبات القديمة التي كانت موجودة من قبل .

أبرز الإنعكاسات السيئة تلك كانت عملية إلغاء الذاكرة وشل قدرة الإنسان علي الإبداع والمبادرة وكان من آثارها أيضاً وتيرة تساقط المفردات وبروز مشكلة ازدواجية اللغة بشكل مرضى حاد حتى تفشت أمراض احتقار الذات والتي تبدو جلية في عمليات الترجمة الكئيبة للأغاني ومحاولة لي الألسن لصياغة إيقاعات عربية لمفردات نوبية !! حتي إبعاد الأطفال عن الثقافة النوبية كانت قد بدأت كظاهرة تتفشي . كانوا كأنهم يخشون عليهم من لعاب كلب أجرب ..!! وكان من تداعياتها أيضاً الهروب للخصوصية والإحساس الكاذب بالتفوق وحكاية الحضارة التي أصبحت لامعنى لها بظهور طبقة «الحلفجية» وهم أبناء الجيل الثانى أو هم من مواليد حلفا الجديدة من السودانيين بقبائلهم المختلفة «عرب أو سكان كنانى» .

الحلفجية : «أدروب ، صالح ، دوسه ، أبوسن»

هم شباب اليوم ومعهم الهجين القادم .. هذا الهجين البشري الرائع الذي يحمل طيف الوحدة السودانية أو نواة الهوية الغائبة لو توفرت له أسباب العيش الكريم بنسبة معقولة من الفقر والأوبئة كان يمكن أن يظل أضافة لكل الثقافات القبلية المشتركة . ولكن لأن المنطقة غير صالحة للحياة الآدمية لم يثمر هذا اللقاء القبلى الذي

انتظرته الدراسات ولم ينمو إلاّ كما تنمو الأجنة المشوهة .

في العشرين سنة الأولى منح مشروع حلفا كل ما كان في جعبته من خير ، لهذا ربما هناك قطاع واسع من أفراد القبائل المستفيدة من هذه الشراكة مازالت في دائرة الرخاء المؤقت . وربما لهذا أيضاً لن يلتفت كثيراً لإرهاصات هذه الوقائع التي بدأت تلوح في الآفاق .. ولكن كلما إشتدت وطأة الفقر واستحكمت حلقات الأوبئة سيأتي الدور علي الجميع ، وعندها ستصبح الهجرة المرتدة من حيث جاءوا هي الحل. النصيب الذي ساهم به الحلفاوي في هذه الشراكة كان نشره لقيم الاستقرار ، ونقله لعدوي حب العلم والتعلم ، وفوق هذا إن الشراكة بنيت علي حسابه ، وقد ساهموا بالكثير من آلام هذا المخاض .

أذكر ونحن صبية .. كيف كنا نغذي فضولنا بالحوادث اليومية التي كانت تتجمع فصولها ، أمام مركز «بوليس القرية» وأذكر منها حادث قطع يد أحد رجال الشرطة وأذكر أن كبار السن كانوا يتشاورون في دفن اليد المقطوعة والصلاة عليها .. وأذكر كذلك مذبحة «القرية (١)» .. فقد كنا نتسلق «كوامر البوليس» العتيقة التى تحمل جرحى تلك المذبحة . ورغم اننى لست متقناً من دقة وصف التفاصيل .. إلاّ أن صور تلك الحاجيات الآدمية الملطخة ببقع كثيفة من الدم بقيت عالقة في الذاكرة ، ولا أدري حتى الآن هل كانت دماً متخثراً ، أم بقايا أشلاء آدمية !! فقد كان هجوماً دامياً قام به بعض «حمقي الأعراب» . قتلوا فيه بالسيوف عدداً كبيراً ممن كانوا يؤدون واجبهم .. بإبداء الرأي .. أو حراسة الصناديق . وقد بقيت (يد العمدة) التي قطعت في هذه المذبحة رمزاً للتضحية لأجل إحترام الآخر في الدوائر المغلقة .. والقصة كانت إبان حكومات أكتوبر ، فقد تعصب مجموعة من الأعراب لموقف الختمية في مقاطعة الإنتخابات وذلك عندما تم تحريضهم كما ظهرت في ملفات القضية . وربما هي إحداث قد غسلتها الأزمان من درن الأحزان والأوجاع ، ولكن ما بقى منها يصلح كمنشط لمن أراد ان يبحث من الاجيال القادمة ، لتصبح في نهاية المطاف من مكونات



ثقافة جديدة تثري الساحة . ومن المفارقات التي لم ينتبه إليها أحد في مذبحة فرص وذلك ربما تحت وطأة اوجاع جراحات الوجدان من (اصابة الرمز) .. أن العمدة بلهجته المصرية (التي كانت تنساب رطبة كما ينطقها اهلها) كان أحد أهداف هجوم حزب يحمل في تكوينه الفكري حب مصر .. وهي واحدة من مفارقات (الوعي المغيب) في السياسة السودانية .

الوضع الجغرافي للمنطقة القديمة والاحتكاك بالشعوب الأخري جعل في الحلفاوي غيره وحب للعلم .. وقد كان معروفاً انه يصارع قدره أن وجد نفسه أميا بين الناس . فمن لم تسعفه الظروف للتعلم كان يعمل طباخاً أو سفرجياً أو خادماً ليعلم أولاده . وقد كان طبيعياً أن تجد للأب الأمي أبناء متعلمين ومع ذلك لم تكن هنالك فوارق تذكر في ابناء الجيل الواحد فبالمظهر الخارجي «الجلباب الناصع البياض» ، وبالاحتفال بالذات ، حتى لو أضطر للكذب وبالمشاركة في الحوار «التحليل السياسي» كان يوارى الأمي سوأته .

قيمة حب العلم هذه التي كانت تميز الحلفاوي عن غيره قد نضبت معينها الآن بفعل سنوات التشريد ، والباقي من هذه النزعة ضاعت وسط أولويات أخرى خلقتها مصارعة الفقر والملاريا .. من الظواهر الغريبة التي بدأت تنتشر في مجتمع المهجرين ، ظاهرة الأب المتعلم والأبناء الأميين .. فالمتعلم منهم إن كان موظفاً أو معلماً تجده كشجرة الدوم يلقى بظله بعيداً وهو أحوج الناس في خاصته .

واحده من قراءات حركة التاريخ تقول إن ميزان التفوق في مجال العلم سيظل يتنقل في القبائل الأخرى ثم يعود ليترك الجميع !! وعندما سيسود أدروب صالح أبو سن ، سيتساوي الجميع وربما سيبقى هجين البطانة هذا لبعض الوقت ، نتيجة لإسعافات شركات الخصخصة التي ستدير المشروع في المستقبل .

ولا يبدو في الأفق أن الحياة في حلفا الجديدة ستساعد ذلك النموذج الحضارى الرائع «الإنسان ذو الخصوصية .. هجين البطانة .. بطل الهوية الغائبة .. نواة الوحدة

.. ابن القبائل» الذي لايحتفل بدمه العربي ولا يستحي من دمه الزنجي . ولاندري ما الذي يبقي للحمة اللقاء البائيس في خشم القربة إذا فشلنا في هذا . الذي سقناه (عينة) من الآثار المدمرة لعمليات التذويب التي تمت بلا ضمانات وهي امتداد لسياسات خرقاء كثيرة كعملية تخطيط القري وسط المزارع والتخطيط الخاطيء في تسكين الأسر والتي كان يمكن الاهتداء فيها بقول عمر لأحد الولاة وهو يبني مدينة الكوفة «ذر القرابات تتزاور ولا تتجاور» .

المهم هنا هذه السياسات الخرقاء لعبت دوراً كبيراً في اتساع الجرح لأنها أدت إلي خلخلة مبكرة للبنية النفسية للمهجرين الذين كان مطلوباً منهم إن يضحوا من أجل الإنسان في السودان كما ضحوا من أجل الإنسان في مصر .

آثار هذه الخلخلة العميقة كانت بادية الوضوح في السنوات الأولي ، وهي سنوات لم تكن فيها أزمات إقتصادية طاحنة كالتي تحدث الآن ، بل كانت سنوات رخاء ونماء إقتصادي .

ظهرت آثار الأزمة علي المجتمع كأنها (صدمة حداثة) أو انفجار تطلعات ، وربما في بعض المظاهر جرعة من هنا ومن هناك . ولكن المسألة برمتها تصرفات إنسان فقد الذاكرة أو هي كما يقول الشاعر «نسى التاريخ أو أنسى ذكره» وقد لخص الأستاذ عثمان نمر وهو أديب وصحفى معروف جانباً من هذه الأزمة عندما تساءل لماذا لم يكن إبداع الحلفاويين بحجم الحدث ؟!

هناك في الذاكرة صورة لتصرفات عفوية لأفراد وجماعات كانت تعبر عن هذا الضياع .. فقد كانت الخمور البلدية أولى بضائع التلاقح الحضارى في الأرض الجديد وقد أنغمس فيها المهجرون أيما انغماس وخاصة الشباب منهم باعتبارهم أكثر القطاعات ترجمة لحركة القيم فلم يكن للمجتمع من حديث عقب كل عقد زواج سوي مقامات السكاري «ليلة أمس» . كان فلان «منعنشاً» وآخر تسكره الريحة وفلان الثالث خمور «الكنابى» كلها لاتحرك فيه شعره . هكذا اجتمعت قيم الوجاهة في تلك الفترات مع تعاطي الخمر .



أما الفن الشعبي فقد كان صامتاً والسبب كما ذكرنا سقوط المفردات واحتقار الذات حتى تلك المحاولات الفردية التي استطاع صاحبها أن يتجاوز بها هذه الأزمات ما كانت لتحرك شيئاً في إنسان يتواري خجلاً من تراثه - سنتطرق لهذا الأمر بتوسع عندما نتناول أغاني ولولي - لهذا كانت الدعوات ذات المبررات الدينية تنجح أحياناً في إيقاف حفلات الرقص وكان الرقص من أبرز نشاطات تلك الفترة وفي هذا أيضاً تعبيراً آخراً عن الأزمة لأن ما كان يسمونه بالرقص لم يكن أكثر من وعاء ينقل فيه المجتمع آثار الكبت والاختناق والرفض وذلك من خلال الحركات العنيفة والتشنج اللفظي ، أما الفن حتى بعد أن إستيقظ في مرحلة الهروب التي سنتكلم عنها ، ما كان أكثر من إستحضار ا لمفردات ميتة تعتمد بالكامل علي الآلات الموسيقية خاصة (الجيتار) والتي تملك بدورها قدرة فائقة في إثارة الفتنة في أعماق شاب لا يملك مكاناً يذهب إليه بسبب الفقر بعد أن تنطفيء الأنوار . وقد سمينا تلك الأغنيات في غير هذا المكان بأغنيات الترله وهي مقطورة زراعية كانت تؤجر كمسرح بعد أن قل دورها في نقل المحاصيل .

مجذوب البحارى وزير داخلية عبود
تم على يديه اعلان خشم القربة كخيار بالقوة

طقوس الفرح وأتون الأزمة

غرب سره مجتمع مشحون بالتاريخ والطموح له نصيب مقدر في تاريخ الصراع السياسي والرياضي والمسرحي بل والتعاوني بالمنطقة ، ولكنه الآن احد الامثال الحية للمجتمعات التي بدأت تتفتت تحت وطأة الفقر وصدمات التهجير .

وقد كنا نتساءل ربما آثمين علي يد من سينطلق الإصلاح وخاصة في القضايا العاجلة التي تهتم بإقامة حفلات الأعراس من حيث الإقتصاد في التكلفة وتنظيم (فتنة) الحفلات .

والتساؤل كان مصدره غياب القيادة الرشيدة وخلو المجتمع من الزعامات ، وربما هنا تظهر إحدي تداعيات أزمة المجتمع المهجر . فعدم الاستقرار في العلاقات الجديدة بين الأسر أفرزت إستحالة تحديد الأوزان الاجتماعية والمقامات . وربما لهذا ستظل الزعامة .. حقاً مشاعاً حتي تفرز الصراعات زعامات لها مواصفات المرحلة .. ونحن هنا بالطبع لم نلتفت للزعامات التي تفرزها الصراعات السياسية أو الطفرات الاقتصادية باعتبارها مؤقتة لايملك أفرادها القوة النفسية التي بها يقتحمون الأبواب المغلقة حتي ولو انقاد لهم الناس لحاجة ماسة .

إذن كان الأمر في سياقه الطبيعي ، إذا جاءنا الحل من جهات عدة كانت من بينها الجهات الحكومية والزعامات المؤقتة من دينين ومساهمين وذلك عندما أقاموا تجمعاً مباركاً تم فيه زواج عشرات الشباب .

كان مبعث التساؤل القديم الجديد هـو الخوف من السيل الجـارف من الفتنة عند عشرات الشباب وكيف سيفتح لها الطريق بفك قيد الفقر عنها !! لو تركت الأزمة هكذا تتراكم لابد أن يصحو المجتمع يومـاً وقد فضت بكـارة إحداهن بغير حقها !! مجرد طـرح الإفتراض هكذا ترتعد له القلـوب المؤمنة في المجتمع المحافظ.

تلك المحاولة التي تمت بعقد قران هذا العـدد من الشبـاب في مجلس واحد كـانت فيهـا معني تحديد إتجـاه الحـل أو الخطوة الأولي في إتجاه الحـلول المطلوبة وكـانت فيها أيضـاً معنى الحل الرمزي لمشكلة متداخلة ومسـتـعـصـيـة . النـقـلـة فـي هـذه المحـاولـة قـفـزة لـهـا

مابعدها ، وهو ببساطة كسر (الكبرياء الزائف) وهو موقف نفسي غير منتج . وهو أيضاً إحدى تداعيات الأزمة في الإنسان . أي هي بمعنى آخر الخلاصة النهائية للمشكلة .. فالكبرياء محارة يختبيء فيها الإنسان أحياناً وبذلك يمكن أن تتقي مدخلاً خطراً للإباحية وربما في هذا معنى الآية الكريمة «.. لاتكرهوا فتياتكم علي البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ..»

وهذا الكبرياء المهلك هو سبب الإسراف في أفراح الفقراء ، كما هو أيضاً سبب المبالغة في إبداء الفرح لدي الموسرين .. إذن المشكلة ليست إقتصادية فقط وإنما هي إقتصادية أخلاقية متعددة الجنواب ، أو بمعنى أنها مشكلة حضارية . ولصدمة التهجير دور كبير في إستفحالها .

في داخل مقطع زمني لايتجاوز الأربعين عاماً نستطيع أن نفرز ثلاثة أشكال من الأعراس في مجملها يمتد النوع الأول من ١٩٦٤ - ١٩٧٩م أثناء هذه الفترة .. أوجاع الإنسان الروحية كانت تنحصر في صدمة التهجير أما الفقر لم يكن قد كشف عن نفسه بعد .

أما النوع الثاني من الأعراس يمتد في الفترة مابين ٧٩ - ١٩٨٩م وهو أعراس «أغنيات الترله» وقد كانت تلك الأغنيات منتشرة بكثافة في تلك الفترة ولا أدرى سبباً لانتشارها سوي ذلك الدافع الصوفي الذي يبعثه الفقر في الانسان ، وربما كان ذلك واضحاً في معنى المفردات المشاعة آنذاك والموسيقي الراقصة والتي كانت أحياناً تكفى لوحدها لإقامة حفل .

عند النوع الثالث من الأعراس كان الفقر قد بلغ حجماً مخيفاً وقد سميناها (أعراس الضحي) لأنها كانت تقام وقت الضحي تخفيفاً للتكلفة . ويمتد هذا النوع من الأفراح من ٨٩ - ١٩٩٩م

أعراس صدمة الهجرة «٦٤ - ١٩٧٩م» :

في أعراس هذه الحقبة لم تكن هناك مشاكل إقتصادية بالمرة فقد كانت الوجبات



الثلاث تخرج علي الناس في يومين متتاليين (الحنة والدخلة) ورغم ذلك كان الكبرياء المهلك سيد الموقف .. ولكنه كان يعبر عن نفسه من خلال طقوس الفرح وربما أدي ذلك إلي حشد بنات القبيلة في صفوف الرقص ، وتخصيص ميزانية للخمور البلدية تدار بطريقة ما عن طريق أصحاب العريس . إنتشار ظاهرة الرقص بلغت درجة من العمق بحيث أنها كادت إن تلقي في روع المجتمع مفهوم جديد للعريس أخو البنات .. فقد كان قديماً يعنى من يقوم بحمايتهن أما الآن مع إتساع دائرة إنهيار القيم أصبح يعنى ذلك الذي يستمد قيمته من جمالهن وهن في صفوف الحفل .. أو في أضعف الأحوال كانت تتحدد قيمته من كثرة النساء في قبيلته .. أما أصحاب الدماء الحارة من الرجال أو أولئك الذين عرفوا بالغيرة علي النساء ، فقد كان جهدهم ينصب في تنظيم (الرقص) وهي محاولة يائسة في الفصل بين الجنسين خوفاً من آثار إحتراب الشهوات .. والغريب هنا تجد مغالطة لطبيعة الفتنة أو طبائع الشباب ، لأن منظم الرقص كان كمن يقول لهم «تفرج ولاتقترب .. أشرب ولاتسكر» وهنا يجب أن نسجل أن تيار الغيرة أحياناً كان يشتد حتى يبلغ الأمر حد الاتفاق علي منع الرقص ، ولكن لأن الظواهر دائماً محكومة بمنطلقاتها كانت تعود المشكلة عقب فترة هدوء .

طبقات السكاري :

يهمنا هنا ثلاثة أنواع من السكاري ، سنذكرهم لأسباب . منها خطورة دورهم في توجيه القيم فهم كادوا أن يكونوا رموزاً «للحيوية والثقافة والرجولة» ولأنهم أيضاً أكثر النماذج المعبرة لأمراض المجتمع ، وفوق هذا وذاك هم آباء أغلب شباب هذه الايام .

أول الأنواع كان (المنعنش) وهو يمثل ذلك النوع الذي كان يعالج بالخمر مشكلة تربوية سببها خلل في التوازن العاطفي لسيطرة أبوة عنيفة أو لغيابها أو لسيطرة الأم ، وربما راح ضحية للتعارك الحاد بين مظاهر الخجل ..!! وهذا النوع لايريد شيئاً آخر سوي الانخراط في الرقص ولايمهمه بعد ذلك علي أي هيئة يبدو ولا علي أي إيقاع ينثني جسده .

النوع الثاني في طبقة السكاري وهو أخطرهم علي الإطلاق فقد تجده في أي مكان

في الحفل ولكن مكانه المفضل في الظلام خلف الصفوف .. إلي حيث لايصل شعاع قوانيس الشاشات (الرتينة) وهم أقرب السكاري إلي قلوب الأطفال وفصولهم لأنهم يفرغون من خلالهم عواطفهم السالبة ، وربما من بين هؤلاء فتوات الزفة .. وربما ضحايا فجوة واضحة بين الواقع والطموح .. وعلي يد مثل هؤلاء كانت تتعطل الحفلات . وهناك نوع من السكاري كان لا دور له لأنه بمجرد ان ينتهي من مراسيم الشراب ينام . فتجدهم حول حلبات الرقص كالجثث التي انقشعت عنها معركة طاحنة . وصنف آخر كان يجالس السكاري «والمرء مع من أحب» بل ويشارك أحياناً في إدارة «الكباية» دون أن يشارك بشراب فعلي !! ويبدو أن هؤلاء يمثلون خامات تربوية ولكنها دون ضمانات تقوي .. فمصدر القيم لديهم ينتهي بسلطة أبوة غاشمة ومن جهة أخري مثل هذا النمت (الرخو) من الشخصية كان سبباً في فشل مشاريع الإصلاح التي كانت تطل برأسها من وقت لأخر ، فكل ما أشتدت أوجاع الروح بسبب الرقص والخمر والإسراف كان المجتمع يعقد الاتفاقات التي كانت أحياناً تصل إلي حد مقاطعة بعض الأسر ولكنها لم تكن تصمد أمام إصرار بعض الأسر الضعيفة

ومن عجائب مأزق الآباء أنهم كانوا لايرون في التخفي عقوقاً ، فقد كان لايهمه مثلاً أن « يدخن » أبناً له طالما كان يفعل ذلك في الخفاء ، لهذا إضطروا للإستسلام فيما بعد عندما جمعتهم وأبناءهم مجالس (الشيشة) وموائد لعب الورق .. كانت هذه الصورة المعبرة للكآبة هي السائدة في منتديات الثمانينيات .. أما وقد اتسعت دائرة إنهيار القيم فتعالوا نقف علي أعراس ما بعد ١٩٧٩م .

أفراح الترله : «٧٩ - ١٩٨٩م» :

الترلة مقطورة زراعية كانت تؤجر لتقام عليها الحفل كمسرح ، أما الأفراح ، مقصود بها أعراس الثمانينيات ، الفرق بينها والأفراح التي قبلها ، أن الأزمة الاقتصادية التي كانت قد إجتاحت السودان كانت قد بدأت تلقي بظلها علي المجتمع .. فمع الأزمة الأخلاقية التي كانت قد ترسخت بالخمر والرقص جاءت أزمة الفقر



وذلك نتيجة لعدة أسباب أهمها تدهور المشروع الزراعي الذي ينتظر الآن الإغلاق أو الخصخصة ، بعد أن تفشى فيه الفقر والملاريا والمسكيت ، وسبب آخر هو إنحسار طبقة الأفندية نتيجة للتضخم الاقتصادي ، وهناك في الطرف الآخر كان يحدث التآكل في النظام الاجتماعي لظهور طبقة المغتربين وهم مراكز إستهلاكية مؤقتة . وظهور طبقة أخري من بين المزارعين الشباب أفرزتهم سياسات البنك الدولي وكل هؤلاء وأولئك كانت لهم تأثيراتهم المختلفة .

أما الحالة الذهنية في حقبة الثمانينات فقد كانت مضطربة لتراكم التغيرات السريعة .. أضواء هنا وظلمات هناك ، حيرة الإنسان إستعصت حتى علي كؤوس الخمر والتي أصبحت مع الفقر صعبة المنال . كل شيء أصبح كالأوراق النقدية التي قفزت من القرش للجنيه للمائة للألف بل للمليون . وسط هذه الأجواء الخانقة للروح كان سهلاً علي الجيتار أن تحرك الاعماق - وهي آلة موسيقية جلبتها مسيرة التحديث التي لاتتوقف لفقر أحد أو لغناهم - بذلك تعمقت تجربة الفرح وطقوسه وانفتحت أبواب الفتنة علي الشباب واتسعت .. انتشرت حفلات الجيتار والأضواء وانسحب إيقاع «الطار» إلي ركن مظلم قصي .. وبدأ التساؤل الوجل .. وأحياناً الهروب من (الوضوح المخيف) .. أين سينتهي هذا السيل الجارف من الفتنة بعد أن تنطفيء الأنوار ؟ القصة بلغة أخرى ، أضواء الحفلات .. وبقايا الخمور.. وصفوف البنات وهن «بالطبع مشتعلات التطلع والطموح» والوتر المكهرب .. عندما تتجمع هذه العناصر في أوعية الرقص تنطلق طاقات لايملك لها صرفاً ذلك الشاب المقيد في جهله والمحبوس في فقره .

وللجيتار قدرات تستطيع بها أن تجمع العجوز المتصابي والارملة والشاب والصبي في مجلس واحد ، فلو استطاعت ان توقظ الفتنة في الشاب فهي أيضاً تستطيع أن تطلق أشواقاً تاريخية في أرملة تريد أن تفرح بولدها وقد حدث أن كبار السن كانوا يشاركون بالحضور في أفراح الترله بل وفيهم من كان يصر علي إقامة تلك الحفلات .

وربما لخطورة تلك الألحان علي أولئك الذين لم تنضج عواطفهم ، حدد الفقه الصوفي عملية الاستماع بقاعدة تقول :(ان اللحن وارد حق يزعج القلوب إلي الحق فمن إستمع اليه بحق تحقق ، من استمع إليه بنفس تزندق) . والزندقة هنا إذا خففناها يمكن ان تعني التساهل مع ما كان محرماً من القيم . هي معني آخر (قابلية) الإنسان للتدهور الخلقي .. وكانت قد بدأت تظهر علامتها في مجتمع كان لايعرف التساهل !! لولا ظهور الأمل في نهاية النفق ، وذلك عندما انعقد الاجماع علي تعطيل هذه الطقوس البالية للفرح

بعد انعقاد الاجماع لوقف طقوس الحفلات والإسراف في الأفراح ظهرت زيجات طاهرة من الأعراس وهي أعراس الحقبة الأخيرة . وصلنا هنا عند محطة أعراس الضحي وهي أعراس في الفترة ما بين (١٩٨٩ - ١٩٩٩م) . عند أفراح التسعينات هذه كان قد استحكم الفقر تماماً وانسحب ظله الكئيب علي كل شيء ويكفي أن تقرأ في واجهات المنازل الشاحبة الطلاء الممزقة الأوصال .. ركاماً من (البلكات) الهرمة في ثناياها الورق والاسمنت المغشوش كبقايا (التمباك) بين أسنان صبي من القرية . ولم تلقح تلك المحاولات اليائسة للتجميل في بعض المنازل ولكن سبحان من أخرج رطب النخيل من جذوعها القبيحة ومن إذا أراد بك خيراً غير أحوالك كرهاً إن لم تغيرها طوعاً . فقد تفتقت أذهان الأخيار هنا إلي حل ذكي وهو إجراء عقد الزواج عقب وجبة (الفطور) وفيه اختصار للتكلفة وسد للذرائع .. وجزا الله الشدائد كل خير فقد قادت المجتمع هنا الي الصواب ، ولكن رغم ذلك ان للمشكلة بقية في جوف الجذور وهي توفير القناعة الإيمانية . وحتي ذلك الحين لانري ترياقا يفسد السم أنجع من هذا الزواج الجماعي .

نوبيا (بت الملــكية)

نوبيا إحدي بنات مريم (المشاطه) تلك المرأة المسنة والمتعددة المواهب . كانت فوق لقبها تضفر الأطباق وتحيك الجرجار وتزرع في الأملاك . إستهلكت عمرها في محاربة الظروف بعد أن مات عنها زوجها في السنوات الأولي للهجرة .. ورغم هذا حققت مبتغاها بتربية البنات وبزواجهن وما بقيت لها سوي نوبيا البنت الصغيرة الرابعة والتي كانت تلازمها في زراعة الأملاك (الملكية) بعد أن تركت المدرسة .

كانت نوبيا معجبة بأختها الكبيرة التي كانت تسافر إلي السعودية مع زوجها بين الحين والآخر وكانت تغرقها بالهدايا التي كانت أحياناً تحتار في كيف تستعملها وعندما كانت تسأل أختها عنها تجدها هي نفسها لاتعرف شيئاً عن هذه الأشياء الكثيرة سوي أنها إشترتها من أسواق السعودية .

العبث بهذه الأشياء المجهولة والمفرحة أيقظ في نفسها نزعة التطلع لكل جديد وخاصة في أزياء النساء (ثوب أبو قجيجة) للنساء الكبيرات منتصف العمر ، وموضة «الماكسي والخطوة» الأولي كانت كاسية عارية ، أما الخطوة فقد كانت فوق الركبة .. وقد أحبت نوبيا الأخيرة لأنها كانت سعيدة بأنظار «الخضرجية» ترمقها وهي تعبر جدول (أبو عشرين) فقد كانوا رغم سنها الصغير يطاردونها أينما حلت وسط الحقول. رغم سعادتها بملاحقة العمال لها إلاّ أنها كانت أحياناً تتأذي من أنفاس إدريس الخضرجى الذي كان يتعمد ملامستها وهو يفرغ ما في ثيابه في (قفتها) حتي أن إدريس إرتبط في ذاكرتها شرطياً بروائح اللحم النئ والبصل وروائح العرق وبواقي عجين (الفيتريته) وروائح بعض مبيدات الرش .

***

مكان (مكنوس) محاط بأشجار المسكيت كان معداً في الأصل لطماطم الصلصة ولكنه كان يستعمل أحياناً لاستضافة النساء فيه بحجة الخوف علي الخضار من دم

البيض أما خلف هذه الأشجار الكثيفة من السكيت كان هناك من العمال من [illegible]

ليتفرج على عزوات إدريس السابقة وخاصة وسط الطفوليات ليتسنوا كيف [illegible]

اخترق سياج العصبية التي كانت تحول دون الزواج أو الاقتراب منهن [illegible]

كانت نوبيا غير آبهة ولا تدري لماذا كان يطاردها إدريس متوارياً حتى [illegible]

العرسي ، ولكنها كانت لا تنسى تلك اللحظة من العمال التي كانت تشق في أعماق [illegible]

وهي سكرة بين سواعد إدريس المشتة بقايا عجين (الشي كريس) .

العاسيس مبكرة لم يقضيها حنان أبوة من عم أو خال .. في سبيل هذه النشوة [illegible]

كانت تحسسها بقوة عاتية ، كانت تستسلم لإدريس الذي لم يكن بعد ينوي [illegible]

تنضج بعد .

تعودت أن تحتمل الطاردات مع مرور الزمن إذا تغافل إدريس عنها بعيداً [illegible]

وكانت في ذلك غير آبهة بأكوال سيقان البالية التي ما كانت تحس بها إلا [illegible]

تعود وتلاحس سيقانها العارية .

تقدم العمر بمريم الشاطة حتى عجزت عن مزاولة حرفتها القديمة في الزراعة [illegible]

ولزمت الفراش . وساهم إدريس التي اتسعت أملاكه المؤجرة ليضم أرض العجوز [illegible]

لأملاكه . ومنذ أن تنازلت العجوز له بالإيجار ظل يزورهم في المنزل حاملاً الخضار [illegible]

والبصل وأجرة الأرض وأحياناً كان كريماً .. يدفع مقدماً وذلك في السنوات الأخيرة [illegible]

التي بدأت تجف فيها مصادر الإعراب والتي كانت من أهم المصادر في تغذية معدة [illegible]

الأسرة . وعلى غير موعد زارتهم يوماً امرأة من غرب السودان وهي تجرجر على [illegible]

طفلين وعلى صدرها تحمل الآخر . بعد أن رحبوا بها بدأت تتمتم بكلمات لم تستطع [illegible]

أن تفهمها العجوز . وعندما ترجموا لها علمت أنها كانت تتوسل أن يتركوا لها زوجها [illegible]

. أصابها الذهول من أمر لم يكن على بالها فقد علمت من الجيران أن مجالس [illegible]

القطيعة كانت تتحدث عن اهتمام إدريس بنوبيا وعن حكاوي إدريس في مجالسه [illegible]

الخاصة عنها .

اجتمع مجموعة من شباب النادي المتحمس وقرروا تأديب إدريس ، ثم بعد أن هدأ روعهم من كثرة القصص التي بدأت تظهر عن أخريات ، قرروا أن يحذروه ولكن حتى ذلك لم يفعله أحد منهم لأن إدريس كان قد أصبح حين ذاك مركز قوة وكان معروفاً أيضاً بأنه كان يدفع بسخاء للسواقين وأصحاب اللواري وهم يمثلون قطاعاً كبيراً بين هؤلاء .

منعوا نوبيا من الخروج حتى أخذتها أختها الصغرى بعد وفاة مريم الشاطة .. وسكنت الكلاكلات وأقامت هناك زمناً ولكن البيت هناك لم يستطع أن يتحمل إلا عبء غريزة الأنثى لأنها قد تقدم بها السن وتقشعت أنوثتها. التوهج الأنوثي دفعها لدائرة اهتمام الآخرين في مجتمع الخرطوم فقد كانت تلاحقها أنظار وكاب الدفارات من بين فروج (الشمعين) وربما كانت سعيدة بها لأنها كانت تذكرها بفضول عمال الخضار أيام الطفولة .. اهتمام الناس ودلالها القديم مع وجود الفقر والقهر أيقظت فيها بصيرة حادة للشر حتى أن أهلها حاروا في أمرها وتطلعوا للتخلص منها فقد أكسبتهم عداوات جديدة مع الجيران الذين ما تعودوا سماع أصوات العراك في بيت أختها . وعندما تقدم لها أحد أبناء القرية من الذين هاجروا معها لضواحي الخرطوم تحمس زوج أختها للتخلص منها ولكنها رفضت وهددت بالهرب . وكانت قد اكتسبت خبرة من تجوالها في مكاتب سوق الخرطوم .

وربما كنت تصادفها في عز الهجير واقفة بعيدة عن الناس وقد استحال الكريم في وجهها إلى زيوت لامعة بدأت تسيل بين خطوط أخاديد تجاعيد مبكرة بدأت تظهر على وجهها .. ضاعت بواقي الجمال الطبيعي تحت وطأة حرارة الشمس .. بيضاء الوجه سوداء الشفتين والكفين . ككف الصيد .

لم يستطع زوج أختها أن يواصل إرغامها ولا أن يطردها ، ولا حتى أن يبحث في سر ثرائها المفاجيء ، لأنه كان في الأصل ملاحقاً بديون البنك الزراعي ، لهذا عندما جاء شيخ يكبرها بسنوات كثيرة يطلب يدها لم يستطع أن يقول شيئاً لأنه علم بأنه

ذلك الشيخ الذي كان الهمس يدور حوله وبأنه كان يعلمها قيادة السيارة ولم يكن بحاجة الي مشاورتها . فقد سمعها من قبل تقول بأنه منذ أن فتحوا شهيتهم الاستهلاكية بهدايا المغتربين انفتحت امامها آفاق لايستطيع أن يملأها عرسان الزواج الجماعي .. ولو ملأها عجوز طاعن في السن لقبلت به .

انتقلت الي زوجها الشيخ وانقطعت اخبارها زمناً يقارب العقد من السنين . أثناء لم يكن يسمع عنها إلا ما كان يتناقله أهل زوجها عن نار الفتن التي أوقدتها هناك

فصلت الشيخ عن أهله حتى إضطر الرجل ليرحل بعيداً عن ولديه الذين كانا يشاركهما السكن مع زوجتيهما . نتيجة لذلك تقلصت علاقات الشيخ الاجتماعية حتى ظل وحده لا يزوره أحد . وحدث أن مرض الشيخ بمرض (غدة البروستات) واقتصر زواره علي ولديه وأهل زوجاتهم . وأثناء مرضه بدأ يستجيب لنصائح أهله الذين ظلوا منذ زمن يلحون عليه في العودة إلي الاهتمام بالناس . شفي الشيخ بعد أن اجري تلك العملية ولكن بدأت تظهر عليه نبرات حادة لم تألفها نوبيا من قبل في علاقتها بالشيخ . فهي بأنوثتها المتوهجة التي كانت تتألق لحظات البكاء كانت تمرر مكرها علي الشيخ ولكنها الآن لم تجد استجابة من الشيخ . رغم ذلك نجحت في أن تحافظ بحرارة البكاء علي ما تبقي لها ، حتي جاءت أنباء وفاة نور جاد الله الذي كان يعمل حمالاً في رصيف الميناء عندما هوت فوق رأسه حمولة إحدي الرافعات . كان هذا الشاب الفقير أثيراً لدي الشيخ وهنا تذكرت نوبيا اعترافات الشيخ لها في وحدتهماكيف انه كان معجباً بثريا تلك الفتاة اليتيمة وكيف انه كان يتمني زواجها رغم فارق السن وذلك قبل ان يختار نوبيا ، وكيف انه بعد ذلك زوجها لنور تحت رعايته وبنفقته .

كانت هذه الهواجس تراود نوبيا وهي منهمكة في اعمالها المنزلية فاقدة الوعي . ومن بين الاحاسيس المضطربة تلك ، تحسرها علي جمالها الغابر واعجاب الشيخ بها في ايام زواجها الاولي . ولكن احاديثه عن ثريا تلك الفتاة التي أثارت غيرتها داهمت خيالها بوضوح ، فقد تخيلها وهي تخرج من العدة أكثر جمالاً . أثناء تلك الهواجس

كانت قد وصلت الي دولاب الملابس القديمة لترتب محتوياته . ولكن طرقات بائع اللبن العنيفة ايقظتها فقد قطعت عملها وعادت بعد ذلك ببعض الوعي تواصل فيما كانت منهمكة فيه . أثناءها وقع بصرها بين ملابسها القديمة علي كيس به بقية من مسحوق صبغة الشعر كانت تحتفظ بها في أيامها الخوالي مدت يدها لتحملها . أثناءها جاءها صوت الشيخ بحدة يلعنها لأنها تأخرت في إعداد كوب اللبن لأحد أحفاده الصغار الذي كان يزوره مع والده . لمحة من سعادة لاتدري كنهها غمرت اعماقها علي أثرها جمعت في علاقة منطقة غيظها مما سمعت وما كان يجول في خاطرها وخيالها وما تحمله في يدها وعلي إثرها إستقرت في ذهنها فكرة سوداء جعلتها تترك عملها وتحدق في جدار الغرفة مفتحة العين ساهمة . قطعت شرودها واستيقظت بإرادة لتتخلص مما كان يراود فكرها ورغم ذلك انهمكت مرة أخري بعصبية ترتب أشياءها بعد أن ألقت بكيس الصبغة في ركن معتم من الدولاب .

وبينما هي تقطع الحجرة جيئة وذهابا اخترق صوت الشيخ الضجر أذنيها من الصالة المجاورة استطاعت ان تستبين منه قوله (عليك الله : البربرية المجنوية .. عربي مابتعرف) وعلي أثر صوت الشيخ انفجر احد ابنائه ضاحكاً مسروراً وهو يودع والده علي الباب . ارتعدت نوبيا لهذه الاصوات حتي القت بنفسها علي السرير

الكراهية التي ترمقها في عيون الناس .. والغيرة التي أصبحت تنخر أحشاءها والفقر الذي أصبح أمامها إذا خرجت من حياة الشيخ الذي أصبح الآن ضجراً .. كل هذا جعل مستقبل حياتها وسعادتها في موت الشيخ . علي إثرها قامت نشطة مرة أخرى وقد عزمت علي مهمة بها تقطع دابر هذه الهواجس ، وألقت بأنامل مرتجفة كل ما كان باقياً في كيس الصبغة في فنجان القهوة . وفي حركة عصبية لفت ثوبها وهي تصرخ في وجه الخادم ليحمل الفنجان إلي الشيخ ، وهي خارجة سمعت صوت الشيخ يلعنها . وفي اندفاعها وجدت نفسها خارج المنزل تشير الي إحدى عربات الأجرة دون أن تدرى الجهة التى ستذهب اليها .جلست علي المقعد الامامى دون أن تتكلم ، قطع



السائق ذو الشوارب إلحاحه في السؤال عن الجهة التي تقصدها . أفاقت علي صوت المزوح برنة إبتسامة صفراء يسألها «تتعشى شنو؟» أدركت علي الفور مقصده وتذكرت ذلك اليوم الأسود الذي فيه كاد الشيخ أن يطردها عندما أشتم عليها رائحة تبغ . ولما ذكرته وهي تبكى بألم الأسنان الذي كانت تعاني منه رضى عنها .

نسيت السائق وسؤاله عندما تذكرت فعلتها التي هربت منها وتخيلت صورة الشيخ بعد إحتساء السم وهو يتململ في فراشه من أثر النيران التي تلهب دماءه بهبوط الكليتين . وتخيلته وهو غارق في محتويات بطنه دون أن يسعفه أحد .

إستيقظت مذعورة من حلمها المزعج بتوقف محركات السيارة في إحدي الأزقة شبه المعتمة وقبل أن تستبين الصورة التي تتحرك أمامها كالأشباح وجدت نفسها بين زراعي السائق . ورغم أنفاسه الحارة الملطخة ببقايا التمباك وروائح شبيهة بأحواض المجاري .. أعتراها إحساس بالأمن فقد تذكرت إدريس الخضرجي وهو يطاردها في بطن جداول محاطة بسيقان العدسى وأشجار المسكيت .. ولكنها تذكرت اللتو زوجها الذي ربما قد تجرع الصبغة .

هنا إستيقظت صارخة في وجهه . وأخذت تعدو كالمجنونة تجر بقايا (ثوبها) علي الأرض باحثة عن مخرج للطريق العام .. وتذكرت بأنها يجب أن تسرع قبل أن يموت الشيخ في غيابها وتلاحقها الظنون .

قبل أن تستقر الحافلة أمام باب منزلها ، أفاقت مذعورة وعيون الركاب ترقبها في فضول لأنها لم تستطيع أن تخفى دهشتها عندما رأت الشيخ أمام منزله يبعث بمواسير المجاري .

نزلت علي أطراف أصابعها ومشت في هدوء ولعنات الشيخ تطاردها . لعنات لم تكن مفهومة الأسباب ولكنها إخترقت أذنها في نغمات أشبه بالغناء .. دلفت إلى الداخل مسرعة ووجدت الخادم يعد فنجان جديد من القهوة وفي لهجة مرتبكة حكي لها الخادم الخائف دائماً من غضبها أن الشيخ هو الذي طلب منه إعداد ذلك الكوب

الجديد وقد جاء قبلها بدقائق . وكادت أن تسأله عن أين كان كل هذه المدة . ولكنها خافت أن ينكشف أمرها . ولكن الخادم بسذاجته المعهودة بادرها بأنه كان قد أستدعاه جاره «البشاكل المره» ورغم تلك السذاجة المعهودة علي وجه الخادم كانت أثار الدهشة كبيرة عليه وهو يلاحظ برودها ولقد خبرها منفعلة لاتفة الأسباب . وكانت دهشة الخادم أشد عندما لمحها وهي تتهالك علي السرير وترمي بنفسها عليه .

يبدو أن إبن الشيخ أنقذ والده دون أن يدري فقد إنتهز خروج زوجة أبيه ليؤجج العداوة التي لمسها في لهجة والده تجاهها ، ظل يحادث والده كل هذه الأوقات حتي إستدعاه جاره .. وقد علمت نوبيا فيما بعد انهم حينما لمسوا فيه ميولاً للإستماع إليهم أقنعوه بأنه قد كبر سنه ولابد أن يعود لزوجته الأولي التي شاركته شبابه أما هذه اللعوبة لن تطيق شيخوخته .

لم تهتم نوبيا لكل هذا لانهم عندما نجحوا في التخلص منها بتطليقها من والدهم أعطوها من المال ما يكفي لإشباع طموحها .. عادت نوبيا إلي القرية بعد تلك السنوات المليئة بالتجارب . وقد هدأت فيها طموحات الشباب ولكنها كانت تحمل بين جنباتها أشواقاً قديمة لم تجد صعوبة في تحقيقها ، لأنها وجدت الفقر قد أصاب كل شيء في قريتها .. كان في مقدورها أن تشتري كل شيء . والذي لفت نظرها أن المقامات القديمة في قريتها قد تضاءلت أمام وطأة الفقر وربما لاحظت انكسار الكبرياء في تلك الأسر التي كانت تخدمها والدتها (مريم المشاطة) فقد جاءها من زعماء تلك الأسر من يطلب منها تشغيل أحد أبنائه في أحد اللواري التي إشترتها .

والذي راق لها كثيراً أن المجتمع أصبح أكثر تسامحاًمع قضايا المرأة وقد بدأ يتسع التسامح من نقطة زواج الغريب .. وربما تتسع دائرة الحرية في أشياء أخرى كحق شراء منازل القرية ، لهذا لم تجد صعوبة في تنزيل أشواقها القديمة وقد وجدت طابوراً من الشباب لايمانعون الزواج منها ولكنهم كانوا بالطبع من نوع (للتلقيح فقط) وربما لو اختارت من بينهم من كان في سنها لاستقام الامر ولكنها اختارت من بينهم



من يصغرها بسنوات ، وهو أحد أبناء تلك المرأة التي كانت في عزها القديم يعرفونها برنين أساورها . وقد كانت في زياراتها الخاطفة تزورهم من الخرطوم ، ونوبيا تلاحظ أن أهلها كانوا يتخاطفون مصاحبتها . إمعاناً في الإنتقام منها كانت تذل ولدها أمامها وعندما لاموها ذكرت بأنه قد بلغها بأنها كانت في مجالسها الخاصة تندب حظها من زمان «بت المشاطه» . كان طبيعياً أن يدب السأم عليها لأنها أدركت أن طموحها أعمق من تحقيق تلك الثروات ولكنها كانت لا تدري ما تفعل .. حتي جاءها ذلك اليوم من يريد شراء أحد اللواري التي قررت بيعها لخسائرها المتلاحقة . وعند توقيع العقد حدث ما أيقظ في وجدانها أبعاد ظلت مطوية لسنوات طويلة ، عرفته رغم الشيب والتجاعيد .. لم تتمالك نفسها وقد تعودت ان تفعل ماتشاء .. عانقته وسط دهشة الحضور .. انه إدريس الخضرجي.. كان العجوز رغم ذلك يدفعها بعيداً بكفيه وهي تعانقه .. عرفت نوبيا أسباب هذا الجفاء فيما بعد وهما يتعاتبان في خلوة . ذكر لها أن هؤلاء الشباب الذين حضروا اللقاء فيهم ثلاثة من أبنائه وقد جاءوا ليشتروا بأموال أمهم التي باعت نصيبها من أبقار والدها .. تكررت تلك اللقاءات بإدريس العجوز بحجة صفقات وهمية ما كان إدريس يملك لها مالاً . تناقلوا أخبارها في مجالس القطيعة وأعادوا ما كان يقال من قبل عن مغامرات إدريس القديمة عندما كان في شبابه يزرع في املاك القرية .. وعندما كثر الكلام عن لقاءاتهم المتعددة حاول بعض أقرباء الزوج الشاب الصغير أن يطالبوه علنا بطلاقها إلا أنهم لم يجدوا أذناً صاغية فقد إنتشر خبر أفضالها عندما سددت ديون البنك الزراعي لأفراد من تلك الأسر .

طاقة المعارضة هذه والململة من سلوك نوبيا كانت تأخذ أحياناً شكل مواضيع عامة وخاصة بعد ظهور ظاهرة «التدين السياسى» كالمطالبة بالفصل بين الجنسين وملاحقة اللقاءات الخاصة ، أو أحياناً علي شكل المطالبة بعدم بيع المنازل واستئجار الأرض للغرباء ، ولكن لعدم واقعية هذه المطالب كانت تسجل في وجدان المجتمع باعتبارها

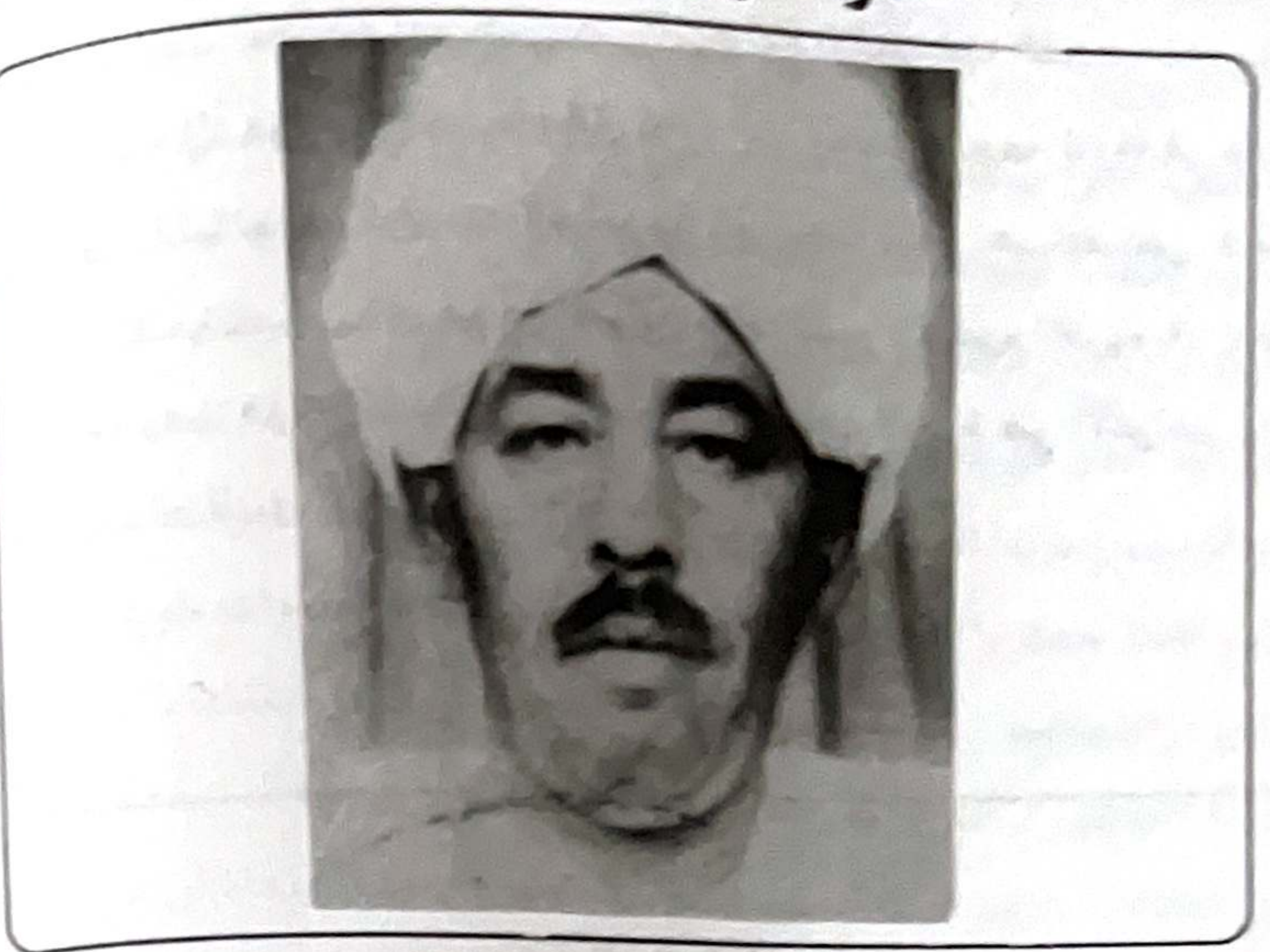
محاولات (الخيرين .. أخوان البنات) وكان كلما قوي عود هؤلاء «الأبطال» بالمجاهرة بالإصلاح أشتد حب المجتمع لهم حتي جاء اليوم الذي وقعت فيه الفجعية فلم يجد البوليس من يتهمه إلاّ هؤلاء في جريمة مقتل نوبيا التي وجدت مذبوحة غارقة في دمها وفي أحشائها بقايا جنين . وقدمت للمشرحة كأول جثة تدفن بعد الفحص. فجع المجتمع في أبنائه الخيرين . ورغم أن القرائن كانت تشير (الكلتوم الغرباوية) زوجة إدريس القديمة ذهب هؤلاء الشباب الي السجون وأصبحت الغيرة علي الأعراض ريبة وفاز بالسلامة ذلك الديوس الذي لا يأبه ما بأهله

كيف نغير الواقع ؟!

(يمكن فهم الواقع وكيفية تغييره عن طريق العوامل المؤثرة والمتأثرة بقانون حركة الانسان) .



محمود فتول (محلات كلمة واحدة)



سنبوح لكم بقصته . هو أحد تجار سوق طفا الجديدة .. مضي من بيننا كحلم اجتاز بؤس الوجود ، ترك كعود الصندل أريجه بعد أن احترق .. أصبحت في تجربته معان ستظل تطفو مع تيار التاريخ ليتعلق بها من يشاء من الأجيال .

عاش وامتهن التجارة في زمن أصبحت فيه التجارة كمهنة في دائرة الشبهة .. ظل في موقعه والناس من حوله قد اغتربت عن جذورها وبقي تاجراً يربح .. وربحه «شمومة» وحوله تجار الفرصة والصدفة يصعدون ويهبطون ، يقفزون بقناطير الذهب من بين فجوات المجتمع الفقير ويخطفون «اللقمة» من أفواه الجياع .

خرج إلي الأسواق في حواري مصر صبياً وبقايا مرارة اليتم عالقة في نفسه ، لهذا شرب من فنون التجارة دون أن يتلطخ بشرورها وكبائرها .. عندما أعطت الأرض في خشم القرية ، خيرات السنوات الأولي . طابت له التجارة فرضى بالقليل .. بدأ مفترشاً للأرض وكانت تحرسه بقية من تراث (آل لقيه) .

تدرج متنداً (بنفس) الحلال الطويل حتي بلغ تجارة الرفوف والكناتين ، ثم تجارة

الاقمشة .. عند هذه المحطة كان التضخم الاقتصادي قد اطل بوجهه الكئيب .. وبدأ الفقر يعشعش هنا وهناك وكان عليه أن يختار بين أمرين لاثالث لهما . إما أن يقفز إلي عالم القصور المشيدة أو إلي الآبار المعطلة .. لم يستطع أن يختار الأول لانه كان رغم علمه المتواضع ، ورعاً يسأل كثيراً عن (سلفية البنوك) وعن سعر البضاعة التي كانت ترتفع أسعارها وهي بين يديه : هل يبيعها بالسعر الجديد أم بسعرها القديم ؟ وربما تحت وطأة الخسائر كان يتساءل ماله لايتقدم وحثالة القوم يتلاعبون بسلفيات البنوك وأموال التأمينات وعمولات شركات الزيوت .. أقول ذلك لانه أحياناً كان يقدم قدماً في تجارة المحاصيل ويؤخر أخري. ولكنه في نهاية المطاف عندما كانت تستيقظ فيه بصيرة الحلال وحسه التجاري القديم، كان يجد رحيق (القرش) خير له من غصة (المليون).

وهو يغدو ويروح بعربته بين القرية والسوق ، كان يشاهد مشروع حلفا الجديدة علي مشارف الهاوية .. كان يشاهد مياه راكدة وأشجار مسكيت تقطع الطريق وتخنق القنوات، وترعات مكسورة ومستعمرات من (النجيل) تقتل شتلات القمح في المهد وحيوانات مطلقة السراح وزراعة منتكسة فوق الشقوق اليابسة تموت من العطش وعيون غائرة في المزارعين بفعل الملاريا والعربات الفارهة لموظفي المؤسسة الزراعية تجوب الأسواق .. وأبخرة الهجير تخرج من بين الشقوق محدثة مايشبه السراب ... يصل مداخل القرية ويلتفت الي الخلف ليأخذ أجر الترحيل من الركاب فيجد أكثرهم قد تسللوا لواذاً !!

عند شلة (القهوة) كان يصرف قعدته العصرية يلعب أحياناً وأحياناً أخري كان يشارك في المناقشات السياسية ، والاجتماعية ولكنه كان بحس التاجر حذراً فلم يكن من السهل أن تستبين هواه السياسي رغم أنه كان في الصراعات المحلية يشايع هذا أو ذاك

في تلك (القعدة العصرية) التي كانت تنتهي بمغيب الشمس كانت تتجمع هموم



القرية وأخبار المجتمع ، وربما انقطعت لذة الأنس علي صوت طفل يطلب من والده أن يبحث لهم عن (الممرض) لأن فلانا قد أصيب لتوه بالملاريا في المنزل .. ولكن رغم ذلك كانوا لا يعيرونه إلتفاتا لكثرة أخبار الملاريا في نسيج الخبر اليومي

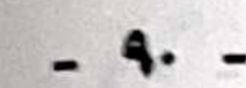
أما الذي كان يثير الخوف في هذا الجيل هو أخبار مرض (السكري) .. كان يخاف صاحبنا منه ويتوجس كثيراً ، كأنما قد هبط عليه فجأة .. وربما طاردت الهموم والمخاوف ومن ذلك اشتدت المتاعب علي مراكز القلق وربما لذلك تضافرت أسباب المرض ليتمكن .

الإنسان هنا علمته السياسة إن يكون له رأي في كل شئ .. لهذا بقليل من التصوف وكثير من الخوف كانوا يتناقشون في أسباب مرض (السكري) وكان لابد من مواجهة النتيجة الطبيعية وهي الخلاصة المترسبة في أذهان الناس بأن السكري هو الموت ! والأمر في حقيقته غير ذلك .. فالسكري في الأصل نظام حياة لأن الطب نفسه لايملك إجابة شافية سوي حلول مستندة لافتراضات كثيرا ماتنجح .. لهذا يجب أن يترك الدواء للطبيب والإيمان للمريض .

الجرعة الإيمانية تلك لم تكن بعيدة عن فقول لهذا كان يهرب إليها ويتخذها مهرباً ينجح أحياناً في ذلك وأحيانا أخري يفشل ولكنه في خلاصة الأمر كان يمكن إن نعده معايشاً للمرض .

في ظروف تراجع دخل الفرد وتدهور المشروع لايمكن أن نعزي أسباب تفشي السكري في مجتمع المهجرين إلي زيادة الوزن ولكن يمكن أن نميل لتفسير الخلل في إفرازات الغدد وخاصة مايقال عن الغدة الكظرية، وذلك لقابلية الإنسان هنا للخوف والقلق وربما القطاع العمري لهذا المرض هم كبار السن . أما عند صغار السن فيبدو أن للملاريا وأدويتها وخاصة (الكينين) الدور الكبير في زيادة السكر في الدم .. وذلك لعمليات إتلاف الكبد التي تتم نتيجة للمرض وأدويته .

أصبح لمرض السكر مذاق خاص في خشم القربة فالقاعدة القديمة التي كانت تقول



بأن السكري مرض المفكرين ورجال الأعمال قد كسرت هنا .. وربما السبب هو تفشي (سكري الكبد) وهو ابن شرعي لمرض الملاريا . وهو بهذا أصبح مرض الفقراء .. وربما هنا قفزة نوعية أخري لتراكم الأزمة في مشروع حلفا الجديدة

هذا الخوف الذي تسرب إلي قلبه بسبب السكري . كان يدفعه أحياناً إذا اشتد .. إلي كل من يحمل في لغته أو ذاكرته بقايا ذكريات في حواري مصر . وعندما كان لايجد إشباعاً لحنينه هذا كان يهرب (العشرة دومينو) ربما كان يستحضر بها فرحاً غائباً .

أما بعد صلاة المغرب فقد كان يقلب المواجع في (دفتر الديون) التي قاربت رأس مال الدكان .. خاصة وقد بدأت جوالات القمح تغيب عن التسويات ، فقد كان تخرج فرادي كحبات المسبحة عند الطوارئ لتغطي عورة المزارع الاقتصادية . ما عدت تلك (الربعات) التي تبقي عقب حسابات محفظة البنوك تكفي وماعادت (عشم القراية والجميل القديم) تجدي مع الفقر الذي بدأ يطرق الأبواب بقوة .

صراع مع هذا ، وخصام مع ذاك .. وحسرات تتراكم كتراكم السكر في الدم . والدهون علي الشرايين . وكلما بدأت ظلال الموت الكثيفة تلوح أمامه كان يتراجع أمام الهموم ويضعف أمام الأوجاع، ولكنه في سنواته الأخيرة كان قد بدأ يطل من كوة التاريخ بزيارات متقطعة لوادي حلفا ليستنشق عبق التاريخ وما كان يجدي ذلك لأن الجسد كان قد ترهل . ومن عجائب الأقدار أنه ذهب يسابق الزمن يقطع الصحراء بجسد منهك إلي تراب وادي حلفا ليدفن هناك



عم أيوب (الكبرياء الحائر)

في جنح الظلام وقد أيقظ الجيتار في أعماقنا فتنة الشباب كنا نجده واقفا كالشبح ينتظر ابنائه وهم عائدون من حفلات المقتربين .

أغنيات الترلة – وهي مقطورة كانت تؤجر كمسرح – لم تكن تهدي الفتنة في أعماقنا. أجواء موسيقية يبثها ذلك الوتر المكهرب بأنينه الحاكي لأنين إنسان تلك القريه .

حمي اللحن ينتزعك من خلف الصفوف إلي وسط الدائرة والتي عندها تتعانق الأهواء .. وسط هذه الأجواء أيضاً كانت تختلط الأضواء بالعطر والغبار .. كل كان يتقيأ معاناته وعذاباته الشخصية ليستحضر فرحاً غائباً .. تجد الإم وقد نسيت لتوها سنوات الفقر وهي غارقة في مذاقات فرح جديدة بأبنها العريس .. صفوف الفتيات تتماوج بين الضوء والظل .. صبيه تركوا المدارس وطرحوا حياءهم في غيبوبة خمر .

نعود من تلك الحفلات سكاري أجواء وأنغام ، وحياري نتساءل وقد اهتزت القيم في أعماقنا .. مافائده العلم وضياع العمر فيه إذا كان صاحبنا بقدراته المتواضعة تلك رب هذه المباهج ؟ !! اليس المال اقرب لقلوب العذاري ؟ .. وفجأة وسط الظلام تقطع صوتنا عبارات عم أيوب القاسية وهو يطاردنا باللعنات .. فتخبو تلك الأجواء التي أيقظتها أجواء الترله ويعتدل الميزان وتعود الثقة في العلم وأهله .. ؟ وعلي عباراته تلك كانت أيضاً تتقطع الأحاديث الخاصه للمراهقين وقد تحلقوا في (الميدان) جماعات هنا وهناك . لا تري في الظلمه إلا بياض جلباب كالطيور المهاجرة في خضم عاصفة سوداء قادمة .

هكذا ودون أذن من أحد استطاع عم أيوب أن ينتزع في الوجدان مقاما ظل مخبوءا في غياهب السنوات مطمورا في تجارب الصبا والشباب.

قله حظه من التعليم لم تمنعه من أن يتزين لغرور العلماء ، من جيل (الاميه العليمة) كان محبا للعلم وأهله يستميت في تعليم خلفه حتي اشتهر بين إدارات



المدارس . إتملي صورته بغبطه وهويدفع بنا للفصول يطارد ابنا له من بيننا .. كنت إذا أردت أن أقنعه بشئ لا ادعه يتخذ موقفا لانه سرعان ماكانت تتصلب قناعته .

رغم انه كان ذو شبكة واسعه من العلاقات كان محبوسا في كبريائه إذا أراد أن يبث ضعفه في اعتراف نادر كان يأصل الكلمات ، ليتخفي خلفها ، فمحارة الكبرياء كانت تلازمه دائماً . لهذا كان يهتدي أحياناً لاوعيه لغوية تروح مثلا يتناقلها الناس وأحيانا كان يداوي جراحه بالسخرية من نفسه والآخرين .

الإنسان في عرفه كان محكوماً بتاريخه والشر في الإنسان مصدره الطين كان عند التنظير قدرياً ، يسخر من الإنسان إذا انفعل بحريته او أحس بنفسه .. والواقع كان مقبولاً لديه بتناقضاته .. لم يكن ظاهر اللين ، وسرعان ما كانت تلك اللمسة من القساوه تذوب عندما كان يقطع الحديث وينحني علي حماره يرتب أشياءه . ثم في لحظات صفاته لايندهش لشئ ولاينفعل لامر وكان لايهمه عواطفك تجاهه

كبريائه تلك لم تكن بعيده عن تلك التي سنحكي عنها في باب (مضارب الحجياب) .. قلنا هنالك بأن صدمة الهجرة أحدثت احتقاناً مكبوتا في الجيل الأول ، يعبر عن نفسه فيهم من خلال الغضب السريع والحساسية المفرطة .

كان لعم أيوب نصيب من هذا ولكنه كان يحد من غلوائه بتبريرات عقليه أو بنوع السخرية التي وصفناها في تجربه داؤد عبد اللطيف .

رغم انه كان يحمل بين جوانحه إحساساً طاغيا بالتفوق حتي وسط بني جنسه إلا انه ذو علاقات وطيدة وصداقات حميمة من أفراد القبائل الأخري وإذا ضاق بهم كان يهرب إلي اعتبارهم قدراً لا مفر منه.

معايير التفوق لديه كانت في العلم والتاريخ، فإذا فاته من لم يستظرفه بتفوق علمي أو مالي كان يشفي غليله منه بتاريخه الشخصي ، لهذا كان يتعامل مع مرءوسيه في المكتب الزراعي بمعاييره الشخصية . ويبدو انهم كانوا قد تعودوا عليه وتركوه كما هو رغم قناعاته تلك التي كانت تستند علي الأيمان بالقدر، كنا لانخطئ فيه علامات

المقاومة الصامتة.

كل وقائع الحياة في خشم القربة لم تكن تعمل في صالحه وخاصة في سنوات الاخيره ، فقد عادت الأرض في خشم القربة لحقيقتها الأولي من خلال تفريخ الاوبئة والأمراض.

وخاصة مرض الملاريا الذي عاني منه الكثير.. وككل أفراد جيله ظل يردم الهوة بين الواقع والطموح بمزيد من الشراهة في التدخين .

ظل بحماره الأبيض يغدو ويروح حتي انطوت بالموت إحدي صفحات المقاومة الصامتة (والكبرياء الحائر) للجيل المخضرم وها نحن نقدمه كنموذج يحمل قسمات جيل الهجرة .

كيف نغيير الواقع ؟!

لكي نسقط (مبررات اليأس والسلبية) لابد أن نؤمن (بأن تغيير الواقع مهما تكن صعبة هو أمر ممكن..) والدليل هنا من الامور البديهية التي تقول بان الاشياء والظواهر (في حركتها من الماضي الي الحاضر) محكومة بقوانين حتمية



الفصل الثاني:

معاول الإغتيال

١. خشم القربة (المستنقع الأغبر) .
٢. المؤسسة الزراعية (أزمة السياسات والإنسان) .
٣. أشجار المسكيت (بشارات الفقر)
٤. بلازموديم ملاريا (طفيل القربة) .
٥. التلوث (سموم فطريات - مبيدات - مياه شرب).
٦. الهروب والآمال (دراسات حالة) .

خشم القربة (المستنقع الأغبر)

أخفض نقطة في أرض البطانة ، تمثل رأس المثلث الذي قاعدته الهضبة الأثيوبية وهي بذلك امتداد طبيعي للمستنقعات الحبشية ولكن تقلبات المناخ جعلتها جافة لم يسكنها إنسان من قبل سوي رحلات رعاة أعالي البطانة التي تتجه شمالاً من الصباغ والصفيا ، وربما مروراً الي الدامر غرباً أو كسلا شرقاً .

كانت هذه المنطقة في عصر الفراعنة مصدراً للحيوانات الإستوائية كالأفيال والزراف . بإقامة المشروع وتغذية الأرض بالمياه عادت لأصولها الأولي وهي الآن تعمل في تدمير الحياة الآدمية والحيوانية من خلال إنتاج عشرات الأنواع من الحشائش والحشرات والطفيليات . والقربة صاحبة الاسم وعاء جلدي قذر يكثر استعماله في المنطقة . وربما التوفيق في انتزاعه كمصطلح للتسمية يجعلنا أن نعتقد أن التسمية لا تاريخ لها ، وربما لا يفهما الا من ينظر اليها من الجو ، ومن عجائب وثائق حكومة عبود عندما سألوا وزير الصحة وهو «حلفاوى» ذكر بأن المنطقة لم تكن مسكونة من قبل لهذا لايجزم بأمر !

وهناك تقرير للجنة توطين أهالي حلفا وهو التقرير الأول بخصوص الحالة الصحية لخشم القربة .. يعترف هذا التقرير بوجود أمراض مثل البلهارسيا والزهري والكلازار والسل ولكنه يقلل من شأن هذه الأمراض بإعتبارها متوقفة علي حالة المواطنين الإجتماعية ومستوي معيشتهم ويفترض التقرير سلفاً بأن الجهات المسئولة ستفي بما هو مطلوب !!

بعد هذه السنوات نستطيع أن نقرأ مدي فداحة هذه الخطيئة التي إرتكبت في حق كل العناصر البشرية التي تسكن الآن هنا وليس فقط جيل المهاجرين من وادي حلفا .. يكفي دليلاً علي عشوائية التخطيط هذه ، أن يظل التساؤل معلقاً هكذا .. هل استطاعت الجهات المسئولة ، السيطرة علي هذه الأوبئة المذكورة والغير متوقعة كالملاريا مثلاً ؟

وهل كان الافتراض صحيحاً .. بأن الجهات المسؤولة تستطيع إصلاح الحالة الإجتماعية والمعيشية بالنسبة للوافدين والمقيمين ..؟ ومن الغريب أن هناك اعتراف ضمني بخلو المنطقة من العنصر البشري وهم كما يصفهم التقرير «قليلون جداً» . لو كان الأمر مرده إلي الجهل بالمعايير العلمية وضعف الإمكانات ، لكان في الامكان أن يعد خطأ جسيماً .. ولكن الإصرار وسوء النية واضحة لأن التقرير عندما يأتي للمناطق التي لم تكن مرغوبة من قبل حكومة عبود كمكان للمهجرين ، كمنطقة الكدرو وشمال الخرطوم وجنوب الخرطوم .. يذكر بوضوح بأنها مناطق موبوءة بالملاريا والبلهارسيا .

وربما الإصرار المسبق لتمرير خيار خشم القربة كملاذ للمهجرين دفع وفد السيد أحمد مجذوب البحاري وزير داخلية عبود عند إعلان خشم القربة بالقوة – والذي زار منطقة وادي حلفا في أكتوبر ١٩٦٠م – للتزوير وقلب الحقائق حينما ادعي بعدم وجود كثافة سكنية في المنطقة ، وأن هذه الحقيقة هي إحدي ميزات خشم القربة . والحقيقة عكس ذلك وقد ذكرها وزير صحة حكومة عبود في إحدي الجلسات عندما سئل عن الحالة الصحية لخشم القربة ولم يكن ذلك خافياً ، لأن النسبة التي قبلت خشم القربة من المهجرين لم يتجاوز الـ ٧٪ حسب نتائج الاستفتاء .

رغم هذا صدر قرار التشريد في تلك الاصقاع الموبوءة والأمر لايحتاج لمعرفة معقدة من عالم أو طبيب ، فسيدنا عمر رضي الله عنه عندما هلك جيش الصحابة بوباء الطاعون في منطقة الشام أمر عمرو بن العاص ليتخير الأماكن العالية لأن الأوبئة لا تتوالد إلا في المناطق المنخفضة المكتومة الهواء . ولكن رحم الله خيال وزير الري في حكومة عبود فقد رأي مجرد وجود دراسات قديمة وتوفر التمويل يكفي لبناء خزان .. سيترتب علي قيامه تسكين شعب غريب علي تلك البيئة !! الدراسات الفنية لقيام خزان في خشم القربة سبقت حكومة عبود بزمن وعندما تم إعداد تلك الدراسة لم يكن هناك هاجس البحث عن ملاذ لشعب مشرد . ولكن ضباط عبود كانوا في



عجلة من أمرهم لتجاوز الضغوط المصرية التي كانت تلح لتنفيذ اتفاقية ٥٩ والتي اشتدت عندما بدأ عبود يطلق وعوداً كاذبة في حلفا بأنه سوف لن يتقيد بالفترة الزمنية المنصوص عليها في الاتفاقية .

هبط عبدالناصر في تلك الزيارات التاريخية بكل ما تملكه مصر في السودان .. حتي الضغوطات الثقافية ، جلب لها شادية وصباح ونجاة الصغيرة وعبدالحليم حافظ وفؤاد المهندس وما ترك خلفه صاحب اسم إلا وجلبه معه ، وبالفعل أخذ ما أراد !

للتخلص من هذه الضغوطات إضطرت حكومة عبود ، للمزيد من الخطوات العشوائية ، وقد تم تمرير قضية الخزان كما تم تمرير قضية (صحة الإنسان) .. نفذوا جزءاً كبيراً من دراسات الخزان وتركوا بعضها للسنوات القادمة بدون ضمانات تنفيذ .. كضرورة خزان ملحق في ستيت وذلك لتوفير المياه في الصيف .. ونتيجة لعدم تنفيذ هذه المراحل كادت الأزمة أن تقضي حتي علي الآثار الإيجابية - إن لم تكن قد قضت بالفعل - فيكفي أن نضرب مثلاً واحداً يرينا كيف تولدت سلسلة طويلة من الازمات .. نتيجة لشح المياه الصيفية تقلصت المساحات المذكورة في التقرير ، ثم انطلقت في المشروع مشكلة الأرض البور ونستطيع هنا لتزاحم أشكال الأزمة أن نترك قضية الفقر جانباً باعتبارها من المسلمات . ونأخذ أكثر القضايا إلحاحاً وهي قضية أشجار المسكيت وهي أشجار متطفلة إنتشارها يترك آثاراً وخيمة سنتطرق لها في الصفحات القادمات ولكن أنظر هنا كيف تتشابك آثار الأزمة لتتولد قضايا جديدة .. تعتبر الأرض البور حاضنه لهذا الوباء النباتي وهنا ربما لانستطيع أن نتغاضي عن الفقر فقد أصبح من نوع (الدكر) وذلك نتيجة لخنق قنوات الري .. حتى تلك التي تحمل الماء الملوث للشرب !! وهنا قضية اخرى هي مشكلة مياه الشرب وربما نستطيع أن لا نستبين العلاقة المباشرة للفقر ونحن نري أشجار المسكيت في القنوات (أبو سته وأبو عشرين) كالقراد في فخذ كلب اجرب .. ولكن قد تري وتسمع وتتذوق آثار الفقر عند عسيل الكلى واليرقان والبلهارسيا وحمي الملاريا!!

ومن المفارقات المضحكة انه في الزمن الذي يمد فيه العلم لسانه لطريقة الترسيب وغاز الكلور لتنقية مياه الشرب وتطهيرها .. أقصي مايطلبه الحالمون هنا لحل مشكلة تلوث مياه الشرب وهو ما كان معمولاً به في السنوات الأولي للهجرة .

هذه العشوائية التي تم بها تمرير القضايا الخطيرة في قضايا التهجير ، قفلت الباب الآن امام المعالجات العلمية الممكنة ..!! فكأنما أي خطوه للمعالجة ترسخ الأزمة أكثر من ذي قبل . فما كان ممكناً معالجة الأوبئة بالمبيدات دون أن تصبح المبيدات ذاتها قضية أخرى ومقصدنا هنا لايقف عند مايسمي بالخلل في التوازن البيئى والذي يحدث بقتل الحشرات الضارة ، ولكن الأزمة المقصودة أعمق من هذا بكثير وقد تتعلق بالإنسان نفسه . فالمبيدات التي تستعمل في رش الخضار لها مضار قد تصل حد تشوه الاجنة والسرطانات .

وأيضاً لم يعد ممكناً المعالجة العلمية لقضية الفقر ، وخاصة معالجة قضية الإنتاج والإنتاجية .. فكيف مثلاً تعالج قضية القطن والقمح إذا كان الفارق بين المطلوب علمياً والذي يمكن توفيره من الماء في الأول أربعة ريات وفي الثاني ثلاثة ريالات .

سلسلة طويلة من الأزمات تتوالد حتي الآن منذ أن أفرختها عشوائية حكومة عبود في التخطيط والتي امتدت حتي الي تعيين الوزراء .. فقد ذكروا علي لسان احد اعضاء مجلس عبود ، بانهم احتاروا في تعيين وزير صحة فانبرى احدهم واقترح طبيباً رآه في بور تسودان فتم إستدعاؤه وتعيينه وزيراً وهكذا تم تعيين أحمد خير وزيراً للخارجية فقد كان محظوظاً لانه اقرب الموظفين للمجلس !!

المؤسسة الزراعية (أزمة السياسات والإنسان)

نحن الآن في الجزء الأول من المرحلة الأخيرة والتي بدأت فيها عمليات الهروب الجماعية . بداية هذه المرحلة يمكن أن نحدد لها زمناً بالتقريب وهي سنوات ما بعد ١٩٧٩م أي بعد عقد ونصف من بداية التهجير . وربما هذا التحديد سببه ظهور آثار الانهيار الاقتصادي علي حياة الإنسان في السودان . عند هذا المنعطف كانت قد تمت مرحلة خمود التوهج الثقافي بالنسبة للإنسان النوبي وعلي إثرها صمتت تلك الأفواه التي كانت تتشدق بالتفوق والحضارة وهي تجلس علي الظل تتفرج ، كان يصحو أحياناً عندما يذبح معلم امام طلبته أو يقتل سائق عربة لأخطائه ، ولكنه في نهاية المطاف يعود لمحارته التاريخية ليختبىء فيها .. هذه الأفواه انشغلت بقضايا «لقمة العيش» وكان طبيعياً أن ينكمش الطموح لأن الأزمات الاقتصادية المتلاحقة بدأت آثارها تشتد في العلن وقد بدأت بوادر سحق «الجسد» تلوح في الآفاق بعد عملية سحق الروح التي تكلمنا عنها في الصفحات السابقة وتم الأمر طبقاً للقاعدة المعروفة التي تقول بان الهدم والبناء دائماً يبدأ معنوياً أو روحياً ثقافياً ثم يتسرب للعلن .

في بداية الثمانينيات كان الإنسان النوبي قد تعري من كل «خصائصه التاريخية» وأبعاده المؤثرة وأصبح بذلك معرضاً لقانون العرض والطلب .. ما الذي حدث ؟! تغيرت علاقات الإنتاج ، وبذلك فقدوا ميزة مشروع الإعاشة وظهرت رأسمالية جديدة علي طريقة «الصاعد الهابط» لتتعمق أزمة الأوزان الإجتماعية وليؤدي أيضاً لمزيد من التفكك .. وظهرت آثاره في الجانب السياسي كالإنتخابات المحلية أو اتحاد المزارعين.

فكما تقلصت تلك الأسماء التاريخية التي حكينا عنها في السابق ، الي أرقام باردة أصبح الإنسان ذو الخصوصية التاريخية .. اقلية .. مهمته حفظ التوازنات القبلية داخل اللجان . وتقلصت أيضاً مهمته في وظيفة مزارع بمؤسسة مهترأة الهياكل ، محشوة ببقايا خدمة مدنية متصلبة الاوصال مجلوبة علي عجل ، طبقاً

لسياسات التوطين من مشروع الجزيرة . انكشفت سوءتها بمجرد انهيار اقتصاد الدولة وتجمعت كل آثار سوء الإدارة والفساد في ظاهرة بسيطة تسمي بمال الخدمات وهي محسوبة علي تكلفة الإنتاج ، أو إنعكست علي سعر سلعة استراتيجية كالسماد «مقارنة بين التكلفة الحقيقية وسعر المؤسسة تريك الفجوة» . زد علي ذلك حال الورش الحكومية ومستودعات البترول أجور العمالة المسترحية وزرائب دلالات العربات الحكومية والجرارات والالات الزراعية . كل هذه المناظر ليست وحدها تريك حجم تكلفة الإنتاج بل نوادي بمستويات سياحية كنا قد رأيناها يوماً ومجمعات استهلاك . كل هذا يريك صور الإسراف التي زادت من أزمة الإنسان والفقر في المشروع .

يعدد السيد محمد مختار الخطيب وهو مفتش زراعي بالمعاش بعض الجوانب الفنية والادارية للمشكلة ويقول : (نسبة لتوقف عمليات تطهير القنوات لعدة مواسم سابقة) برزت مشكلة الاطماء وهي «انسداد القنوات» ودون أن ينسى دور الصراعات السياسية في تخريب الخطط الفنية يذكر بأن تدخلات القصر الجمهوري بين المؤسسة ووزير الري أدت لتوقف آليات التطهير نسبة لضعف التمويل . ويقول بأن (نمو المسكيت والأعشاب علي أكتاف القنوات الرئيسية والترع الفرعية والفرعيات وداخلها معوقة للتطهير .. الحشائش المائية التي تعيق انسياب الري في الترع والدبلات الفرعية خاصة عند زراعة القمح في الشتاء . ميزانيات ضعيفة لتشغيل عمال واحتمالات الاصابة بالبلهارسيا كبيرة مما لا يشجع علي العمل . غياب الصيانة الكاملة الدورية لأبواب ومواسير القنوات .. تأخير تطهير قنوات ابو عشرين في الموعد المناسب لقلة وضعف كفاءة الجرارات مما يعطل المزارع والزراعة في المرحلة الأولي من المشروع بحيث تروي مساحات واسعة (١٨٠) فدان عن طريق قناة ابو عشرين واحدة) ويقول بان المعالجات والخطط لم تنفذ رغم أن هناك دعماً حكومياً واستقطاعات من عائد المحصيل ، ويستمر في التساؤل عن أين تذهب هذه الأموال ؟ ونسبة عالية تفوق الـ ٩٠٪ من المزارعين يدفعون ماعليهم من ضريبة مياه وأرض

وادارة . تساؤلات تلقي في الروع خيارين .. فجوة فساد يسيل عندها كل الجهد . أو سوء ادارة تضيع عندها كل الطاقات .

بهذه التساؤلات التي لم يتقصها شيء سوي دور المزراع في الازمة يصل بنا إلي التحضيرات الزراعية وهي اخطر القضايا التي بعدها يصبح وجود المؤسسة ذاتها موضوع تساؤل فيقول :(لاتوجد بالمؤسسة الزراعية أو القطاع الخاص بالمنطقة آليات كافية للحراثة العميقة أعمق من (٨ بوصة) . الموجودة لدي المؤسسة الزراعية تعمل بكفاءة متدنية . وكثيرة التعطيل والأعطال لاتتوفر لها قطع الغيار في الوقت المناسب للصيانة والتجهيز والتصليح أثناء الموسم .. نتج عن الحراثة علي عمق واحد لفترة طويلة تكوين طبقة صلبة اسمنتية للتربة الزراعية مؤثرة علي كفاءة التربة التصريف المائي . معوقة النمو الجذري للنباتات واختناقها لم تمارس عملية تسوية للأرض الزراعة (قصابيه) طوال عمر المشروع لعدم توفر الآليات للقيام بهذه العملية الزراعية الهامة . مما أدي مع توارد المواسم إلي فقدان مساحة واسعة داخل الحواشة علواً وانخفاضاً مؤثرة علي المساحة الفعلية التي تزرع داخل الحواشة وتقدر حالياً بـ(أربع أخماس) الحواشه) .

من الملاحظ أن أزمة المؤسسة الزراعية تجاوزت التفاصيل الفنية للإنسان نفسه وهذا يبدو بوضوح في واحدة من المقترحات التي يطرحها الخطيب كمثل قوله : «تحفيز المزارعين العودة للأرض وخلق علاقة حميمة معهم» . ولكن كيف ؟؟ هل بمزيد من التمويل .. وتسهيل شروط البنك الزراعي ؟ إذا حدث دون معالجة (النصيب المزارع) في المسئولية من حيث الإهمال في الغيط ومصادر صرف التمويل ، لن يؤدي التمويل إلاّ إلي نتائج عكسية ترسخ المشكلة أكثر من ذي قبل ، ربما ستفتح له شهيته الاستهلاكية وهو يعاني في الاصل «في لقمة العيش» المشكلة هنا في الاصل ان الطبيعة ذاتها ضد الانسان وليست هنالك منطقة في السودان تم الانفاق عليها كما حدث مع مشروع حلفا الجديدة .

أشجار المسكيت (بشارات الفقر)

ببعض محاولات الدعم والتمويل كنا نستطيع أن نقلل من الخسائر أو نوقف الازمة عند حدودها تلك . ولكن الذي حدث أن العوامل الطبيعية حملت معها رصاصة الرحمة وجاءت بفصل القول . وكما قلنا في (خشم القربة المستنقع الأغبر) البيئة هنا قابليتها للتلوث عالية . والسبب كما ذكرنا من قبل هو انخفاض مستوي الأرض لان المكان يمثل قاع سهول البطانة . الاوبئة هنا تتزاوج وتتشابك حتى لاتدري اين انتهت المشكلة ومتى يبدأ الحل . الكائنات المتطفلة في الأرض والإنسان تتحرك كأنها موزعة الأدوار .. دعنا نغض الطرف عن البلهارسيا والقاردبا والسل وديدان المياه العذبة باعتبار أن تقرير لجنة عبود كان قد اعترف ببعضها من قبل .

ونتفرج هنا علي طفيل نباتي هو أشجار المسكيت وطفيل حيواني هو بلازموديم ملاريا . قدرة هذه الطفيليات علي المقاومة والانتشار كبيرة ومتماثلة .

بذور أشجار المسكيت مدرعة بصلابة عجيبة موزعة ككبسولات أدوية مستوردة ، تستطيع مقاومة تقلبات الجو . فيها خضرة مغرية للحيوان الذي يلعب دوراً كبيراً في نقلها . ومن غرائب قدرتها علي الجذب قد هام بها الاطفال عند ظهورها . مفلطحة تستطيع ان تطفو علي الماء . اشجار لديها قدرة علي التعايش مع أي نسبة من الرطوبة .. عند المقابلة الأولي تمديك بأشواكها ولا تعطيك ظلاً .. يجب ان تتخيل معاً كيف سيكون حالها في الانتشار ان وجدت مقاماً علي حوافي المجاري المائية والقنوات الكبيرة .. وهي بالفعل قد وجدت في قنوات المشروع أشواكها تحمي عناقيد البذور حتي تنضج والخضرة التي علي سطحها تنقل البذرة الي بطن الحيوان الناقل والشرائط المفلطحة تحملها علي الماء .

يبدو إنها إحدي السلالات القبيحة لاشجار السنط ، امتدت جذورها وانتشرت حول قري سكان المهاجرين ، حتي جعلت مداخل القري في ممرات موحشة كقري الصيادين في مستنقعات حوض الامزون . تطفلها علي المشروع خلق مشكلات

لاحصر لها ، إقتصادية وصحية وأمنية .. لم تسلم منها حتي إطارات العربات وأخطر المضاعفات علي الإطلاق ليست في سد مجاري المياه وزيادة تكلفة الإنتاج وانما في الأجواء المثالية التي خلقتها لانتشار مرض الملاريا ، وقبل أن ننتقل الي اختها الثانية بنت الجحيم نقف علي رأي أحد الفنيين الذين عركوا التصدي لهذه الظاهرة وهو السيد محمد مختار الخطيب الذي وقفنا معه من قبل وهو كما قدمته جريدة الرأي الآخر مفتش زراعي سابق .. يقول « .. المساحة الموبوءة بالمسكيت علي الطرق الرئيسية والفرعية والمصارف وقنوات ابو عشرين تساوي ١١٥.٩١٥كم . أما المساحة الموبوءة بالدورة الزراعية تساوي (١٠٠٠) فدان والمبالغ المطلوبة لإبادة المسكيت بالمشروع (٤.٢٧٥.٣٧٥.٠٠٠) (أربعة مليار ومائتان وخمسة وسبعون مليون وثلثمائة وخمسة وسبعون ألف جنيه) ويقول بان «أغلب المساحات التي ينتشر فيها المسكيت في الجزء الجنوبي من المشروع» ويقول عن الأسباب الرئيسية وراء إنتشار المسكيت .. «اهمال صيانة ونظافة الترع الرئيسية والقنوات عموماً من أشجار المسكيت وغيرها مما يشكل المصدر الأساسي لنقل حبوب المسكيت ونشرها في المشروع» إبقاء مساحة واسعة بين ٦٠٪ إلى ٨٠٪ من أراضي الدورة الزراعية بوراً دون زراعتها لموسم أو موسمين ، وشح المياه مما يساعد علي نمو وترعرع الأشجار . هجر وإهمال المزارعين للأرض والعمل الزراعي لضعف العائد المالي ومايتبع الزراعة من ديون وإذلال وقهر .. وضعف السيطرة علي المياه لضعف كفاءة القنوات والأبواب مما يصعب إدارة المياه وتوظيفها رغم قلتها وتدفقها علي الأرض البور في أراضي الدولة والأملاك . تحول هذه المساحات البور الي مراعي وممارسة الرعي العشوائي عليها وحركة الحيوانات داخل المشروع تعتبر المصدر الثاني لنقل بذرة المسكيت».

يبارك المدير الزراعي السابق خطوات وزارة المالية التي رصدت مبلغ (٣.٥) بليون لمكافحة المسكيت ولكنه يقول في الحل بان رصد الأموال وحدها لاتكفي دون معالجة الأسباب ويعدد الحلول في الآتي :



١. تحفيز المزارعين للعودة للأراضي وخلق علاقة حميمة معهم واجراء صيانة أساسية علي القنوات بمختلف مستوياتها تحقق في الحد الادني السيطرة علي المياه ورفع كفاءة إدارتها .

٢. تبني دورة زراعية مرنة تتفق مع كميات المياه المتوفرة وتمكن المزارع من زراعة الدورات الثلاث من حواشه أو دورتين في الحد الأدنى مع توفير التمويل اللازم للتحضيرات الزراعية والتقاوي . تشجيعاً للمزارع علي الزراعة وحتي لايقف ضعف إمكانياته عائقاً أمامه ويضطره لترك ارضه بوراً (نركز علي المناطق الموبوءة حالياً بالمسكيت) .

٣. يجب ان لانقف مع الاتجاه الذي ينادي بالسماح للمزارعين زراعة ما يرغبون دون تحديد وتصحب ذلك مشاكل جديدة فنية ادارية .



محمد طلعت فريد .. رئيس وفد
المفاوضات في اتفاقية مياه النيل

بلازموديوم ملاريا (طفيل القرية)

إن كانت الملاريا في أحوالها العادية تسمي مرض المستنقعات ، ففي خشم القربة أخذت إبعاداً أخرى كما ذكرنا في مرض السكري وأكتسبت معاني بنت الجحيم وهي قصتنا هنا . حيوان متطفل تتعجب من إصراره علي البقاء ، وذلك عندما تتأمل قدرته علي التشكل أقول هنا (تتأمل) لأن القصة التي سنحكيها عنه ، للتذوق فقط ليست فيها طب ولا علاج . قدرته علي المراوغة والتشكل تصل ما يقارب الثمانية أطوار ، حيوان صبور يجيد لعبة التوقيت

في الساعات الاولي ينزلق في مجري الدم بسلام لا يهاجم هذا او ذاك ، متسامح يتجنب العداء حتي ولو هوجم .. يظل علي حاله هكذا حتي يصل الكبد (مخزن الطعام المعد للتوزيع) بدخل المخزن كلص يدخل المطبخ قبل أن يسرق ، وبعد أن يتقوى يستبدل ملابس السلام بملابس الحرب ويعد نفسه بعد ذلك للهجوم .. يتشكل طبقاً لمتطلبات المرحلة . ويبدأ بالهجوم علي أوعية الدم الغنية «الكرويات الحمراء» بحثاً عن أجواء تساعد علي التكاثر وعن غذاء مخصوص منظم بدلاً عن ذلك «المشكل» والذي شبع به عند مرحلة الكبد وقدرته علي التكاثر أمرها عجب في الانسان لاجنسى اما في معدة الباعوض رجل وإمرأة .

يحمي نفسه كبذور المسكيت تماماً بظهر صلباً مقاوماً للعصارات الهاضمة ويبدو ان حياة (الكبد) بالنسبة لهذا الحيوان الاولي النشط سهلة ، لانه ينتشر بالحساب . اما في دورة الكرويات ينتشر «بالهندسة» بالتشكل لصور مختلفة .. يقولون بان من مضاعفاته أربعة أنواع من الملاريا ، والموضوع في بعض جوانبه مشكوك فيه أو ربما هي معلومات قديمة قد تجاوزتها نشاطات هذا الطفيل ، لايستقر علي حال ربما يصل درجة استعداده للطوارىء . انه يعد نفسه حتي لمرحلة القفز من الانسان ، فيبقي علي حاله ذكر وأنثي رغم انه لايتكاثر في جسد الانسان الا بالانقسام (لاجنسى) بمجرد ان تلتقطه خرطوم الباعوض (الانوفلس) تهاجر الي معدتها . ومن بين تلك الاطوار



التي تتم هضم أكثرها ، تبقي بعضها، وتهرب بعد ذلك من جحيم العصارات الهضمية لمعدة الباعوضه . فتخترق جدار المعدة حتي تتمزق معدة الباعوض المسكينة فتموت بالملاريا كالإنسان تماماً .. وحتى يجد العلم طريقه بها تتم (تطعيم) الباعوض لقتل هذه الاطوار في معدتها ، ستظل كل المحاولات غير ناجحة لانها بقدر ما تقلل من أثار المرض هنا ، تحدث خللاً في التوازن البيئي هنالك ، ورغم ان المرض قديم منذ ان كان يسمي بالبرداء ولاتخلو منه منطقة ، له قصة ومذاق خاص في خشم القربة .. في هذه القصة التي تعد إحدي ملاحم (المستنقعات) تجد العلاقة وجودية بين الفقر والانسان. وللطبيعة مداخلات لايفهمها الاطباء .. مناخ المستنقعات الذي يسود المنطقة وقفنا عنده في حلقات سابقة بعنوان (خشم القربة) .. ولكن الذي يهمنا هنا العلاقة المميزة بين الدفء والرطوبة والتي من جهة اخري تقدم ساحة مثالية لانتشار الاوبئة .. استطيع ان اجازف بالقول بأن دورة هذا الطفيل في احشاء الباعوض في المنطقة المنخفضة هي أقل معدل من أي منطقة اخري. واذا استثنينا جنوب السودان قد لا تتجاوز العشرة أيام ، وذلك رغم انه في الحالات العادية يصل عمرها واحد وعشرون يوماً .. فليست هناك اجواء مثالية أكثر من تلك التي توفرها اشجار (المسكيت) من مياه راكدة .. وظلام ورطوبة . واشجار المسكيت والملاريا تمثل غضب الطبيعة علي الانسان في المشروع والذي كان في الاصل مسحوق الروح بالهجرة منزوع (اللقمة) بسياسات «المؤسسة الزراعية» .

قدرة هذا الطفيل علي التشكل والتكيف اكبر بكثير من قدرة تقنيات المعامل وملاحقات الاطباء بالتشخيص ، فيكفي فقط ان الاصباغ المثالية في الكشف عن هذا الحيوان المجهري غير موجودة بسبب الفقر ، وصبغة (الجيمسا) اجودها كما حددتها وزارة الصحة .. وربما لهذا تعتمد عملية العلاج علي التخمين وقراءة الحال .. ومن عجائب العناية الالهية التي تعطي «البرد علي قدر الغطاء» يتم الشفاء . هذا الاضطراب العجيب في تحديد جرعات الدواء واستعمال ادوية التشخيص كالكينين

لايمكن ان تكون وسيلة ناجعة للعلاج .. فالكينين مثلاً ليس دواءً في حد ذاته سوى انها سياسة الارض المحروقة التي تلجأ اليها الجيوش المنهزمة عندما تتقهقر امام المنتصر . فعندما يفقد (الكلوركين) ذلك الدواء الشهير قدرته علي صد جحافل «البلازموديوم» الزاحفة ، يلجأ الأطباء لقتل الاوعية الدموية المصابة والنتيجة المباشرة هي فقر الدم .. وربما تتكاثر الجثث بعد ذلك علي المقبرة ، فيعمل مصنع النفايات بأكثر من طاقته فيتضخم (الطحال) أثناء فرز النفايات .. وربما تنتشر نفايات الدم الباقية فيحدث اليرقان .. اما الكلي المصابة فلابد ان تفشل لانها في الاصل «مصفاة معطوبة» وردت عليها كميات كبيرة من بقايا مركبات الادوية زيادة علي نفايات الدم السامة وقد تراها بوضوح في البول الاحمر الذي يعقب ليالي الحمي «السوداء».

هكذا تنخفض مناسيب الدم في جسم مزارع المشروع ، ربما بنفس معدل انخفاض قواه الشرائية ..

بالملاريا وأخطاء التوطين واضطراب سياسات التسويق وسياسات التحرير الاقتصادي ، وازدياد تكلفة الانتاج وعبء الخدمات نصل لاعتاب المرحلة الاخيرة وهي مرحلة الهروب الي ضواحي الخرطوم .

هذا الملاذ الجديد ربما يلقي في روع من بقي منهم هناك بعض الطمأنينة ولكن قتامه الملاريا الدماغية التي بدأت تذبح في الشباب والاطفال منذ السنوات الخمس الاخيرة دون أن يكون في يد الطب حل ، تزيد من جرعة المأساة لحدود غير محتملة !! هذا الطفيل الذي يملك مثل تلك القدرة التي حكينا عنها في السطور السابقة ، استطاع بين يدي توفر الاهمال عند المريض في تنفيذ الجرعات او تعاطي الدواء دون ارشادات الطبيب كسباً للوقت والمال ، وفي ظروف عجز الطب والاطباء بسبب تدهور صحة البيئة او الضعف الفني .. استطاع ان يصل مراكز الاعصاب العليا ، وربما الي اطوار لايملكون لها وصفاً حتى لو ظهرت في المنظار .. المريض الذي كان ملئ السمع والبصر بصحته وحيويته في الصباح تراه بعد مغيب الشمس يلفظ انفاسه ،

وهو يقلب ساقيه كذبيح بين يدي جزار (غشيم) ، تصلب في الظهر والاطراف .. جحوظ في العينين .. غيبوبة لا يفيق بعدها .. سيرة المرض المخيف ، وسرعة الموت ، تحدث في الذي يتلقي عنك الخبر ، فتنه ما أسرع اشتعالها في قلوب هناك .. رقيقة الايمان !!

كيف نغيير الواقع ؟!

(.. العلم بمعناه المتخصص اي معرفة مفردات الواقع من أول الذرات الي آخر البشر ، وإكتشاف خصائصها وقوانين حركتها وعلاقاتها المتبادلة .. شرط جوهري لامكان تغيير الواقع)



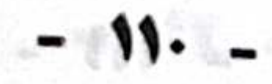
التلوث (سموم فطريات ، مبيدات ، مياه شرب)

في تلك الليالي التي تعقب الأفراح يجتمع الشباب في مجلس العريس وأمامهم علب في جوفها كميات كبيرة من الفول السوداني وبعض حبات الحلوى .. تستمر مجالس الانس تلك وقشور الفول السوداني تتطاير هنا وهناك .. محدثة أصواتاً متناغمة مع نبرات الحديث أحياناً أو معطية للإصغاء نكهة وللمستمع صبراً .. ولكن فجأة يقفز أحدهم مذعوراً وهو يفرغ ما في فمه من طحين فول ينثرها علي الوجوه أو مفرغاً ما في جوفه أحياناً وهو يلعن (أبو الفول) . في هذه البذور المعطوبة تعيش إحدى الفطريات يسمونها بـ(الاسبروجلس فلافس) والاسم هنا ليس مهماً بل الاهم هي انها تفرز مركبات سامه يسمونها (الافلاتوكسين) .

في حق هذه المركبات السامة يقول كتاب الغذاء والسرطان (ثبت ان مركبات الافلاتوكسين سامه علي نطاق واسع .. وتختلف درجة تأثيرها علي حيوان المعامل حسب عدة عوامل منها الجرعة ونوع الحيوان وظروف الاصابة والحالة التغذوية للحيوان .. والجرعة الكبيرة من سم الافلاتوكسين تؤدي الي التسمم الحاد وتلف كبير في الكبد ونزيف دموي .. أما الجرعات الصغيره والمتكرره المستمرة تحدث تغييرات مرضية في الانسجة مثل موت الخلايا والنزيف وتليف الكبد وتقدر الكمية التي يتحملها الانسان من الافلاتوكسين دون حدوث مرض .. بعشرين جزءاً في البليون . وتنص تشريعات بعض الدول ان الحد الادنى المسموح به في أي غذاء هو ١٥ جزءاً في البليون ومن ذلك نرى ان التركيز المسموح به ضئيل للغاية وذلك بسبب الفتك الشديد لسموم الافلاتوكسين) .

هذه الفطريات المنتجة للسموم تعيش عندنا في الفول السوداني وبذرة القطن والخطورة تأتي في الفول السوداني لكونه مفضلاً أكثر من غيره لدي هذه الفطريات وثانياً لانه يستعمل مباشرة للغذاء وعلف الحيوان . الظروف مثالية في مشروع حلفا الجديدة لنمو هذا الفطر ، وهي نفسها التي تكلمنا عنها في اجواء الملاريا .. الحرارة

الرطوبة والحشائش والحشرات والسؤال قائم هناك ..!! هل يمكن مقاومة هذه الحالات في ظروف التدهور الحادث في المشروع ؟! وان حدثت المقاومة تبقي مشكلة الإهمال في المزارع نفسه ، ويمكن أن نلخصها في الآتي .. عدم الإهتمام بالري أثناء تكون البذور . والري يقلل تلوث البذور بالسموم وغياب تجفيف المحصول .. وجمع (الكيمان) في المناطق الرطبة . كل هذه الاحتياطات لكي تبقي الاغلفة قوية حول البذرة ولكي لا يخترقها الفطر . والاهم من هذا أو ذاك السؤال .. هل هناك دراسات وبائية جادة تستطيع ان تحدد حتي ولو نسبة تقريبية لمعدلات الاصابة بالسرطانات في العشرة سنوات الاخيرة ؟ أكاد اجزم طبقاً قراءتي للحال بعدم وجود مسوحات دورية للاوبئة .. وربما حتى في حالات الملاريا ؟! وقد لايكون السبب في الامكانات الشخصية وربما هنالك من المسئولين من يعتقد بعدم وجود حالات تدعو للأشتباه ..! اركز هنا الي ضرورة الدراسات والمسوحات للأوبئة لأنها انجع السبل للعلاج .. فنتائج المختبرات لم تصل بعد لحقائق قاطعة رغم ان التجارب هناك تؤكد العلاقة الوثيقة مثلاً بين سرطان الكبد والتلوث بالافلاتوكسين . والذي لاشك فيه أن جرعات كبيرة من هذا المركّب تؤدي إلى التسمم الحاد والوفاة وذلك لأن الملاحظة الخارجية دعمت المختبر . ولكن الحكم ليس سهلاً في الجرعات الصغيرة والمستمرة لأن السرطان يكون قد بدأ ولكن يظل في حالة كمون حتى يلاقي مركّباً غذائياً منشطاً أو يستمر علي ذلك الحال الي عشرين عام .. وبسبب طول مدة البدء فانه لايمكن التعرف علي الأسباب الحقيقية للسرطان .. وتتداخل هنا عوامل أخرى كالخوف والسرية وتكلفة العلاج وعدم امكانية العلاج في هذه المرحلة . وقد تظهر أمراض عصبية دون مقدمات حتي يحتار أهل المريض بين الطب والشيخ المشعوذ . وربما السبب ما تقوله المختبرات بان مستهلك هذه السموم لاتظهر عليه الاعراض إلاّ بعد حين وذلك في حالة التسمم في الجهاز العصبى .. ونستطيع أن نقول مثل ذلك في تشوه الاجنة ، وحتماً سيكون مضحكاً عندها ، إذا إدعي أحدهم بأن البذور المعطوبة للفول السوداني هي



التلوث (سموم فطريات ، مبيدات ، مياه شرب)

في تلك الليالي التي تعقب الأفراح يجتمع الشباب في مجلس العريس وأمامهم علب في جوفها كميات كبيرة من الفول السوداني وبعض حبات الحلوي .. تستمر مجالس الانس تلك وقشور الفول السوداني تتطاير هنا وهناك .. محدثة أصواتاً متناغمة مع نبرات الحديث أحياناً أو معطية للإصغاء نكهة وللمستمع صبراً .. ولكن فجأة يقفز أحدهم مذعوراً وهو يفرغ ما في فمه من طحين فول ينثرها علي الوجوه أو مفرغاً ما في جوفه أحياناً وهو يلعن (أبو الفول) . في هذه البذور المعطوبة تعيش إحدي الفطريات بسمونها بـ(الاسبروجلس فلافس) والاسم هنا ليس مهماً بل الاهم هي انها تفرز مركبات سامه بسمونها (الافلاتوكسين)

في حق هذه المركبات السامة يقول كتاب الغذاء والسرطان (ثبت ان مركبات الافلاتوكسين سامه علي نطاق واسع .. وتختلف درجة تأثيرها علي حيوان المعامل حسب عدة عوامل منها الجرعة ونوع الحيوان وظروف الاصابة والحالة التغذوية للحيوان .. والجرعة الكبيرة من سم الافلاتوكسين تؤدي الي التسمم الحاد وتلف كبير في الكبد ونزيف دموي .. أما الجرعات الصغيره والمتكرره المستمرة تحدث تغييرات مرضية في الانسجة مثل موت الخلايا والنزيف وتليف الكبد وتقدر الكمية التي يتحملها الانسان من الافلاتوكسين دون حدوث مرض .. بعشرين جزءاً في البليون . وتنص تشريعات بعض الدول ان الحد الادنى المسموح به في أي غذاء هو ١٥ جزءاً في البليون ومن ذلك نرى ان التركيز المسموح به ضئيل للغاية وذلك بسبب الفتك الشديد لسموم الافلاتوكسين) .

هذه الفطريات المنتجة للسموم تعيش عندنا في الفول السوداني وبذرة القطن والخطورة تأتي في الفول السوداني لكونه مفضلاً أكثر من غيره لدي هذه الفطريات وثانياً لانه يستعمل مباشرة للغذاء وعلف الحيوان . الظروف مثالية في مشروع حلفا الجديدة لنمو هذا الفطر ، وهي نفسها التي تكلمنا عنها في اجواء الملاريا .. الحرارة

والرطوبة والحشائش والحشرات والسؤال قائم هناك ..!! هل يمكن مقاومة هذه الحالات في ظروف التدهور الحادث في المشروع ؟! وان حدثت المقاومة تبقي مشكلة الإهمال في المزارع نفسه ، ويمكن أن نلخصها في الآتي .. عدم الإهتمام بالري أثناء تكون البذور ، والري يقلل تلوث البذور بالسموم وغياب تجفيف المحصول .. وجمع (الكيمان) في المناطق الرطبة . كل هذه الاحتياطات لكي تبقي الاغلفة قوية حول البذرة ولكي لا يخترقها الفطر . والاهم من هذا أو ذاك السؤال .. هل هناك دراسات وبائية جادة تستطيع ان تحدد حتي ولو نسبة تقريبية لمعدلات الاصابة بالسرطانات في العشرة سنوات الاخيرة ؟ أكاد اجزم طبقاً قراءتي للحال بعدم وجود مسوحات دورية للاوبئة .. وربما حتى في حالات الملاريا ؟! وقد لايكون السبب في الامكانات الشخصية وربما هنالك من المسئولين من يعتقد بعدم وجود حالات تدعو للأشتباه ..! اركز هنا الي ضرورة الدراسات والمسوحات للأوبئة لأنها انجع السبل للعلاج .. فنتائج المختبرات لم تصل بعد لحقائق قاطعة رغم ان التجارب هناك تؤكد العلاقة الوثيقة مثلاً بين سرطان الكبد والتلوث بالافلاتوكسين . والذي لاشك فيه أن جرعات كبيرة من هذا المركّب تؤدي إلى التسمم الحاد والوفاة وذلك لأن الملاحظة الخارجية دعمت المختبر . ولكن الحكم ليس سهلاً في الجرعات الصغيرة والمستمرة لأن السرطان يكون قد بدأ ولكن يظل في حالة كمون حتى يلاقي مركّباً غذائياً منشطاً أو يستمر علي ذلك الحال الي عشرين عام .. وبسبب طول مدة البدء فانه لايمكن التعرف علي الأسباب الحقيقية للسرطان .. وتتداخل هنا عوامل أخرى كالخوف والسرية وتكلفة العلاج وعدم امكانية العلاج في هذه المرحلة . وقد تظهر أمراض عصبية دون مقدمات حتي يحتار أهل المريض بين الطب والشيخ المشعوذ . وربما السبب ما تقوله المختبرات بان مستهلك هذه السموم لاتظهر عليه الاعراض إلاّ بعد حين وذلك في حالة التسمم في الجهاز العصبى .. ونستطيع أن نقول مثل ذلك في تشوه الاجنة ، وحتماً سيكون مضحكاً عندها ، إذا إدعي أحدهم بأن البذور المعطوبة للفول السوداني هي

سبب الجنون والامراض العصبية !! الاختلاف في تحديد الجرعة المسرطنة لهذه السموم بين الدول ، سببه الاختلاف في تكنولوجيا المختبرات .. مثلاً لدي الامريكان لجنة خاصة للفول السوداني وضعت برامجاً كاملاً وافقت عليه وزارة الزراعة ، وذلك لحماية المستهلك من هذه السموم .. طريقة الفرز بالنظر والمجهر والمخازن المرقمة والطرق التي يعالجون بها العلف الملوث والزيوت .. كل هذا الحرص يريك مدي خطورة هذه السموم علي الانسان .. وهناك دولة كاليابان لاتقبل بأي نسبة من هذه السموم . وهناك أخري افريقية كزائير أكثرت من المسوحات الوبائية وانتهت الي تحديد قاطع لاسباب انتشار سرطان الكبد بين الذكور في الاعمار التي تتراوح بين ٣٠ ـ ٤٠ سنة

وكذلك تمت مسوحات وبائية أخرى في كينيا وتمت مقارنتها بسويسرا . من نتائجها ، أن هذه السموم كانت تنخفض كلما زاد ارتفاع المنطقة من سطح البحر . وهذا يذكرنا بما قلناه عن الأجواء المثالية لإنتشار هذه السموم في منطقة حلفا الجديدة بإعتبارها منطقة منخفضة .. وهناك دراسة اجريت في السودان لمعرفة علاقة الافلاتوكسين بالسرطان ويقول الباحث المصري الدكتور أحمد جمال الدين في ذلك بأن إهتمام السودان بالتلوث كان لسببين :

١. تأثير هذه السموم علي الصحة العامة ونشر السرطان .

٢. الخسائر الإقتصادية التي مني بها السودان من جراء تلوث بعض محاصيله ..

ويعد أن يذكر الجهات التي قامت بالدراسات يذكر بأن الدراسة شملت دماء (٢٥٢) طفلاً وجدت هذه السموم في ٣٩٪ وكانت اعلي نسبة في اطفال سوء التغذية . أما البول في كل الجنسين فقد كان ملوثاً تماماً .. وعندما حللوا عينات من أكباد الذين يعانون من أمراض سوء التغذية وجدوا نسبة المصاب ٢٥ ، ٣١٪ .. وقد وجدوا أيضاً هذه السموم في ٤١٪ من الذين يعانون أمراض حادة في الكبد .. أما في (ألبان الامهات السودانيات ففي ٩٩ عينة وجد أن ٣٧٪ تحتوي علي (الافلاتوكسين) .

ما قلناه سابقاً يمكن أن يقال علي مركبات غازية سامة تنطلق من تحلل ألواح «الاسبتسوس» التي تغطي المنازل والتي ربما تملأ الغرف المغلقة في منازل توطين حلفا وما قلناه أيضاً في فطريات الفول المعطوب يمكن ان نقوله في المبيدات .. أن كانت في المنازل أو بالطائرات

اخطر المبيدات علي الانسان هي التي تستعمل بطريقة عشوائية في رش الخضروات ، أما لإبادة الآفات أو الحشائش أو لزيادة جودة المحصول .. آثارها بالإختصار المخل في الآتي

١. التأثير علي الأعصاب «التأثير العصبى المؤجل»

٢. سرطان الكبد الناتج من المبيدات العضوية الكلورية .

٣. تأثير المواد الملوثة للمبيدات وخطورة مخاليط المبيدات .

٤. إحتمال التفاعل بين المبيدات ومكونات الغذاء قبل وأثناء الطبخ

هيئات الأمم المتحدة تطمئن المستهلك في (أوربا) ولكنها تشير الي أن الضرر دائماً يكون من نصيب العامل الذي يتعامل مع هذه المبيدات أو مخاليطها .. ولا أدرى هل هذه التقارير مطمئنة لمجتمع يعمل بالكامل في مهنة الزراعة ؟!

وربما هذه الحقائق مازالت في مرحلة المؤتمرات وربما ما يجرى علي الفئران لاينطبق علي الإنسان ولكن هل هناك من ينكر أن معدلات الإصابة بالسرطان .. وخاصة في الجيل الثاني من المهجرين كبيرة تستحق دراسة جادة ؟!

الهروب والآمال والدراسات الحالمة

مشروع حلفا الجديدة .. لوحة جميلة موضوعها (الفقر) الألوان والظلال فيها متناغمة ومنسجمة .. ألوانها الرئيسية الأسود والأغبر والأخضر ، للفقر آثاره وللطبيعة غضبها «الملاريا والمسكيت والتحرير الإقتصادى» إذا أيقظت فيك التأمل فهي كنكنة الحلفاوي السوداء تأتي جارحة ولكنها مفيدة فهي عنصر مهم في التوازن الفكري العام .

وربما سينتهي الأمر بخصخصة المشروع أو إغلاقه أو ربما ببعض التمويل ومسكناته ، سيطول عمر المشروع ولكنه في نهاية الأمر لا مستقبل له وقد يبقي في تاريخ النوبة كما بقيت بابل في ذاكرة اليهود .

ما الذي يحدث الآن ؟؟ هروب جماعي لوادي حلفا وهي محرقة أخري ولكنها أخف وطأة وذلك علي الأقل عند أولئك الذين يبغون ملاذاً ولايحلمون بالخلاص ولايملكون له ارادة .. وعند آخرين فيها العلاج النفسي .

أما السواد الأعظم من الهاربين يتجهون الآن صوب الخرطوم وضواحيها وفيهم من يجرجر شيخوخته هناك . ومن المفارقات أن الملاذ الذي إختاروه هو عينه الذي اختاره أسلافهم في استفتاء عام بنسبة ٦٢٪ وقد كان استفتاء صورياً لحكومة عبود .

وربما الذي يهربون الآن هم جيل الهجرة وأقل قطاع عمري في هؤلاء هم الذين ولدوا في وادي حلفا أو هاجروا وهم صبية ، ومع هؤلاء بالطبع بعض شباب الجيل الأول وربما كان الهم الإقتصادي هو الباعث الأول لهؤلاء . وربما هم أقل الناس صراخاً لانهم لايملكون كآبائهم مهرباً في التاريخ يحلمون به .

الجيل الثاني ومن سيولدون بعدهم . هم المقصودون هنا وهم من سميناهم بالحلفجية في الصفحات السابقة وهؤلاء هم أبناء المستنقعات وهم الذين سيبقون وسط هذه الأنواء .. لن يهمهم ما يحدث حتى ولو ماتوا في صمت ولايملكون مثل آبائهم نماذج حياة راقية عاشوها ويقارنون بها !! ثقافتهم مختلفة فهي من لقاح

ثقافات «نوبية وعربية وعادات سكان كنانى» وقد امتدت عمليات التزاوج الثقافي الي مصاهرات حقيقية ، فأندية القري مليئة بقصص الزواج من من كانوا يصنفونهم (بالاجانب) فهؤلاء الحلفجية بطبيعة الحال جيل واحد في بنائه الفكري وموقفه النفسي مع بعض الاختلافات التي ستزول حتماً مع الوقت . وان كنا لانري ملامح ذلك الأمل فإننا لاندري أين تقع فوهة النفق ففي النفس آفاق تدفع الايمان بحقيقة ، أن لكل مأساة نهاية .

المأساة في حقيقتها ترجمة عملية لخطايا الساسة بسبب الجهل أو الخيانة . والتفريط في حقوق الضحايا كان مسئولية الجميع .. والغريب أن أهالي حلفا كانوا أول من أذنب .. فالإختراق المصري للسودان جاء من جانبهم ، فقد القوا بشخصية خطرة في الساحة الساسية كمحمد نور الدين . وقد كان محسوباً كما هو معلوم علي المصريين واضعفوا بذلك القدرات التفاوضية – والتي كانت ضعيفة في الاصل – للوطنين السودانيين امثال ميرغنى حمزة وخضر حمد .. ولاءات محمد نور الدين للمصريين بلغت درجة المشاركة في تنظيم إستقبال حافل لعبود في حلفا .. بعد أن بارك سياساته المصريون .. ولانملك تفسيراً غير ذلك ، لأنه سياسي محترف محسوب علي الديمقراطية من المفروض ان لايبلغ ترحيبه بحاكم عسكري بمثل تلك الدرجة من الحفاوة والتي حكاها كتاب قصة اختفاء اجمل مدينة سودانية بقوله : (خلال الجولة التي قام بها الفريق عبود في قري حلفا . كنا نلاحظ ان المجاهد والوزير ونائب حلفا السابق محمد نورالدين ظل حريصاً علي مرافقة الوفد من بعيد حيث كانت تقله سيارة تاكسي مما أظهر حرصه علي الاستقبالات الشعبية) نشاطات محمد نور الدين لعبت دور في إنجاح مهمة صلاح سالم فقد لعب دوراً في تهيئة الاجواء لضمان المصالح المصرية بعد الاستقلال . وكل المصالح تقريباً كانت تصب في قيام السيد العالي

نتيجة لتلك المهمة وحد صلاح سالم الاحزاب الاتحادية . وروض حزب الامة



باتفاقية (الجنتلمان) .. قام بتجنيد ضباط في قوة دفاع السودان . وقد استعان بهم عقب فشل حكومة السيدين . قرّب بين السيدين لمعاقبة الأزهري الذي كان قد خرج لتوه من بيت الطاعة . وقد كان لمحمد نورالدين دور في تنفيذ كل ذلك . أما الاستقلاليون فلم يكونوا احسن حظاً من الاتحاديين ففي تلك الاتفاقية يوافق حزب الامة علي كل اتفاقية مياه النيل التي كانت مبرمة بن مصر وإنجلترا مقابل أن تترك لهم مصر عرش السودان وفوق ذلك سجل التاريخ خطيئة أخرى لزعيم نوبي هو عبدالله خليل بتسليم السلطة للعسكر .

اذن لان المأساة ذات جذور سياسية كنا نبغي حلولاً من الساسة وخاصة من المصرين الذين يتباهون الآن بفوائد السد العالي ويقولون بان (إنتاجه السنوي من الكهرباء أثره في الناتج الزراعي في سنة واحدة تغطى أضعاف تكاليفه الحقيقة) نحن نعترف بأنهم اشطر منا وقد انفض المجلس وتفوق جهلاؤنا وشطارهم وابتلعت صفوة النوبة طعم التعويض . رغم ذلك ألا يمكن تخصيص نسبة ضئيلة من هذه الأرباح لدعم إعادة تسكين هؤلاء الضحايا ؟! . مجرد أسئلة لاتنتظر جواباً وربما تفتح نوافذ أمل جديدة للأجيال القادمة . فالشطارة مهما كانت تأتي ناقصة وربما لولا هذه الحقيقة لاستحوذ الانسان علي كل شيء .. فإذا ذهب المصريون بكل فوائد الماء والكهرباء فقد بقي لشعبنا (النائم) فوائد الأطماء وربما هذه الستين مليون طن من الطين والتي بدأت منذ سنوات قليلة في الترسيب علي مسافة ٢٠٠ كيلو جنوب السد ستكون نواة جزر أو نهضة زراعية ستلعب دوراً كبيراً في إعادة حلفا لسيرتها الأولي .. فقط يجب الانتباه لعملية تقسيم الحدود في منطقة ارقين وعدم تكرار الاخطاء القديمة . وقبل ذلك يجب التخلص من مسألة التقديس الساذج للتاريخ !! ولو علمنا أن فائدة الطين لاتقل عن فائدة الماء والكهرباء ، وان اخصب الاراضي في بحيرة النوبة ستكون في منطقة تماس بين السودان ومصر وعندها فقط .. سندرك ان ارقين أهم بكثير من حلايب والبركة في سواعد الذين بقوا في وادي حلفا يصارعون الموج

والرمل والماء الآسن وهوام الارض يبنون عروش الملاذ الآمن للأجيال القادمة . الي تلك السنوات الغائرة في احشاء المستقبل يبقي الامل وهو مايحدث الآن من تكوين قري في جنوب الخرطوم . اما خشم القربة عاجلاً أم آجلا ستترك لشركات الخصخصة . والي ذلك الحين هناك من يقترح حلولاً تتلخص في الآتي:

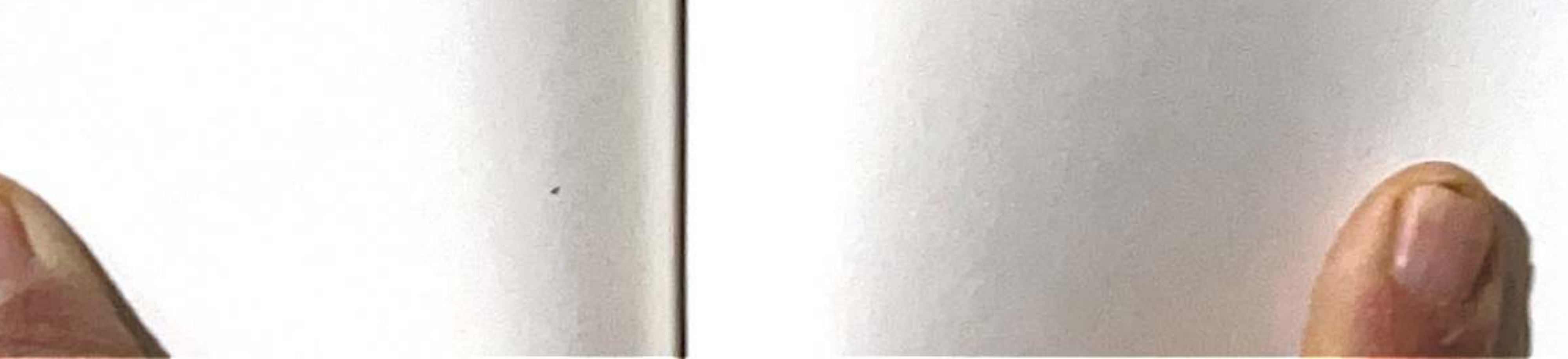
* الاسراع في تعبيد الطرق في حلفا الجديدة وخاصة طريق القربة سبعات .
* دعم المزارعين بالتمويل السهل .
* إبادة المسكيت .
* دعم المستشفيات بالإسعافات في الخطوط الطويلة بين القرى .
* حل مشكلة مياه الشرب وعلاج التلوث .
* تنظيف القنوات .
* تقوية إتصالات سوداتل .

<u>الآمـــــــال:</u>

ما تقدم في هذا الباب يلخص بعض مظاهر مأساة المشردين من صدمة الهجرة وأوجاعها وأزمة الفقر آثارها ، وقبل أن ننتقل إلي الباب القادم ونبحث فيه عن (المسئول) لابد أن نلمس هنا الممكن من الآمال والحلول ونضعها مرقمة مقاومة للتعميم والتنظير ما أمكن .

١. قبل البحث عن تفاصيل الحلول لابد أن نتسلح بالأمل لأنه أقرب الطرق لإستحضار ما نجهله من حلول .

٢. يجب أن نتوقع الحل السياسي اولاً لأن المشكلة بدأت في الاصل كذلك . والتساؤل مازال قائماً .. هل مصر بالفعل جادة في علاقات ازلية .. ؟ وهل هناك علاقات أزلية في غياب الشعب النوبي ..؟ وهل صحيح ما يقال بأن تعمير منطقة النوبة ليس في صالح المصالح المصرية ؟!! نحن نتساءل لأن تداعيات تيار العولمة تكذب هذه الافتراضات، فالمشكلة المائية ستفرض نفسها عاجلاً أم آجلا علي مصر .



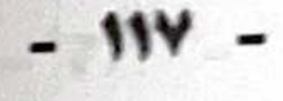
ولهذا نتوقع دعماً مصرياً سودانياً لإعادة توطين المشردين في حلفا الجديدة حول البحيرة وهو بالفعل اقتراح مصري قديم أضاعته حكومة السيدين في غمرة إنغماسها في تفاصيل العلاقات المتأزمة حين ذاك ... والا بقيت المسئولية التاريخية معلقة والتاريخ لايرحم الشعوب والأفراد .

٣. ترسبات الطمي توقعتها الدراسات منذ قيام السد وحتماً ستترتب عليها قيام أرض خصبة وجزر ربما تفوق خصوبة أراضي ما قبل الهجرة

٤. دعم المحاولات الخارقة لمن بقوا هنالك رغم قلتها وقد قدموا أسراً بكاملها قرباناً للمستقبل المنتظر وذلك في حادث الرصاص المتهالك وهم من أفراد قري البر الغربي

٥. تنظيم الهجرات المؤقتة لضواحي الخرطوم من خلال الاندية والروابط والجمعيات فالاندية والتجمعات والروابط في العاصمة القومية .. مجرد قيامها يؤدي الغرض ، حتي ولو لم تستطع أن تقدم شيئاً لأن المطلوب منها بالتحديد هو تقليل وتيرة النويان بطريقتها المهلكة التي نراها الآن أو علي الأقل ترشيدها ، ويبقي أيضاً التحدي وهو المحافظة علي الجنين الثقافي أو حماية المصباح من مهب الريح . وتلك بالطبع مهمة تلك الجمعيات والاندية التي تتكون الآن هنا وهنا .

٦. تخفيف آثار الأزمة في حلفا الجديدة بالمسكنات المادية والثقافية ، والاخيرة من مهمة اندية قري حلفا . وفي هذه المهمة مطلوب من هذه الاندية بناء مجسم لوادي حلفا بصورتها التي كانت عليها قبل قيام السد ، أو بناء مجسم للقرية التي يمثلها النادي وذلك بالاستعانة بذاكرة من بقوا من جيل الهجرة أو في أضعف الإيمان خريطة كبيرة توضع علي باب النادي .. الهدف من هذه المسكنات الثقافية واضح وهو تثقيف الأجيال وتحريضهم للإهتمام بالتاريخ وهي آخر محاولة ثقافية لإنقاذ مايمكن إنقاذه .



حلول آجلة أم دراسات حالمة ..؟

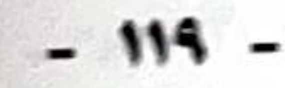
لكي لايبقي التفاؤل الذي سقناه في الاسطر السابقة حبيساً في تلك الدوائر الوجدانية .. وحتى لانكتفى بالنظر صوب البحر منتظرين ترسبات الطمي التي ستكون الجزر . يجب أن نبحث حلولاً في أعماق الصحراء علنا نجد مخرجاً من تلك الورطة التي وقع فيها النوبيون . تقول الدراسات الإستطلاعية التي نقلها الأستاذ محمد جلال هاشم عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية بأن صحراء النوبة التي تمتد علي شكل مثلث من دنقلا وحلفا بها أراض عالية الخصوبة ، ومستوية . ويوجد في جوفها أكبر مستودع للمياه في أفريقيا والعالم العربي علي الإطلاق . (إذ تبلغ سعة هذا الحوض حوالي (٥٠٠.٥٠٠) مليون متر معكب في حين .. تقع هذه المياه الجوفية .. في أعماق لاتتجاوز الـ(٥٠) متراً بأي حال بينما تنخفض حتي ١٥ متر) . هذه الكميات الهائلة من المياه حتماً تنتظر من يفض بكارتها وخاصة أن تلك الدراسات تقول بأنها مياه عذبة وصالحة للإنسان والحيوان .. وحتي نسبة الأملاح فيها مع خلوها من المواد الضارة توصف بالمثالية .

هذا الكاتب وهو يقدم تلك «المقارنة» الرائعة بين التنمية والثقافة .. يحلم بأن توزع الأراضي الشاسعة علي الجمعيات التعاونية للنوبيين من دنقلا حتي حلفا .. ويحلم بزراعة هذه الأراضي .. موالح وتمور .. وحبوب بأنواعها .. ويحلم بحركة تصنيع غذائية (.. بمعايير ضبط جودة عالية للمنافسة في الاسواق العالمية .. هذا يستدعي إقامة المطارات .. والسكك الحديدية والطرق المعبدة فضلاً عن الجسور العديدة لتيسير التنقل من ضفه الي أخرى ..) أما في بقية تفاصيل هذا الحلم نجده يبحث عن أشكال الطاقة كالتوليد الحراري الذي يمكن أن يستورد وقوده من ليبيا .. ويبحث في إمكانية إستغلال الطاقة الشمسية والهواء .. حلم فيه النبل والواقعية . لايجب أن ينظر إليه بإعتباره أوهاماً مستحيلة .. أقول ذلك لسهولة الهروب لهذا الخيار وخاصة لدي (الخيال المريض والعقل الكسول) .

حلم قريب المنال إستطاع الكاتب ان يجعله يمشي في الاسواق علي أقدام من الأرقام والدراسات طارحاً نفسه للبطل النموذجي (النوبي) الذي ربما كان من مهجري كجبار من أراض المحس أو من مهجري (حلفا الجديدة) .

يختم حلم (أعمار الصحراء النوبية) بأنه إذا حدث كما قال .. (يمكن أن نطلب من أهالي حلفا المهاجرين العودة إلي أرض الأجداد لصنع الحضارة والرفاهية) ..!! لانريد أن نندفع مع هذه الأسطر الحبلي بالفرح لكي لانخرج من دائرة الازمة ، فأمامنا في الباب الثالث من هذا الكتاب مصر التي يتوجس منها الكاتب ، فيقول : إن في الأنباء محاولات مصرية لتعمير البحيرة .. فإذا أرادت أن تعمر بالنوبيين ففيه إعتراف .. وإن أرادت بغير النوبين ففيه إستهداف ثقافي للمجموعات الغير عربية ..!! وأمامنا أيضاً في الفصل الذي يليه (صفوة النوبين) . الذين قاوموا ثم أذعنوا قبل ان يتكسروا .. فهؤلاء إتخذوا بند التعويضات مدخلاً للمقاومة والمناورة . لهذا يري أن التفاصيل في ذلك قد إستغرقتهم حتي وقعوا في الشرك .. ومن المفارقات المضحكة التي تثيرها هذه الملاحظات الذكية .. أن التعويضات حتى في مستواها النقدي لم تكن مجزية (وذلك خلافاً لإستنتاجات الكاتب) .

هذا (الحلم المرقم) الذي لانريد أن نغادره عندما يتوغل في البعد الثقافي للتنمية يطالب بإدخال اللغة النوبية مادة دراسية جنباً إلي جنب مع العربية والإنجليزية . وهذا امر لا تكاد أذواقنا أن تستبينه تحت تأثير الأزمات المتلاحقة في خشم القربة .. كما أنه لايستطيع أولئك الذين يموتون غرقاً بالرفاصات المتهالكة أن يحلموا بالجسور التي تربط بين الضفتين .. ورغم أن العيب هنا في الأذواق (وهذا نوع من الشغل تحكمه العملية والتأني والصبر .. ولإنجاز هذا يتوجب رصد الميزانيات المطلوبة مع توفير الكادر البشري المؤهل ، كل ذلك من الضرائب المتحصل عليها من عائدات هذه المشاريع) . إذا توفر هذا الممكن (المستحيل) وهو الإنسان والمال .. كيف سننهض بالجانب الثقافي لكي تتم العملية بطريقة مركبة ..؟! والمجتمعات النوبية عصفت بها ما



عصفت بجزيرة صاي .. رغم أن فيها مجتمعاً نموذجياً في الإستقرار النسبي. بهذا الحلم يتقدم مشروع الدولة النوبية خطوات الي الامام . وهذه الدراسات تلقي في الروع شكلاً من أشكال دولة نوبية أو قل كياناً جديداً في شمال السودان . وهذا أمر ممكن دون أن يتعارض مع الوحدة والعروبة والثقافة الاسلامية .

كيف نغير الواقع؟!

(ان الانتباه الي حتمية قانون الحركة يحتاج منا الي تدريب شاق . لاننا انفسنا نتحرك مع الواقع فيصعب علي كثير منا ان يدرك الحركة ذاتها فيتصور ان الواقع حاضر)





الباب الثالث

من المسئول عن تشريد الحلفاويين ؟؟؟

الفصل الأول :

مصر .. المأزق الوجداني فى السودان

١. مصر قوة لا مبالية .

٢. أوهام ثقافية .

٣. ضحايا الأوهام .

الفصل الثانى :

١. إتفاقيات السد العالى (خطوات التراجع السودانى) .

٢. وكلاء النوبة وتمييع القضية .

٣. محاولات يائسة للمقاومة .

الفصل الأول :

مصر .. المأزق الوجداني فى السودان

١. مصر قوة لا مبالية .

٢. أوهام ثقافية .

٣. ضحايا الأوهام .

مصر قوة لا مبالية في السودان

بعد اسبوعين فقط من قيام ثورة يوليو في مصر ، جاءت شخصية سودانية تطلب مقابلة قائد الثورة ، وقد كان هذا الشخص يعمل سكرتيراً عاماً لحزب الأشقاء وهو حزب محمد نورالدين . ونورالدين فيما بعد هو رئيس هيئة وكلاء النوبة . لم يشأ أن يقابله عبدالناصر لأنه كان مشغولاً عنه ، فانتدب له صلاح سالم الذي إعتذر بدوره بحجة عدم معرفته لمجريات الأمور في السودان . يقول الكاتب محمد سعيد محمد الحسن في كتابه الصاغ صلاح سالم والسودان . فكر جمال عبدالناصر قليلاً وقال موجهاً حديثه اليه (أنت مسئول عن الجيش في السودان وده كمان من السودان الحكاية كلها واحده) .

بمثل هذه البساطة كانت ومازالت تعالج قضايا السودان في مصر ..! ورغم أننا لانود الوقوف كثيراً علي أسباب هذه الظاهرة التي تحكم العلاقات السودانية المصرية ولكن تبقي التساؤات ..؟ هل لأن السودان كما يقول سعد زغلول ملك لمصر تتصرف فيه مصر ، تصرف المالك في ملكة ..؟ أم لسهولة الإلتفاف علي العواطف السودانية . أم كان السودان بكل ما فيه ، إحتياطي مضمون للمصالح المصرية ..؟ ربما بعض هذه الأسباب أو كلها هي صحيحة ولكن الذي لاشك فيه أن السلطة المصرية منذ أمد بعيد كانت قد تعودت السهل . وهو شراء المواقف السودانية بالمال .. وقد أفاض السيد عبداللطيف البغدادي وحسين ذو الفقار في وصف عملية توزيع الرشاوي المصرية . في ذاك يقول عبداللطيف البغدادي عضو مجلس قيادة الثورة المصرية (وكان المجلس قد إستدعي كل من اللواء صالح حرب وزير الحربية الأسبق وكذا الأستاذ خليل إبراهيم (مفتش الري المصري) لإعطائنا صورة عن الموقف في السودان .. ولقد قاما بشرح الموقف موضحين أن قيام مصر برشوة كثير من السياسيين السودانيين والمشتغلين هناك ، كان له أثر سيء علي أغلبية أفراد الشعب السوداني ، حتي اصبح الشك يتناول كل شخص يتعاون مع مصر ، لإعتقادهم أن



وراء هذا التعاون منه رشوة قد حصل عليها من مصر ، وهذه الصورة السيئة جعلت الكثيرين ممن يؤمنون بالإتحاد مع مصر يبتعدون عن التعاون معها ، درءاً لهذا الشك) ..

ويقول البغدادي أيضاً في مذكراته ما يفيد بأن المصريين لم يقبلوا إستقلال السودان الا خوفاً من أن يسبقهم الإنجليز (إقترح عبدالفتاح حسن إعلان مصر للإستقلال فوراً حتى يصبح وكأن مصر هي التي أخذت بنفسها هذه الخطوة قبل تقرير المصير لأثبات حسن نيتها ولإعادة الثقة بين البلدين ، وذلك بدلاً من أن يحصل السودان علي إستقلاله رغم أرادتنا . وعلي أن تقوم مصر بعمل ميثاق وطني مع كل زعماء السودان يتم فيه الإتفاق علي مياه النيل) . أما قائد الجناح البكباشي حسين ذو الفقار صبري . يقول في كتابه (السيادة للسودان) ، انه كان عليه أن يلتقي بالزعماء الإستقلاليين ولكن «لم يكن مناسباً بالطبع أن اتخطي الاتحاديين ولكن لحسن الحظ لم يكن العثور عليهم سهلاً . وكانوا قد اصيبوا بالتخمة من التأييد المالي الهابط من القاهرة . يقيمون الدنيا ويقعدونها تجاه أي خطوة تهدد مصالحهم) . ويواصل واصفاً هذه الصورة المأساوية لزعماء الإستقلال .. (وكانوا عند تنازل الملك فاروق عن العرش ، قد تقاطروا علي رئاسة الجيش المصري ليعربوا عن تهانيهم الفياضة وتكاثرت زيارتهم ، ولكن كان يبدوا عليهم القلق لسبب ما ، ويخشون ان تتوقف المعونات المنتظمة .. ولما زالت الغشاوة عن ابصارهم يمم معظم هؤلاء الإتحاديين صوب القاهرة ليعسكروا فيها) ويقول أيضاً بأن حزب الأشقاء بدأ قوياً ، ولكن انفض الناس من حوله (حين تكاثر بالتدريج فيه تأييد مصر المالي بانتظام واصبح المال المصري مبعث تندر .. وزاد سمعته ضعفاً ، عندما ألقي قائد القوات المصرية اللواء البشاري ومراقب التعليم المصري في السودان محمد عبدالهادي ، بثقلهما وراء محمد نورالدين ، نائب الأزهري في رئاسة القسم ، كان البشاري وعبدالهادي يحملان نيابة عن القصر الملكي في القاهرة مفاتيح المال والثراء) . وعندما

رفض الأزهري الإنصياع لإراداتهما ، يقول ذو الفقار بأنهما (أي قائد الجيش المصري في السودان ورئيس البعثة التعليمية) . «اتخذا تحولاً رئيسياً بتوجيه مبالغ طائلة عبر محمد نور الدين ، ظناً منهما انهما بهذا الاسلوب يمكنانه من التغلب علي الازهري في الوقت الماسب . وقبل نور الدين تأييدهما ، وخضع لرغبتهما ، وكان هو الأقرب لرضا السيد علي الميرغنى) بالاضافة لهذه المضاعفات المذكورة للرشاوي . هناك قضية الارتباك المصري عندما تعالج الشأن السوداني أو تضطر للتعامل الجاد . فصلاح سالم الذي قادته المصادفة كما يقول بتولي شأن الملف السوداني لأنه كان يمكن أن يقوم به أي زميل آخر في مجلس قيادة الثورة لأنهم جميعاً كانت تتساوي معلوماتهم عن السودان .. عندما بدأ يشرع في تحريك الملف السوداني لم يجد في وزارة الخارجية المصرية قصاصة ورق واحده تشرح تصور الاحزاب السودانية للإتحاد والانفصال .. فقد كانت وزارة الخارجية (تعتذر بان الاتصالات السودانية انما كانت تتم عن طريق رؤساء الوزارات ، إذا قلبت مكاتب رئاسة مجلس الوزراء وإدراجها وارشيفها رأساً علي عقب فلن تستطيع أن تعثر علي حرف واحد يلقي بصيصاً من الضوء علي دقائق الموقف السياسي الداخلي في السودان ، وتفريع القوي بين جبهاته العديدة واحزابه وطوائفه . أما عن الجنوب فلا احد تقريباً في القاهرة أو في الخرطوم يعلم ما يحدث في هذه الغابة الموحشة) .

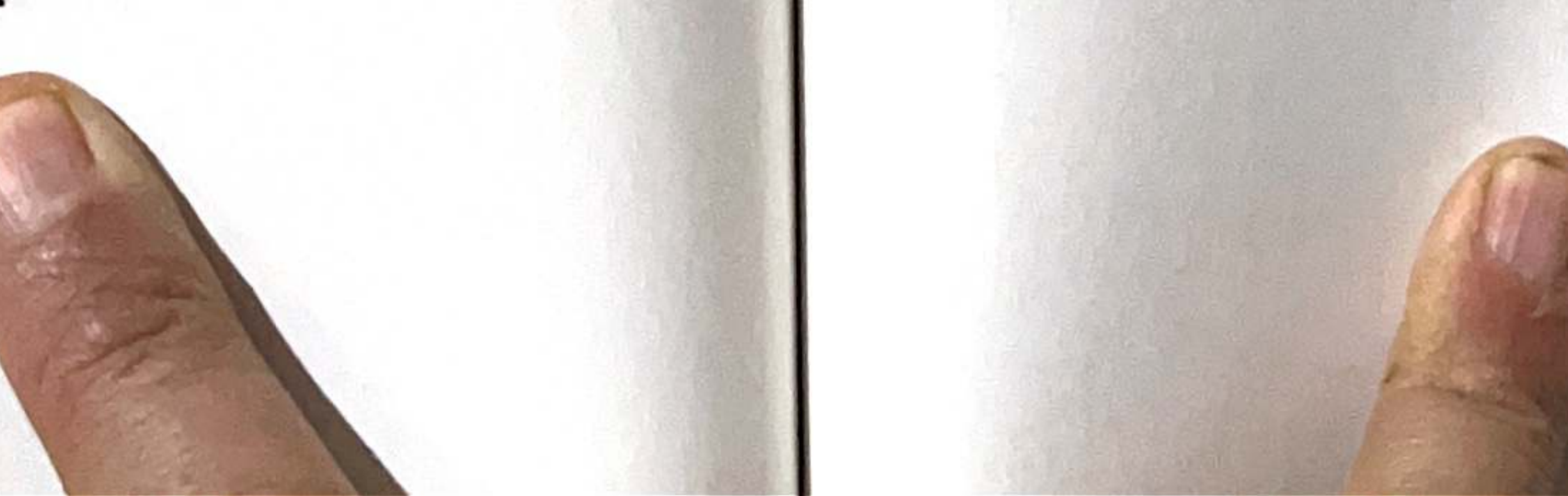
من المفارقات أن خضر عمر مندوب محمد نورالدين الذي قابله الصاغ صلاح سالم فيما بعد كان منفعلاً بالمصالح المصرية أكثر من المصرين انفسهم . ولا ندري سبب هذا الانفعال ، هل هو كراهية نور الدين للانجليز ؟ فقد كان يسمي بالمجاهد من كثرة دخوله السجن وإنفاق مافي جيبه الخاص علي الحزب .. أما كان الخوف من إنقطاع الأموال المصرية بعد الثورة كما لاحظ البغدادي !! أياً كان الأمر فقد كان السكرتير الخاص للحاكم العام صادقاً في ملاحظة ابداها في تقرير له في مايو ١٩٥٤م عندما قرر بأن السودانيين كانوا ضعفاء امام خداع المصرين .. والإنجليز

طبقاً لتلك الخطابات السرية التي نشرت فيما بعد ، لم يسألوا عن اسباب هذا الضعف تجاه مصر .. ولكنهم تعاملوا معها كواقع ، ربما لأنهم كانوا علي يقين من سوء الاستخدام المصري لتلك العواطف السودانية ، انتصروا اخيراً بفصل السودان عن مصر ، وفوجئت مصر ، فقد نقل الاستاذ محمد سعيد عن عبدالناصر بأنه قال بأن كثيراً من التقارير والمعلومات التي تلقاها أثناء تعامله مع القضية السودانية ، ومع الإتجاهات التي كانت سائدة أنذاك .. كانت غير صحيحة ، مما تسبب في وقوع اخطاء ، ومشاكل في مسألة العلاقة بين البلدين وخاصة في مسألة قيام الاتحاد بين مصر والسودان .



الرئيس عبود في جلسة استرخاء





أوهام ثقافية في السودان

العلاقات المصرية السودانية لكي تبقي معافاة في الجانب السوداني في حاجة ماسة لجيل معافي من اوهام التاريخ يعشق مصر من مركز قوة ، يستطيع مع ذالك أن يحفر ترعتي الرهد وكنانه ويبني الخزانات علي النيل ويحرر حلايب وأرقين .. الأجيال الحاضرة محكومة في الشأن المصري برؤيتين ، رؤية جيل الذكريات ورؤية الجيل الحاضر ، الجيل الأول لايقل حيرة عن الآخر ولكنه بحكم التاريخ الشخصي مضطر لحراسة أوهامه التاريخية بمفردات كاذبة ، يلهث خلف عاطفة مستحيلة التجسيد ، أما الجيل الثاني فهو من الشباب وإن كانوا الأقرب لمعطيات الواقع . ولكنهم مكبلون احياناً بقوة الثقل المصري علي الحياة الثقافية والسياسية في السودان.

العاطفة المعلقة التي لاتملك أقداماً راسخة في ثنايا الواقع ، تظهر بوضوح عندما يظهر أي خلاف سياسي بين الحكومات .. فعندما تدخل القوات العسكرية المصرية في حلايب ، رافضة للتحكيم دون أي اهتمام لموقف الطرف الآخر ، يجد جيل الذكريات نفسه في مأزق ، فلا يملك سوي التوغل في دروب (العشق المميت) ليجد نفسه في نهاية المطاف متشككاً في مسألة الحدود بين الاشقاء . وإذا سألتهم لماذا إنحاز السودانيون لخيار الاستقلال عن مصر ؟ يقولون لكي يتحدوا .. ويعتبرونه بأنه دليل علي عدم تدخل مصر في شئون السودان . والواقع يكذبه .. يجترون الذكريات بغبطة ليدللوا علي الكرم المصري بقصة السودانيين الذي ذابوا في المجتمع المصري . وعن الاستعمار المصري للسودان يعترفون بان المصريين لم يملكوا ذمام أمرهم الا بعد استقلال السودان . وهذا يعني ان تقليد المناصب للسودانيين لم يكن كرماً مصرياً . كل السياسات الخاطئة للحكومات المتعاقبة في مصر مبررة في نظرهم ، فهم مع إبداء بعض (الضجر) يعتبرونها حكاية موظفين وليست سياسة دولة .. عندما تتزاحم عليهم التناقضات لايملكون إجابة سوي رفضهم (السياسة) رغم أن السياسة

مهما كانت قتامتها هي أقوي التجليات الحية للثقافة السائدة . يطالبون بنعومه لا تقاوم بان يتركوهم ورصفاءهم في مصر (إن وجدوا) ليجتروا الذكريات فوق الانقاض ولتذهب (المليارات الثمانية) من المياه التي لم نستطع حتي الآن إستثمارها لان المصريين لايريدون . إذن ما هو الحل العلمي (العادل) في نظرهم لمسألة العلاقات السودانية المصرية ؟ الحل هو الرضوخ للشروط المصرية باعادة كل المباني (المنهوبة) ظلماً لمصر ، مع إدانة خفيفة لعملية (توحيد) المناهج والتي كانت في الاصل سبباً لكل ذلك .. والغريب ان هذه البعثات التعليمية حتي عندما كانت مصر قبل عصر (العولمة) البوابة الوحيدة للسودان المتطلع للعلم والمعرفة . لم تنجح الا في بعض المكاسب الصغيرة التي تصب في مصلحة مصر والتي نعاني منها الآن ، وهي خلق جيل يعمل لتشتيت الهمم كلما دعا الداعي للاعتماد علي النفس في عملية بناء الذات ، لخلق انسان الجيل القادم الذي علي يديه سيتم حفر الترعات وبناء السدود وعلي يديه أيضاً ستتم الوحدة مع مصر (الشقيقة) علي اساس الشراكة والندية والصحة النفسية ، ولكن من حسن الحظ رغم كثرتهم بين المثقفين من السهل أضعاف دورهم لأن الحكومة المصرية غير مكترثة لوجودهم !!

جيل الانفتاح في مصر لم يترك لعشاقه من السودانيين غير الحيرة والعذاب .. فالسياسة ادخلت في قضية (العلاقات الازلية) كثيراً من المفردات الكاذبة . لم تنجح البعثات التعليمية التي ظلت تتردد علي السودان منذ السلطنة الزرقاء . لانها في اغلب الاحوال قصد بها الاختراق الامني .. كما ظهرت في مذكرات البغدادي وذو الفقار عندما تكلما عن دور رئيس البعثة التعليمية ووكيل الري في توزيع الرشاوي .

هذه البعثات كانت ذراعاً ثقافياً لواقع ظالم كما في العهد التركي (علماء الازهر) او في الحملة الانجليزية فيما بعد . أما الدليل الاوضح للفشل ، هو اننا نناقش حتي الآن حلاً لمسألة العلاقات . وإن كانت هناك نجاحات صغيرة فانها تصب في مصلحة مصر مثل تلك (الولاءات المحلية) التي تعتبر نفسها حارسة للمصالح المصرية ..!



وهذه الولاءات من جهة أخرى تحملت جانباً كبيراً من مسئولية ترسيخ التخلف ، والذي قاد بدوره مع اسباب اخري الي جعل السودان لايستطيع استهلاك نصيبه من مياه النيل وذلك بتغييب وعي المثقفين واهدار طاقتهم ..!

وهناك بعض النجاحات لهذه البعثات كادت أن لاتكون صغيرة لانها بقايا محاولات جادة للتعليم قبل أن تظهر قاعدة (نمسك جحش ونفك حمار) مع جيل الانفتاح .. ولكن هذه النجاحات مع تقلبات السياسة استحالت الي (وهم ثقافي) تغلغل في الوجدان السوداني حتي صار مجرد التفكير في عملية الاستلاب هذه تثير الرعب عند المثقف وعند الآخرين تثير الاستغراب .

تداعيات هذا الوهم امتدت لمسألة المواطنة . فليس من السهل الفصل بين الخيانة والولاء للوطن في مسألة العلاقات المصرية . ومن السهل أن تجد من يقول لك بأن حلايب (مصرية) فقط لأنه يعارض «الإنقاذ» رغم أن المشكلة قديمة ولاخلاف بين السودانيين في هذا الامر ، فهؤلاء لم يتعلموا من المعارضة المصرية التي لم تقل بأن حلايب سودانية ولكنهم طالبوا بالتحكيم .. ومن تداعيات هذا (الوهم الثقافي) أن مصر في الذهن السوداني أقوي بكثير مما هي في الواقع!!

الجيل الحائر يسأل الآن ماهي الفوائد الإقتصادية التي نجنيها من المصريين سوي (تجارة الشنطة) والتجارة المنظمة التي تميل للجيب المصري ، وبعض الزيارات الطبية التي توجهت الآن للإردن ؟ الفوائد المقصودة بالطبع قياساً لما يقال عن العلاقات .. النتجة بالطبع حائرة . والسبب في ذلك أن هذا الجيل ينطلق من مقدمات غير صحيحة أو ضعيفة فهم تحت وطأة (الوهم الثقافي) لايدرون انهم يلوكون مقولات قديمة قد تغيرت الآن ، كمثل قولهم السودان يملك الارض ومصر تملك المال والعلم والخبرة . مصر لاتملك مالاً . (٧٧٪) من دخلها اعانات خارجية ، أما العلم اذا كان المقصود قياساً لما في السودان فالكلام فيه لم يعد يجدي في عصر (العولمة) وتعدد المصادر .. أما الخبرة إذا كان المقصود هو (الفلاح المصري) فقد أصبح بالفيديو

«حدوتة قديمة» يحكيها للسودانيين اسامة انور عكاشه في مسلسلاته صباح مساء .
وحتي هذه الحكاوي التي بقيت كتراث اشترتها استديوهات الخليج .. حتي ولو بقي شيء من هذه العناصر الثلاثة يمكن ان تتم بها استثمار ، هناك قضية مهمة غائبة وهي (الإرادة) ولكن من سوء الحظ غيابها بقدر اهميتها .

مصر الآن تعاني من حالات الهبوط المعنوي الحاد فهي منذ هزيمة يوليوكانت تعاني ، ولكن وتيرتها قد اشتدت الآن لدرجة التأثير علي الذكاء القديم . فهي لم تعد تفهم ما الذي يجري في السودان ، كل الذي تريده هي انها تريد أن تبنى دولة في السودان ، كل افرادها من جيل الذكريات وهذا مستحيل لأن التاريخ قد تجاوزهم .

تطلعات شعوب وادي النيل للوحدة حقيقة اصبحت الآن في عصر العولمة ضرورة مقدسة ، رغم ذلك بقيت ذكريات يلوكها بعض افراد ذلك الجيل ، الذي شارك في بعض فصولها ، دعوات في أحسن احولها توقظ في المستمع المشفق لحظات فرح لاتلبس وان تتلاشي في ظلمة الواقع الكئيب ، اما تلك الومضات التاريخية التي كانت تتخلل بعض فترات التاريخ خلقت في السودانيين قيماً اثمرت نتائج عكسية ، حتي اصبحت مصر عقبة امام كل محاولة لاصلاح الحال وهذه (الحالة) سميناها بالوهم الثقافي .. هذا الوهم الثقافي امتدت آثاره حتي لتصرفاتنا العفوية .. فمصر التي تضخمت صورتها في اذهاننا استطاعت ان تشكل المعايير في وجداننا الي حد كبير ، اذا فاز فريق لنا علي فريق لهم ، احتفلنا في السودان كأننا بلغنا نهايات كأس العالم . بل اصابتنا الحيرة مرة عندما انتصرت الموردة علي الهلال وكان الاخير قد خرج لتوه منتصراً علي (الزمالك) .. والحيرة سببها اننا نسينا ان الزمالك مدعوم باستلاب ثقافي ومدعوم بالمسلسلات وجامعة الفرع .. ولا انسي ان الارتباك بلغ بأحد لاعبينا في استاد القاهرة يوماً حد تسجيل (هدف) في مرمانا !! وربما كان من آثار هذا الوهم ان اندلقت (القهوة) علي بدلة وزير خارجيتنا وهو يتأهب لمقابلة الرئيس المصري .. استفادت الحكومات المصرية من هذه «الحالة» في تمرير



مصالحها بشروطها علي السودان .. فالسودان مثلاً لم يستطع ان يشارك العرب مقاطعة السادات بحجة العلاقات الخاصة وهي كانت في الاصل تعبر عن (عجز خاص) ، حتي قادنا هذا العجز الخاص لفضيحة تاريخية بترحيل الفلاشا .. فالاختراق الاسرائيلي دخل من هذا الباب .. وستظل تلك الاهانة جرحاً غائراً في الكرامة السودانية لاجيال قادمة .. هل يملك جيل الذكريات الاجابة علي السؤال التالي .. هل كانت مصر ستقدم تضحية من أجل المصالح السودانية بحجم اغراق مدينة وادي حلفا ؟ ما كان هذا ممكناً لانهم ساوموا حتي في التعويض . فقد دفعوا جزءاً من المبلغ علي شكل (سكر) من انتاجهم المحلي . اما في مصالحهم الآنية ، عندما يريدون شيئاً من الخرطوم .. فقط يلوحون بسياسة (الريق الحلو) فتسمع هنا وهناك بالمفردات القديمة وحكاية (نمولي والاسكندرية) فيهرول الوزراء من هنا حاملين أكثر من المطلوب ولا بأس بعد ذلك (بشد الأذن) اذا حدث مالا يروق لهم . اوهام الثقافة هذه ، افرخت مفارقات واجواء لاحصر لها في السودان ، يسمونها في مصر (الحساسية السودانية) وهي كلمات مزينة ومهذبة لتمرير نشوة الانتصار .. ولكن كيف يبدأ العلاج ؟.. بموقف رمزي يجب ان يكون فيه نوع من التعطيل المؤقت لآليات الاختراق الثافي والامني ، واقول رمزي لاستحالة العزلة والقطيعة في عصر العولمة .. وفيه تغليب للمصلحة السودانية دون الانجرار خلف العواطف الساذجة . وفي العلاج الثقافي المطلوب ، تجريب شروط جديدة لعمليات بناء الذات .. المصريون وجدوا في السودان حتي فرصة تغيير المناهج (محاولات محي الدين صابر) والنتيجة لمن اراد موجوده في «الخدمة المدنية والعسكرية» البضاعة التي يعرضها علينا جيل الانفتاح في مصر بضاعة كاسدة لاتصلح حتي لإصلاح الحال هناك ، والانفجار الاجتماعي هنالك دليل علي ما نقول .. رغم المئات والالوف من الخريجين في التخصصات النظرية (وليست العلمية بالطبع) ، السودان في ذيل الدول المتخلفة .

التطلع للوحدة رغبة مقدسة لاشك فيها ، وفيها اتساق مع روح العصر ولكن تيار

العولمة لا يداوي الا بعد ان ينظف الجرح اولاً . فالوحدة او العلاقة الخاصة المطلوبة .. فيها الندية والشراكة ، وحب الاقوياء خالياً من امراض احتقار الذات . فيها إزالة لآثار الغبن .. ماذا لو شاركت مصر في اعادة تسكين ضحايا التهجير حول البحيرة ؟؟ اذا كانت بالفعل حريصة لعلاقة ازلية لاوجود لها بدون هؤلاء .. الا يمكن تخصيص نسبة ضئيلة من تلك الارباح التي تعددها (كراسات السد العالي) لدعم عمليات إعادة تسكين هؤلاء حول البحيرة وهو إقتراح مصري قديم ؟؟ مجرد أسئلة .. لاننتظر جواباً إلا إذا أرادوا عربون علاقة جديدة وقوية ومصالح مشتركة في ظروف فيها يتراجع نصيب الفرد من الماء .

أغنية شعبية !!

الله .. ليه .. جاهل صغير وحمامه ..

الله .. ليه .. ودوه خشم القربة يا الله عودة سلامه ..

الفنانة عائشة الفلاتية



الأوهام والضحايا (الأختراق المصرى)

الاهتمام المصري بمشروع السد العالي ربما يمتد الي عام ١٩٤٣م ، قبل انقلاب عبود بزمن طويل ، أما عمليات الدراسات الجادة للتنفيذ فقد بدأت كما هو معلوم مع ثورة عبدالناصر في يوليو ١٩٥٢م . اهتمامهم كان منصباً حين ذاك في مباحثات البنك الدولي وقضية التمويل أكثر من أي شيء أخر .. حتي ولو كان رأي السودانيين . باعتبارهم شركاء في ثلث البحيرة (١٧٠) كيلو . ومن المفارقات المضحكة ، أن ساستنا كانوا يبحثون عن فتات المعلومة من كراسات وزارة الأشغال المصرية ..!! وقد ذكروا أن الأزهرى تحصل علي الكتيب الذي كان يتحدث عن مشروع السد واضاءة يحي الفضلي .. والقضية هنا يجب ألا تنتهي عند (الثقة) وهذا تبرير قد تجده عن الاشقاء . ولكن القضية في ثقة المصرين المطلقة في قدرتهم علي التأثير في مراكز القرار .. عن طريق الاحزاب الإتحادية في زمن الديمقراطيات ، والزرع بين صفوف الضباط في زمن الحكومات العسرية . هناك ملفات مهولة في قضية التسليم والتسلم ، والأسئلة الي يجب أن نبحث لها عن إجابة .. هي علاقة عبدالله خليل وعبود وموقع مصر بينهما .. وهل مسألة الضيق بحكومة السيدين تكفى تفسيراً لقيام إنقلاب ..؟! وأين هي المواقف المفتعلة التي ذكرها عبود ..؟ هل هي مواقف خضر حمد وميرغني حمزة في المفاوضات التي سبقت انقلاب عبود ، وذلك عندما طالب بتعويض يفوق كثيراً ذلك الذي قبل به طلعت فريد فيها بعد؟ . ملفات يجب أن تفتح بمزيد من الأسئلة عن الاقاويل التي تضاربت آنذاك حول دوافع التأيد المصري.

بعض فقرات كتاب محمد سعيد محمد الحسن تقول : (وجاءت إجابة أخرى أشارت الي أن الرئيس جمال عبدالناصر وقد ضاق ذرعاً بحكومة السيد عبدالله خليل التي تعمدت عدم الوصول إلي اتفاق بشأن مياه النيل وبالتالي تنفيذ مشروعه الكبير الحيوي أي إقامة السد العالى . فقد فضل التعامل مع العسكر..) يذكر المصدر نفسه في مكان آخر بأن السودانيين (.. أخذوا علي رئيس الوفد السوداني طلعت فريد

العجلة ، خاصة فيما يتعلق بالفترة الزمنية لترحيل أهالي حلفا ، بعد الموافقة علي قيام السد ..) المفارقة في ان الثورة التي اطاحت بعبود قد انفجرت عند وصول الافواج الاخيره من الحلفاويين للمناطق الجديدة .. هل كان في هذا قدرة فائقة من المصرين بتقدير عمر حكومة عبود أم قدرة فائقة في إختراق الحياة السياسية في السودان ..؟ المعلومات الإستخبارية التي كانت تتحدث عن نشاطات الملحق العسكري للسفارة المصرية قبيل الانقلاب ، ورسالة السفير السوداني في القاهرة والتي حملت معلومات غير صحيحة عن اجتماعات الاتحاديين والتي علي اثرها سلم عبدالله خليل السلطة لعبود . وكذلك ماحكاه أحد اعضاء مجلس عبود عن ملاحقة الصاغ صلاح سالم الضباط الكبار في مجالسهم شاكياً لهم السياسيين امثال ميرغنى حمزة الذي طرده من المجلس عندما تدخل في اختيار الوزراء .. كل هذه الوقائع مفيدة كحيثيات لإتهام الحكومة النوفمبرية بانها كانت صنيعه مصرية .. أسئلة كثيرة ودلائل كلها تشير للدور المصري في تشكيل السياسة المحلية .. والهدف من كل ذلك كانت مياه النيل .

انقسامات الاتحاديين دفعت المصريين ليخترقوا حزب الأمة وعن طريق هذا الحزب سلموا السلطة للعساكر الذين تم تجنيد اكثرهم لتمرير المصالح المصرية . وما كانت ملاحقات صلاح سالم تلك ، بعيدة عن عمليات التجنيد هذه . ويجب أن لا ننسى أن ميرغنى حمزة كان ملاحقاً من قبل المصريين لمواقفه الصلبة في اتفاقية مياه النيل .. فحص علاقات صلاح سالم بضباط جيش عبود ضرورة .. ويجب ان نقر بأن اولي الخطايا السياسية بعد الاستقلال ارتكبت علي يد عبدالله خليل ، عندما فتح شهية الجيش في السياسة وبدأ مسلسل الانقلابات منذ ذلك التاريخ . هذا الخلط في الاوراق ادي في نهاية المطاف الي تشريد الحلفاويين وترحيل الفلاشا ولاندري الذي سيدخل علينا طالما بقيت الحقائق والمحكمات التاريخية غائبة . فالذي لاشك فيه أن منافذ هذه الخطايا ، كانت في الوعي المغيب للشعب السوداني وسهولة اختراقه . وربما لهذا مازالت الشخصيات المغامرة والزعامات الغير رشيدة تراهن علي الحرية



والديمقراطية في السودان ،

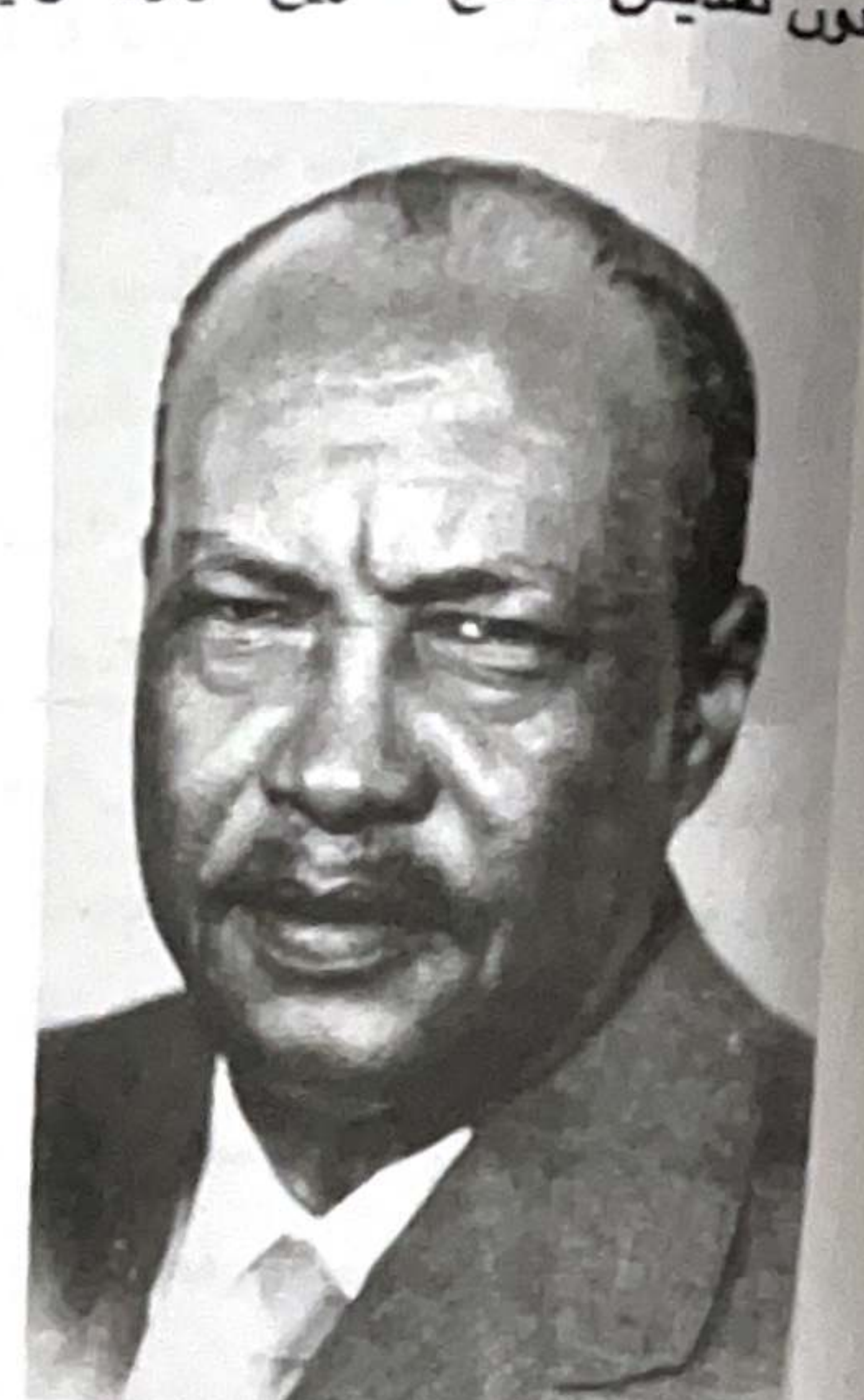
يبدو أن اللواء طلعت فريد من دون اقرانه لعب دوراً كبيراً في تمرير (الاخفاقات التاريخية) وكان الامر يتطلب محاكمات لكي لاترحل الاخطاء للأجيال كما حدث في قضية الفلاشا . فالاخطاء تكررت من حكومة عسكرية بنفس درجة التفريط .. ولكن لسوء الحظ لم تكن ثورة اكتوبر أكثر من نزوة غير مقدسة لطائفة من المثقفين وجدوا دوراً في فوضى احدثها تردد عبود . لهذا خمدت الشعارات لمجرد أن تم توزيع غنائم ماركبوا لها خيلاً ولا ركاباً.

تحت عنوان مفاوضات مياه النيل يقول مؤلف كتاب (قصة اختفاء اجمل مدينة سودانية) .. «بدأت المفاوضات بين الجانبين السوداني برئاسة الواء طلعت فريد والمصري برئاسة السيد زكريا محي الدين .. وفاجأ اللواء طلعت فريد الجانب المصري وأعضاء الوفد بالقول أن لديه تعليمات واضحة من الفريق عبود بالوصول الي اتفاق بشأن كافة القضايا المشتركة وذلك لاعلان هذا الاتفاق في الذكري الاولي للحركة المباركة «يقصد ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م»-انظر من اجل هذه الاهداف الصغيرة كيف كان الاصرار .. وكيف تم تجاوز العشرات من التفاصيل الفنية الضرورية .. وانظر كيف تجسدت المأساة في الواقع .. عملية التفريط انطلقت من هنا بوضوح .. كان من آثار هذه الاتفاقية انقراض شريحة كبيرة من الشعب النوبي . وكان من آثارها ايضاً ضياع ملايين الجنيهات «٢٠مليون في التقديرات المتواضعة» . وكان أيضاً ضياع آثار تاريخية كان يرجي منها الكثير في إثراء الحياة الثقافية في السودان .

هذا الإصرار المذكور من قبل اللواء طلعت فريد في اتمام الاتفاقية في وقت وجيز بحجة تنفيذ رغبة عبود في الاحتفال بالاتفاقية في اعياد الثورة لم تكن مقنعة .. ويجب أن تظل مصدر تساؤل .. ما عرف عن عبود الانفعال في التفاصيل الصغيرة ، والبحث في شكل واسباب التسلم في بداية الانقلاب ، وفي تنازله عن الحكم في اكتوبر ، ترينا



الكثير من زوايا هذه الشخصية .. وربما عدم انفعاله ذاك مع جهة أخرى كان سبباً في إختياره ليلعب دور الملك في رقعة «الشطرنج» وهناك أسئلة .. لماذا كان هذا الدور المريب في طبع الإتفاقية وترحيل الجماهير بالقوة لامكنه مرفوضة من قبلهم . وتعمد التعتيم الاعلامي والمسارعة باستدعاء الجيش لاخماد الاحتجاجات .. ؟ هل كان لمجرد اشباع رغبة أو سيطرة مزاج عسكري «أحادي الاتجاه» ..؟ ام كان افتناناً بحجة مسنودة بفوائد خزان خشم القربة والمشروع المقام هنالك ..؟ وقد نقل عنه بانه يري الكلام عن حلفا نوعاً من «البكاء علي الاطلاع» .. لاندري .. ربما كانت هذه الخدمات المجانية لمصر ويمثل هذه السرعة جنيناً لولاءات عرقية قديمة أو كانت إنفعالاً بسحر عبدالناصر ..أو خوفاً علي الثورة العسكرية في السودان .. مهماً كانت صورة الحقيقة التي نبحث عنها هنا أو هناك كان هناك اختراقاً مصرياً للحياة السودانية استمر حتى بعد الاستقلال – وسنعود لهذا مرة أخري – وربما هذه الحقيقة الراسخة تصلح لتكون مع قضية تشريد الحلفاويين مجالاً خصباً للمحاكمة ، ويجب أن تفتح الملفات دون تقديس ساذج للتاريخ . واول من يجب أن نبدأ المحاكمة بهم هم النوبة أنفسهم .



عبـــد الله بك خليل
رئيس وزراء حكومة السيدين

الفصل الثاني:

1. إتفاقية السد العالي (خطوات التراجع السوداني)
2. وكلاء النوبة وتمييع القضية
3. محاولات يائسة للمقاومة

إتفاقية السد العالى (خطوات التراجع السودانى)

بهذه الفجوة الثقافية التي تقدم ذكرها ، تجمعت فصول المأساة . وفوق إنقضاض أمة من النوبة تم قيام السد ، المفاوض السوداني كان ضعيفاً لايعلم شيئاً عن حجم الخسائر ولايملك لها إحصائيات سوي ماوقف عندها السابقون في الجولات الفاشلة . كل الذي كان يعلمه أن هناك جفوة مفتعلة مع مصر في الجولات السابقة .. يجب ازالتها أما المفاوض المصري كان قوياً لامبالياً لأنه كما اسلفنا كان قد رتب المسرح . ولكن رغم ذلك لم يكن الفارق كبيراً فاذا أضاع الاول حقوق شعبه ، أكل المفاوض المصري من الاحتياطي الاستراتيجي .

معاناة المصريين في قضية السودان لمسناها في الصفحات السابقة أما كيف انهار الموقف السوداني في مفاوضات السد العالي ومن المسئول عنه ؟! هو موضوعنا الآن . عندما برزت الحاجة لزيادة الرقعة الزراعية في مشروع الجزيرة ، فيما عرف بامتداد المناقل كان لابد من بناء خزان الرصيرص ، وعليه كان لابد من تعديل اتفاقية ١٩٢٩م التي لم يكن السودان طرفاً فيها . في تلك الاتفاقية حددوا نصيب السودان في ٤ مليار متر مكعب من الماء مقابل ٤٨ لمصر رغم ان هناك جهات خبرة اجنبية محايدة ، افتت بان نصيب السودان لايقل عن العشرين ملياراً .. وقد نجحت مصر فيما بعد في انتزاع الاعتراف السوداني بهذا الحق . ربما الحاح الفنيين دفع حكومة ناقصة السيادة ، أن تتبنى أمر المطالبة باتفاقية جديدة لمياه النيل . ولأن مصر كانت مشغولة آنذاك بمعركتها مع الانجليز في امر الغاء إتفاقيات ١٨٩٩ - ٣٦ وتنصيب فاروق ملكاً علي مصر والسودان اعطت موافقة مبدئية لقيام خزان الرصيرص . وكان ذلك في اكتوبر ١٩٥١م . نزعم بذلك لأن الحكومة المصرية تلكأت فيما بعد وخاصة عقب قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢م فقد ظهرت شروط جديدة ، ترجمت فيما بعد باعلان فكرة السد العالي في ديسمبر ١٩٥٢م . المفاوض السوداني كان يرفض نصيب مصر في خزان الروصيرص ويرفض مبدأ الربط بين الخزان المذكور الذي تم الاتفاق عليه

في السابق وبين فكرة قيام السد العالي التي اقحمها المفاوض المصري . وصف الاستاذ محمد أحمد محجوب زعيم المعارضة في خطاب تاريخي في البرلمان عام ١٩٥٤م هذه المفاوضات وحدد مطالب مصر (طلبت مصر ثلثي ما سيخزن في خزان الروصيرص لمدة عشر سنوات رغم أننا وحدنا سندفع تكاليف ذلك الخزان . ويقول عندما أبدت حكومة أزهري الاولي قبولها لهذا الشرط ، عادت الحكومة المصرية وأصرت علي ربط موافقتها لتشييد خزان الروصيرص بتشييد السد العالي . ويقول الاستاذ في هذه المرافعة التاريخية بان مصر ليست ملامة علي ذلك ، فهي أن نادت في الماضي بالسيادة علي السودان أو بوحدة وادي النيل فما ذاك إلاّ إنها تريد السيطرة علي مياه النيل . والمسألة أعمق من الصدقات والعواطف . انها مسألة حياة او موت . ولمصر المعذرة ان بذلت أقصي طاقاتها لتحمي مصالحها الزراعية والاقتصادي . ولا مجال لان تتراخي مصر بسبب صداقتها لهذه الحكومة .. او لتلك ..) ماذا يريد المحجوب اذن بعد ان اعطي كل حقه .. يقول بالحرف (فلنكن عمليين ونواجه الامر الواقع بما يتطلبه من جمع الصفوف وتوحيد الكلمة لان هذه مشكلة قومية تتوقف عليها حياة السودان أو موته) هذا الاحساس العميق بالخطر ، الذي فاق فيه زعماء النوبة انفسهم كما سنري عندما نأتي لدور محمد نور الدين ، لن يستبينة السودان إلا عندما ينفض عن نفسه غبار العجز ويستغل نصيبه الـ(١٨) مليارمتر^3 من المياه . وحتي ذلك الحين ليس من الانصاف ان نظلم المفاوض المصري لانه اجبرنا علي تحمل نصيبنا من فاقدة المياه حتي اسوان . ولا عندما اجبرنا علي بيع منطقة حلفا بأبخس الاثمان ، ولان المسألة كما ذكر المحجوب مسألة حياة أو موت ، نقبل دون أن نتعجب ، إذا قيل لنا بان السلطات المصرية تقوم بتخريب المشاريع والخطط التي ترمي لاستغلال السودان لحصته المقررة منذ عشرات السنين كسد كجبار وخزان الحمداب وترعتي كنانه والرهد .. هذا التحليل الصائب من قبل محمد أحمد محجوب في التشخيص والعلاج من سوء الحظ لم يكن اكثر من عبقرية في المرافعة وقدرة فذة

علي الصياغة . لان الحزب الذي كان يمثله المحجوب وهو حزب الامة ، كان قد عقد اتفاقية سرية قبل عام من خطابه هذا ، سميت فيما بعد باتفاقية (جنتلمان) عقدت بين مصر وحزب الامة الذي كان يخشي علي نفسه من الرشاوي المصرية للاحزاب الاتحادية ، لانه كان يتطلع لعرش السودان ، في احدي بنود الاتفاقية اقر حزب الامة الاعتراف بنصيب مصر في اتفاقية ١٩٢٩م ، رغم أن السودان لم يكن طرفاً ، وقد استفادت مصر في اتفاقية ٥٩ ايما استفادة في تمرير هذا المطلب . هذه الحقائق التي تكشفت الآن تجعلنا ان نتفرج علي تحديات المحجوب خالية من الوهج ، وربما كان فيها التعجيز اكثر من أي شيء آخر . مطالبة النارية تلك تسيل لها لعاب شعب حلفا الذي يتقلب الآن في محرقة الموت البطيء ، فبعد ان تنبأ بكل هذا تفرج عليه وهو يطلق مطالبه النارية طالباً من الحكومة ان تتبناها . يقول يجب ان تعلن الحكومة (باننا لانعترف باتفاقية مياه النيل لسنة ١٩٢٩م وهي اتفاقية باطلة ولايقيدنا قانونا .. واننا سنشرع فوراً في تنفيذ خزان الرصيرص دون انتظار رأي أو موافقة حكومة مصر .. واننا لن نوافق علي السد العالي الا اذا اعطت لنا كل الضمانات ، وانه لن يكون سبباً في الفيضانات العالية لتغمر بلادنا وتغرقها) . وقفنا مع المحجوب باعتباره اقوي صوت معبر ، رغم اننا نعلم تناقضات السياسة ، فمن قبل رأينا ميرغني حمزة كيف وقف عارياً من أي سند حزبي عندما زادت جرعة الوطنية في مطالبه .

فشل مفاوضات سبتمبر ١٩٥٤م لم يعجب ازهري الذي كان يكابد ضغوطاً مثل السودنة والتمرد في الجنوب وتسليح الجيش ، وإعلان الاستقلال . وفوق هذه الازمات التي كانت تحيط بالأزهري كان لايملك سياسة مائية واضحة ، وربما لهذا اضطر لقبول استقالة ميرغني حمزة الذي اعلن صراحة خضوع الازهري للضغوط المصرية .

قبل مجيء جولة المفاوضات الثانية في ابريل ١٩٥٥م قام وزير الري السوداني خضر حمد بنشاط محموم في الاتصال بالمصريين ، حتي انه سافر مرتين للقاهرة في

الاسبوع الواحد وربما كل هذا استعجالاً لانجاز وطني كان متجسداً في قيام خزان الرصيرص أو خشم القربة . وكانت هناك ايضاً مشكلة التوازنات الداخلية في صفوف الاتحاديين ، فسياسات شد الأذن كانت احياناً تتم من خلال محمد نورالدين وربما لهذا اضطر ازهري للتخلص من نورالدين في اغسطس من نفس العام ، وعندها حسم أمره في مسألة إعلان الاستقلال من داخل البرلمان . وسط هذه التفاصيل المتشابكة والضغوط اضطر أزهري لقبول قيام السد العالي كأمر واقع ، ولكن عندما جلسوا للجولة الثانية كان المصريون قد تجاوزوا مطالبهم القديمة بمطالب فنية جديدة .. والحقيقة ان المفاوض المصري لم يكن يحرك مطالبه طبقاً لمواقف المفاوض السوداني الذي كان في الاصل يتراجع ، بل ان المفاوضات كانت محكومة بتطورات قضية السد العالي في مصر من تخطيط وتمويل .

كان اقتراح السد في الاصل من مهندسين اجانب (ادريان دليترس) و (لويجي جاليولي) والدراسات شارك فيها خبراء من امريكا وفرنسا والمانيا وسويسرا . واخذت الفكرة في تبلورها النهائي في ديسمبر ١٩٥٤م عندما اجمع الخبراء علي الموقع والتصميم وبرامج التنفيذ والوقت ، أما مسألة التمويل انتهت نهاية فعلية في ٢٧ ديسمبر ١٩٥٨م ، عند موافقة الاتحاد السوفيتي تمويل المرحلة الاولي من المشروع ، وذلك بعد أن سحب البنك الدولي عرض التمويل في يوليو ١٩٥٦م حتي أواخر عام ١٩٥٨م لم تكن الحكومة المصرية جادة وخاصة أن المفاوضات كانت رغبة سودانية أكثر من انها مصرية . ولكن عندما حان موعد التنفيذ كان من السهل عليهم كما ذكرنا من قبل ترتيب الاوضاع ، فكان انقلاب عبود في نوفمبر ٥٨ قبل التوقيع علي الاتفاقية بايام . وكانت بعد ذلك الخطوة قبل الاخيرة وهي اتفاقية مياه النيل في عام ١٩٥٩م ، وجاءت حاوية للمطالب المصرية القديمة ، كالتعويض مثلاً . ففي نوفمبر ١٩٥٣م ذكر الرئيس المصري بأن الحكومة المصرية قد خصصت مبلغ اثني عشر مليوناً من الجنيهات . ومع مراعاة فرق السعر والتقسيط . لانجد فرقاً كبيراً بين ما

طالبوا به وبين ما تم قبوله بعد كل تلك السنوات من الرفض .

من المفارقات العجيبة في هذه المرحلة ان الحكومة السودانية التي عجزت عن حماية وادي حلفا من الغرق ، آثرت ان تاخذ نصيبها من بقايا الضحية .. ! فبدلاً عن المدينة الحديثة التي اقترحها المصريون حول البحيرة في المفاوضات الاولي ، رأي السودانيون أن يستفيدوا من التعويضات في تنفيذ دراسات معدة من قبل لاقامة خزان بخشم القربة ، رفضوا الاقتراح المصري بحجة المحافظة علي السيادة . وكان ذلك علي حساب مواطنيهم ، وقوت شعبهم ، ففي تقريرها الختامي ذكرت لجنة توطين اهالي حلفا بان التكلفة الحقيقية لعملية التهجير بلغت مايقارب الـ(٣٧) مليون من الجنيهات والتعويض الذي ارادوا الاستفادة منه ١٥ مليون .

رغم أن مفاوضات خضر حمد وزير الري انتهت ككل المفاوضات السابقة الا انها هذه المرة كانت مفيدة للازهري ليفك بها عقدة تغيير موقفه لصف الاستقلاليين ، بعد ايام فقط من عودة خضر حمد من القاهرة أعلن الازهري موقفه الجديد صراحة . غطت عملية الاعلان عن الاستقلال علي كل الاحداث حتي أن احداً لم يلتفت للصرخة الشهيرة التي اطلقها وزير الري والقائلة (لا نريد أن ننتحر ولا نريد أن نقضي علي السودان) ولكن من سخرية التاريخ ان الذي خشيه خضر حمد تم علي يد طلعت فريد في اتفاقية ١٩٥٩م ، تماماً كما حدث ما كان يخشاه ميرغني حمزة علي يد خضر حمد وهو قبول السد العالي وربطه بخزان الرصيرص .

اما الجولة قبل الاخيرة عاد اليها ميرغني حمزة مرة أخري بنفس حرارته وصلابته السابقة ولكن وطنيته تلك كانت شبيهة بمواقف المحجوب في حزبه . كانت موقفاً (شخصياً) أكثر من انها مبدأ حزبي ، فضلاً عن ذلك مفاوضات ديسمبر١٩٥٧م لم تكن كسابقتها في عام ١٩٥٤م ، ففي هذه المرحلة ، بدأ التخطيط المصري في تهيأة الأوضاع التي كانت قد وصلت مراحل متقدمة ، كان قد تم اسقاط حكومة الازهري واقامة حكومة السيدين . ومن جهة اخري كانت السلطات المصرية تعمل علي تجنيد



ضباط للخيار العسكري .. أما في منطقة السد فمن تقارير مفتش حلفا نستطيع ان نستشف النشاط المحموم للمخابرات المصرية .

جدية الحكومة المصرية في التفاوض بدأت تظهر عند هذه المرحلة ، ويكفي ان عبدالناصر تدخل فيها ولكن رغم ذلك فشلت المفاوضات ، لهذا اضطرت مصر لسلاحها الاخير ، يذكر الاستاذ مصطفي طاهر في كتابه (السد العالي مأساة النوبيين) بان الديلي تلغراف نشرت في عددها الصادر في اول أكتوبر ١٩٥٨م تصريحاً لوزير «الشئون الاجتماعية السوداني وهو الناطق الرسمي باسم الحكومة يقول فيه :(ان العلاقات بين مصر والسودان في أسوأ حالاتها) وعندما سألت الصحيفة السيد الوزير ان كان يتوقع انقلاباً كانقلاب العراق فيرد الوزير (نحن نعتبر مصر جارة عربية ، ونعتقد انها من المحتمل ان تكون قد تعلمت من خبرتها السابقة الا تتدخل في شئون الدول ، أما اذا تدخلت فسنقابلها كما فعلنا في الماضي ، ورغم ذلك كله اتخذنا احتياطات معينة) .

ويقول المراسل بأن من بين هذه الاحتياطات طرد القنصل المصري علي خشبة الذي اتهم بتدبير حركة عبدالكريم قاسم . صحف غربية اخري كالهيرالد تربيون نقلت عنها بانها كانت تتحدث عن انقلاب يديره عبدالناصر . لم تكن هذه المعلومات مجرد شائعات مغرضة ، فقد كانت معلومة من جولات الصاغ صلاح سالم التي وقفنا عندها في سطور سابقة ، وربما تصريحات وزير دفاع حكومة ازهري خلف الله خالد ، خير شاهد علي دور مصر في تجنيد ضباط في قوة دفاع السودان . فقد نقل عنه بشير محمد سعيد في كتابه (خبايا واسرار في السياسة السودانية) .. بأنه اخطر الحكومة المصرية بانه (ملم بما يرمون اليه بتجنيد ضباط وانه يعتبر التلاعب بقوة دفاع السودان أنه غير ودي) ويذكر أنه نشر هذا عمداً كانذار للمصرين . وعلي لسان السكرتير الخاص للحاكم العام يقول اعرب الانجليز (عن خشيتهم من أن يحاول المصريون ، متي ما أكتشفوا أن جهدهم وأموالهم لاتحدث الاثر الذي ينشدونه في

حكومة ازهري ، ان يستبدلوها عسكرية) .

هذه بعض المخاوف التي نقلوها لقيادة الختمية آنذاك ، وهي بالطبع لم تكن من فراغ ، وقد حدث الاستبدال بعد سنوات قليلة بانقلاب عبود . لم يكن مستغرباً اذن اذا جاء عبود وأولى أهدافه هي (ازالة الجفوة المفتعلة مع مصر) خلاصة القضية أن أمر التقهقر في الموقف السوداني كان سببه عدم الرؤية في ترتيب الأولويات وسيطرة الاوهام . كان يجب حسم مسألة السيادة اولاً قبل البت في هذه الامور التي ظهرت آثارها السالبة علي الأجيال ، فالساحة السياسية لم تكن بحجم وطنية ميرغني حمزه ولا مطالب محمد أحمد محجوب لهذا لاغرابة في أمر المفاوض اذا جاء عام ٥٤ ليقبل مارفضه عام ١٩٥١م وهو نصيب مصر في خزان الرصيرص ، ولا غرابة ايضاً في قبول فكرة السد في ابريل ١٩٥٥م رغم الرفض المعروف لفكرة انشاء الخزانين .

تتواصل بعد ذلك خطوات التراجع حتي يفقد السودان حق التعويض العادل عندما قبلت التعويضات المنصوص عليها في اتفاقية ١٩٥٩م . للإنصاف والتاريخ ان الحكومة السودانية التي كانت في حاجة لتوسيع مشاريعها لم تجد سنداً كافياً ولا حماساً من زعماء النوبة، عندما كان المفاوض السوداني يقاوم في المفاوضات الاولي التي انتهت كلها بالفشل !! بل أن المفاوض احياناً كان مقيداً بمواقف .. الأستاذ محمد نورالدين نائب دائرة حلفا ، وقبل ان نأتي لشهادة زعيم المعارضة في ذلك علينا أن نقرر ، أن تقليل الخسائر كان ممكناً اذا تصدي النوبة الي فكرة السد عندما ابلغوا بها مبكراً عام ١٩٥٣م .



محمد أحمد محجوب .زعيم المعارضة ((مرافعة تاريخية في قضية السد العالي))

وكلاء النوبة وتمييع القضية

كل أعباء التواصل مع مصر حملها النوبة ، ولم يكتفوا بذلك بل لعبوا دور الوكيل .. وألقوا في روع السودانيين بأن الأمور تنتهي عند مصر (أم الدنيا) وتبتدأ .. بقايا هذا العشق القديم بقيت حتي الآن متجذرة في الاوهام الثقافية التي تكلمنا عنها والتي مازلنا مكبلين بها . فالسودان حائر الآن في مسألة الاراضي المحتلة من بينها أراضي في منطقة حلفا، يريد أن يتخلص منها ولو بحجة التحكيم .. وحتي هذا امر ترفضه مصر !! وقد ذكرنا مأزق النميري عندما طلب منه العرب مقاطعة مصر (كامب ديفيد) لم يستطع ان يتجاوز مصالحه الخاصة رغم اعترافه بالكرامة العربية المجروحة!

مأزق النميري هنا يذكرنا بمأزق النوبيين ، الذي عبر عنه المحجوب في برلمان حكومة ازهري الاولي فقد حكي زعيم المعارضة عن مفارقة مضحكة .. كان عليه ان يعري مواقف الحكومة الضعيفة في اتفاقية مياه النيل ، حرصاً علي حق الضحايا من المهجرين ، ولكنه في الوقت نفسه كان عليه أن يواجه محمد نورالدين نائب دائرة الحلفاويين !! في حجة قوية ولغة واضحة وبتحكم لاذع ذكر في خطابه الذي اشرنا اليه من قبل (ومصر لاتراعي حاجة السودان العاجلة للماء وتتجاهل ان السد العالي لن يفيد السودان في كثير او قليل بل سيضر به ، ويغمر جزءاً كبيراً من أراضيه في الشمال ، وسيشرد عدداً من السكان في الدائرة التي ينوب عنها السيد وزير الاشغال (محمد نورالدين) ، الذي وقف بالأمس في هذا المجلس يتغني بمحاسن الاتحاد او الوحدة . لا ادري ، وليس لنا ان نحول بينه وبين ما يهواه ، ولكنه قد وصلت به الجرأة ، رغم ما يهدد اهل دائرته من هلاك اقتصادي، ورغم ماسيحل بارض آبائهم واجدادهم وكل ما فيها من تراث وذكريات ، بلغت به الجرأة رغم كل ذلك ان يقول : (إن استقلال السودان ينافي منطق الواقع وحق الشعوب في الحرية الكرامة.)لماذا كانت جرأة الاستاذ محمد نور الدين في التغنى بمصر رغم الهلاك الذي كان ينتظر

قومه ؟ هل باع اصواتهم الانتخابية وهو من قادة الاشقاء الذين عرفوا بقدرتهم ومهارتهم في تعبئة الجماهير وتحريكها ؟ .. أسئلة ستظل تفرض نفسها مهما بلغنا من نتائج ولكن رغم ذلك نستطيع ان نقول .. ربما كان يستجيب لأشواق قومه ، لمصر في التكوين النوبي خصم وحكم لاسباب الجغرافيا والتاريخ وربما في هذا عشق تدفع الاجيال ثمنه الآن .

يصف مؤلف كتاب (قصة اختفاء اجمل مدينة سودانية) زيارة عبدالناصر للسودان عقب اعلان خشم القربة كخيار بالقوة (انتهت الرحلة بنتائج إيجابية وخابت تقارير وكالات الانباء التي تنبأت بمظاهرات عدوانية لعبد الناصر وخاصة من أهالي حلفا التي ستغرق بقيام السد العالي ، بل حدث العكس وجاء وفد من أهالي حلفا وحرص علي الاشتراك في جميع الاستقبالات الشعبية واحياناً بملابسهم المميزة لتأكيد الترحيب والتقدير لرئيس مصر وقد فرقوا تماماً بين ضرورة قيام السد العالي لصالح مصر وبين قرار الحكومة السودانية باختيار خشم القربة) .

المؤلف هنا مؤرخ يؤثر سلامة السرد بطريقة الحياد الآلي لانه لا مصلحة له في غيره . ولكن التفسير عندي لهذه الظاهرة ، هو سببه أما وعي غائب بالازمة التي تنتظرهم ، أو هو عدم ولاء للتربة ، والراجح عندي يشبه التفسير الاول لانه كذلك عند الأميين ، اما عند المثقفين السبب هو الاستلاب فلا نستطيع أن ندعي ان موقف نورالدين كان مدفوع الثمن .. لانه لم يكن طارئاً فقد نقل عنه بانه كان يلقب بالمجاهد لانه سجن مرات عديدة ابان الحكم البريطاني . ويقول الاستاذ محمد سعيد محمد الحسن في كتابه (الصاغ صلاح سالم) بانه (صرفت له مكافأة قدرها ٢٠ الف جنيه وهي مكافأة كبيرة آنذاك . انفقها كلها في العمل الوطني . عين وزيراً للاشغال في اول حكومة وطنية . وأسس حزب الاشقاء (جناح نورالدين) وكان متمسك بوحدة وادي النيل عن قناعة وثبات) ويقول صلاح سالم في مذكراته بانه اول صوت سوداني ايقظ قادة الثورة لكراهية الانجليز . ونقل عنه بانه كان يرافق موكب عبود عندما زار وادي



حلفا عقب توقيع اتفاقية السد العالي ، رغم انه من رموز العهد الديمقراطي !! فان مفهوم الوطنية لم يكن قد تبلور حينذاك وربما هذا التداخل باق في ذهن جيل الذكريات ويبدو بجلاء عند مشكلة حلايب ، أو هو بمعنى آخر (مأزق حلايب) الثقافية .. وهذه حالة سياسية مهدت لاغتيال جيل من النوبة في ارض البطانة .

عن طريق الاستاذ محمد نور الدين تم تمييع المواقف النوبية في قضية السد العالي .. منذ الوهلة الاولي . وتم اسكات الاصوات المؤثرة أو تحييد المراكز المؤثرة في المجتمعات النوبية . لقد قام في يناير ١٩٥٣م بتجميع الشخصيات النوبية المؤثرة وكون منهم (هيئة وكلاء النوبة) مهمتها ، الوكالة عن سكان بلاد النوبة والتحدث باسمهم !! وبالرغم من أن بيان التأسيس ذكر بأن هؤلاء أجتمعوا (علي اثر ما اذيع من أن السد الكبير الذي فكر في انشائه) الا أن الواضح أن وراء الاجتماع برنامج مدروس بدقة متناهية . فالاعلان المصري لقيام السد كان في جريدة الاهرام عدد ٢٦ ديسمبر١٩٥٢م وعودة نورالدين بعد اسابيع فقط من الاعلان ، وكان قد عاد لتوه من اجتماعات المصالحة التي تمت بين الاحزاب الاتحادية في القاهرة . ويبدو من الاحداث ، أن نورالدين كان مطلوباً منه ان يلعب في اتجاهين عند اهله النوبة . كان مطلوبا منه أن يحتوي آثار الصدمة وان يسكت الاصوات المعارضة باستقطاب مراكز القوة . وبالفعل تم تمرير القضية باعتبارها أمراً واقعاً وكان عليه في المستوي الحكومي أن يستغل وزنه الانتخابي لاضعاف الاصوات المعارضة كميرغني حمزة ، المحجوب وخضر حمد وهم وزراء ري ومعارضة ، ويبدو أن المهمة الاولي كانت الاهم لما لها من قدرة في إضفاء بعد اخلاقي باعتبار (اذا امسي صاحب الحق راضياً فما شأن القاضي بالقضية) !! بتكوين هيئة وكلاء النوبة ، استطاع توجيه آثار الصدمة الي مناقشة (درء آثار) قيام السد العالي بدلاً عن رفض الفكرة من أصلها ، وقد كان ممكنا ومفيداً حتي علي عملية التعويض لو حدث الرفض في تلك الفترة المبكرة .

أما آلية تبريد الانفعال النوبي تمت بطريقتين .. رشوة النوبة المتضررة والغير

متضررة (باعادة النظر في التعويضات القديمة) التي دفعت عند التعليات المتتالية للخزانات وكانت ابرزها تعويضات سنة ١٩٤٦م . اما الطريقة الاخري فكانت بتشتيت آثار الصدمة وسط التفاصيل الفنية باسم الدراسة ، وذلك بتكوين لجنة فنية من ابناء المنطقة للقيام بدراسة علمية ومفصلة لكل الجوانب المتصلة بالسد !! علي المستوي الاهلي نجحت المهمة ، فقد قام المهندسون والاطباء والتربويون والقانونيون والاقتصاديون بالمهمة خير قيام !! اما علي المستوي القومي فقد كان سهلاً ، فقد تبنت حكومة ازهري قبول فكرة السد رغم انشقاق محمد نورالدين في اغسطس ١٩٥٥م . هذا النجاح في المستوي الحكومي وفي صفوف النخبة من ابناء النوبة في الخرطوم ، لم يقف عنده المخطط .. فقد امتد ليقضي حتي علي الاصوات المعارضة في قري وازقة مدينة وادي حلفا .. كون نورالدين وفداً من هنالك لمقابلة الرئيس المصري في قرية ادندان !! وهي أخر قرية مصرية علي الحدود في نوفمبر ١٩٥٣م . والمفارقة هنا شكوي الجريح الي الغربان .. البحث اليأس عن الحل يبدو هنا بوضوح . فالانسان متقطع بين الرضوخ للقوة المصرية في الوقاع السياسي ولقوتها أيضاً في تشكيل الوجدان وبين الهلاك الماثل بتنفيذ اتفاقية السد ، ونورد هنا حادثة حكاها صاحب كتاب السد العالي ومأساة النوبيين ، تصور جانباً من ماكان يجري فقد ذكر ان شيئاً طريفاً سيذكره عرضاً (فقد تقدم السيد .. محمد توفيق ببلاغ لدي شرطة وادي حلفا متهماً محمد نورالدين (خصمه في الانتخابات) انه سيقود هذا الركب «وفد النوبه» الي داخل الاراضي المصرية لمقابلة محمد نجيب لرشوتهم ولكنه لم يذهب في اليوم الثاني لتأييد البلاغ وشطب علي اساسه).

هذا المدي البعيد الذي وصلت اليه السيطرة المصرية علي القرار السوداني ، يدفعنا للتساؤل عن مدي صحة نبؤة هدلستون ، الحاكم العام الانجليزي التي تقول (بأن السودان ليس اهلاً للحكم الذاتى او استقلال قبل عام ١٩٦٥م) . لم تكن قوة مصر في مخططاتها بقدر ماكانت في (قابلية السوداني) للاستجابة للخداع المصري



، فلو تأملنا مفارقة وفد وادي حلفا الذي كان يبحث عن الخلاص عند الرئيس المصري ومتغاضيا عن حكاية الرشاوي التي اثارها محمد توفيق سيينو لنا صحة هذا التفسير خاصة ان مصر نفسها كانت في السودان ناقصة السيادة ، وماسمي فيما بعد بمشكلة الباب نمره ١٠ ، كان احد تجليات تلك الحقيقة ، فقد كان هنا نظام بروتوكول في سراي الحاكم العام ينص علي أن يدخل قائد الجيش المصري في السودان الي السراي في الحفلات الرسمية من الباب رقم «٢» ، بعد سلسلة من الاحتجاجات اقتنعت بريطانيا ، ولكن رغم ذلك ينقل الاستاذ محمد سعيد محمد الحسن في كتابه قول صلاح سالم (فتح الباب رقم ١٠ ، في حين ان مصر خرجت رغم ذلك لوقت طويل جداً من كل الابواب في السودان ، وانفصلت عنه انفصالاً كاملاً في كل شيء)

رغم أن المبالغة والتهويل واردة في اوصاف صلاح سالم ، الا انه هنا اقرب الحقيقة ، وخير شاهد علي ذلك ما ذكرناه في صفحات سابقة عن غياب معلومات موثقة عن شئون السودان باعتبار ان السودان امتداد طبيعي للمملكة المصرية !!.

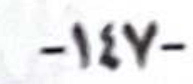
وفوق هذه الاسباب ان الصاغ صلاح سالم نفسه كان جزءاً من الأزمة باعتباره شخصية متقلبة المزاج ، كان من نصيبه أعقد الملفات التي اضطرت الثورة لمعالجتها ، وهي في عجلة من امرها خوفاً من أن يسبقهم الانجليز لشرف منح الاستقلال للسودانيين ، وكانوا قد شرعوا بالفعل ، ويكفي أنه وصف حاله مع شئون السودان بقوله (كان كل يوم من أيامي لوحة مضطربة غير متناسقة لفنان قلق وكأنه نثر كل الوانه علي صفحات الورق فتصارعت الوانها واختلطت ومن هنا عرفني الناس عصبياً اسير فوق اعصابي)

يبدو أن الخطة التي وضعتها الثورة المصرية لمعالجة القضية السودانية ، رغم نقاط الضعف التي ذكرناها كانت محكمة في انقاذ مايمكن انقاذه ، ففي تلك العجالة كان امام الثورة المصرية ان تضمن مياه النيل ان ضاع منها السودان كله ، ففي الوقت الذي كان فيه يوحدون الاحزاب الاتحادية الموالية لمصر ، كانوا يعقدون اتفاقية

(الجنتلمان) مع حزب الامة .. ففي الاتحاد يكون السودان برمته لمصر ، اما اذا نجح الانجليز في فصل السودان ، فليس هناك اقل من نصيب الاسد في مياه النيل ، لهذا في اتفاقية (الجنتلمان) انتزعوا اعتراف حزب الامة بنصيب مصر في اتفاقية ١٩٢٩م وقد حدث بالفعل الخيار الثاني .

سر القوة المصرية في السودان الآن في بقايا ذيول اشواق تاريخية مازالت عالقة في الوجدان ، تعرض نفسها ، كلما اصبحت المصالح المصرية موضوع بحث ، نتيجة للاحداث والصراعات التي تفرض نفسها من وقت لآخر ، لهذا نجد ميزان القوة يميل للجانب المصري ، حتي وهي في حالات ضعفها كما يحدث الآن ، فهي الآن لاتملك تحريك الاحداث ولا فهمها ولكنها تملك تحريك العواطف في السودان طبقاً لمصالحها.





السيد محمد نور الدين نائب
دائرة حلفا فى سنوات السد الاولى

محاولات يائسة للمقاومة !!

للحلفاوين الذين دفعوا ثمن الوهم الثقافي (للاشقاء) وأطماع المهدي لعرش السودان دور كبير في تعميق وتوسيع الضعف السوداني تجاه مصر . وعلي نفسها جنت براقش!! علي أكتاف النوبة تكونت الطائفتان .. الجالية النوبية هي التي كانت تمثل السودان وهي التي قدمت ازهري ونورالدين للبلاط المصري ، ولعب ابراهيم احمد نوراً خطيراً في تكوين حزب الامة فضلاً عن نور عبدالله خليل في رئاسه حكومة السيدين .. والنوبة هم وكلاء المصالح المصرية في السودان . وقد استفادت مصر (بسفارتهم) في عملية تمرير قضية السد التي جاءت علي حساب جيل منهم . وقد وقفنا مع خطاب المحجوب من قبل وقد كان عن هذه المفارقة !!

كان وكلاء النوبة في الجانب السوداني أهم هدف لمساعي مصر في تهيئة الاجواء لقبول فكرة السد العالي . فلقد ابلغتهم الحكومة المصرية قبل الشعب المصري ، عن طريق محمد نورالدين . ويبدو أن الاختيار قد وقع علي هؤلاء باعتبارهم واجهات اجتماعية للنوبة افرزتها الوظائف الادارية والاقتصادية .. لهؤلاء الدور البارز اذا كان الأمر أمر مراكز وصالونات باعتبارهم تجليات راقية للظاهرة النوبية ، توفرت لها شروط الاسترخاء الاقتصادي .

وكما وقفنا من قبل علي الجوانب المضيئة في هذه الشخصيات ، هنا نتعجب من أمرهم وهم في مجلس وكلاء النوبة كملوك شطرنج .. فباسمهم صدر ذلك البيان الذي ذكرنا تفاصيله وكان خلاصته . أن النوبة قد قبلوا قيام السد العالي كأمر واقع بعد أسابيع فقط من إعلانه في جريدة الاهرام في ٢٦ديسمبر١٩٥٢م .. وكما توقعت السلطات المصرية نتيجة لخطورة هذه الشخصيات ووزنها في المجتمع النوبي ، دفن الانفعال في المهد ! ومن المفارقات ان المحاولة اليتيمة التي قادها الاستاذ عبده دهب والتي سميت بلجنة (التجمع النوبي) .. رغم انها ذكرت بأن من أسباب الدعوة الجديدة أن (لجنة وكلاء النوبة التي سبق أن انتخبت برئاسة نورالدين لم تتحرك ازاء

الخطر الداهم ولم يعد يعرف عن نشاطها شيئاً) .. عادت واعترفت بعجزها عن الخروج من دائرة تأثير وكلاء النوبة عندما أقرت (عدم اللجوء الي تكوين جمعيات أو لجان اخري خارج لجنة وكلاء النوبة) .. معللة ذلك بحرصها علي وحدة النوبيين .

وربما هنالك سبب آخر يضاف لقوة التأثير تلك ، هو أن قيام (التجمع النوبي) جاء في أواخر عام ١٩٥٤م ، أي بعد مرور عامين من إعلان السد العالي ، وكان قد أصبح أمر قيام السد أمراً واقعاً لايرد ، وربما أخذ بعداً قومياً ، بعده لايملك النوبة مهما كانت تجمعاتهم التأثير في إتجاه القرار وخاصة أن هموم الاستقلال كانت قد طغت علي الأمر برمته .. وربما كان يرفع رأسه احياناً مع انفعالات ميرغني حمزة في الجولات الفاشلة لإتفاقيات مياه النيل .. ويعود أزهري ليناور به في قضايا الإستقلال والسودنة والمعونة ، وعندما إنقشعت هذه السحب ، جاء عبود وكان مضطراً ليتقرب بقضية السد العالي للحكومة المصرية . ولم يتورع في تقديم أهالي حلفا قرابينا لبقاء (الكاكي) في السياسة السودانية . لهذه الاسباب والتي كانت قد حدثت والتي لم تكن قد وقعت بعد ، كان طبيعياً أن تأتي قرارات لجنة (التجمع النوبي) حاملة معها الكثير من التجريد والهتاف .. فقد طالبت بمعارضة السد العالي ولم تقدم النموذج المنفعل أو الزعيم الذي يستطيع صياغة الواقع الثوري . وقد كان هذا الواقع جاهزاً بين الجماهير ، وربما الأمر هنا تعبير عن قضية قديمة موروثة في الثقافة النوبية فالافراط في التعاطي (اللغوي) يدفع الإنسان للتحليق حتى يغترب عن متطلبات الواقع فلو إضطر ليعود أو (للإعتراف) لابد له من إجتياز حواجز كثيفة من الخوف .. لهذا ربما هناك علاقة وثيقة بين الارض والخوف في اللغة النوبية ..!

وكانت من بين قرارات (التجمع النوبي) محاسبة لجنة وكلاء النوبة وهؤلاء يبدو أنهم كانوا قد استنفذوا أغراضهم ، ولم يحضروا حتي اجتماعات التجمع . أما القرار الثالث فقد كان يطالب بعقد مؤتمر وطني يدعي له أعضاء البرلمان والهيئات .. ولاندري ما الذي يمكن أن يفعله نواب «السيادة الناقصة» فقد كانوا فريقين ، أهل الاتحاد مع



مصر ، كان موقفكم حرجاً لإشتداد تيار الإستقلال . وقد كانوا في أمس الحاجة لتقديم قرابين لرضاء مصر لتقبل بالواقع الجديد ولم تكن هناك في تلك الآونة قضية تفتح شهية مصر أكثر من تمرير مصالحها في قضية السد . وربما هنا نستطيع أن نفهم سبب إستقالة ميرغني حمزة وزير الري .. اما الفريق الثاني فقد كان في المعارضة ولم يكن مهموماً في الأصل بهذه القضية سوي مرافعات محمد أحمد محجوب في البرلمان .

أما آخر قرارات لجنة (التجمع النوبي) فلم تكن أكثر من (تسجيل موقف) قد يصلح للتاريخ .. فقد قرروا إرسال برقيتين للحكومات المصرية والسودانية ! هكذا كان مصير أكثر المحاولات الجادة . أما المحاولات الأخري بعد ذلك إن وجدت كتصريحات ابراهيم أحمد وهو وزير في حكومة السيدين . أو مواجهات داؤد عبداللطيف مع حكومة عبود أو مظاهرات عام ١٩٦١م وما تلتها من إحتجاجات أو نصائح جمال محمد أحمد لضباط مجلس عبود . كل هذه المحاولات لم تكن أكثر من محاولات لإسكات عذاب الضمير حتي ولو بين جدران سجون عبود ، أو بتصريحات نارية محسوبة مع مصالح حزب .. أما المواقف هنا مهما كانت ، لاتقارن بمثل تلك التي باركت علنا خطوات عبود . كتلك البرقية التي ارسلها عبدالله خليل وهو أحد وكلاء النوبة (أهنئكم قلبياً بنجاح المفاوضات الذي كان الفضل فيها لحسن نيتكم وحكمتكم مما سيعود علي البلدين بالخير والرفاهية) .وعلي ذكر هذه البرقية تبدو لنا بوضوح واحدة من مفارقات وكلاء النوبة .. وذلك اذا قارناها بما نقل عن عبدالله خليل ، بانه قال لوفد اللجنة الشعبية لمشروع السد العالي .. وننقل عنه قوله .

(طول ما أنا قاعد في الكرسي ده – يعني رئاسة الحكومة – ما في حاجه اسمها السد العالي) .. وقد نقلوا عنه بانه طمأنهم بأن مثل هذه المشاريع الكبيرة لاتقوم دون موافقة الحكومات الأخري ، وعليه لابد من موافقة الحكومة السودانية وأيضاً لابد من اشراك الجهات الفنية لدراسته ومعرفة تحديد اثاره ، وذلك لأن المشروع سيؤدي إلي

اغراق مدينة وادي حلفا وقراها وترحيل اهلها . ولاننسي وسط هذه المحاولات اليائسة لمعارضة فكرة السد العالي .. كتاب (الغربان في سماء النوبة) الذي كان صاحبه ينادي بقيام الدولة النوبية من جنوب مصر حتي دنقلا .. فقد كان يري أن النوبيين ضحايا اطماع مصر وتهاون السودان . ولكي لايتفرقوا شمالاً وجنوباً عندما تصبح بلادهم مخزناً للمياه ويقومون بنحط الاعمال في مصر يجب النضال من أجل إقامة دولة منفصلة .. يجب أن لاننسي هذا الصوت . وليس ذلك لواقعية طرحه ولكن لانه صرخة فنان نابعة من أغوار بعيدة للجرح النوبي ووجدانه المقموع . ولانه أيضاً شكي من ضبابية المصير . صلابة موقفه كانت منصبة في رفض الفكرة من جذورها دون أن يتباكي علي خيارات مكان الرحيل . فخشم القربة ووادي الهوي وضواحي الخرطوم كلها عنده سواء .. اذكر ونحن علي اعتاب سن (المراهقة) كنا نري المثقفين الشباب وقد كانوا يسمون انفسهم (بالجيل الصاعد) يتخاطفونه بشغف حتي انني كنت اتحسر علي ذلك اليوم الذي ساستطيع فيه قراءة هذا الكتاب ولكن من سوء الحظ عندما تعلمنا القراءة كانت الغربان قد شبعت من لحوم القرابين ولم نسمع الا نقيق الضفادع في ليالي خشم القربة الرطبة .

كل محاولات الرفض هذه ، لم تكن بثقل زعماء النوبة الذين تم إختيارهم ، ولهذا لم يلتفت اليها احد . وربما آثر الاهالي غيبوبة الانتظار والسلامة مع حزب المحافظين ، عن خطورة الاقتحام والرفض مع الراديكاليين .. ولكن من سوء حظهم أن الحسابات لم تكن لتصب في هذه الحالة طبقاً لقوانين المنطق والواقع فهؤلاء علية القوم وسادتهم .. والانسان في مثل هذه المواقع كما ذكرنا عند تحليلنا لكتاب (ابراهيم أحمد حياة إنسان) إن آمن بضرورة التغيير لايطلبها الا من خلال قوانين الواقع . فالرفض ، والثورية والتصادم – والتي كانت لابد منها في مواجهة فكرة السد – قيم لم تكن يوما لها ركن في المزاج (الكثوليكي) المحافظ ، عندما تردد داؤد عبداللطيف قبول رئاسة لجنة توطين اهالي حلفا ، قيل ان جمال محمد احمد اقنعه بقوله (ان ما تخاف منه



سنضعه بانفسنا اذا لم نقبل المهمة) الاستاذ هنا يقبل بأي نسبة من الحقيقة ليغير الواقع . وربما من هذه القاعدة ينبعث سحر النموذج الانجليزي الذي شكل وجدان هذا الجيل (الانجليز السود) ولكن هذه الحكمة ما كان لها أن تقود لشيء لأنها جاءت متأخرة . فبإتفاقية ١٩٥٩م كانت قد إنتهت قضية قيام السد ، أما إختيار المكان كان قد تم بالفعل قبل خمس سنوات وكذلك التعويضات كانت قد حددت في الاتفاقية .

قبل السيد داؤد عبداللطيف رئاسة اللجنة واستمر لفترة قصيرة لم تتعد العام واقيل بعد ذلك والمهمة كانت في نهاية أمرها خدمة لحكومة عبود اكثر من انها انقاذ لمواقف المتضررين . اختيار أحد رموز المنطقة ساعد كثيراً في حل عقدة الوعود الكاذبة التي كان قد التزم بها عبود في زيارته لمنطقة حلفا ، من تلك الوعود التزامه باشراك المواطنين في رسم سياسات التوطين والتهجير والتعويض المجزي . علي لسان السيد داؤد تم الإعلان بأنّ (القرار في يد الحكومة) ، وفي ذلك ما يجافي ما التزم به عبود (من أن الحكومة ستلتزم بترحيل المواطنين الي المنطقة التي سيختارونها) .

وجود السيد داؤد عبداللطيف في منصبه هذا ازاح عن كاهل حكومة عبود الكثير من الاثقال ، وصدمه هذا القرار كانت تعد من اخطر الاثقال . كان طبيعياً أن يظهر من يلقي باللائمة علي داؤد ، وقد كان في الأصل لايملك الكثير في الرصيد الجماهيري .. ويبدو من سياق الاحداث ان داؤد كان علي علم بإختيار الحكومة (المسبق) لمنطقة خشم القربة منذ زمن طويل ، وربما في هذا الحال يعد إعلانه تمهيداً لذلك .. وفي ذلك يقول مؤلف كتاب (داؤد عبداللطيف) بانه كاد (ان يستقيل من منصبه منذ أول وهلة لولا تدخل البعض واثنائه عن ذلك ، خاصة أن داؤد كان يري أن منطقة خشم القربة – التي كانت تقع في دائرة اختصاص مديريته عندما كان مديراً لكسلا – منطقة غير صالحة (لاهالي حلفا) .

وهناك دور لعبه السيد داؤد لايقل خطورة عن الأدوار السابقة وهو التبرير الفكري لعملية التهجير ، ففي أول زيارة له بعد تعيينه رئيساً للجنة توطين اهالي حلفا ألقي خطاباً إمتدح فيه تقدير أهله للموقف واستعدادهم للتضحية من أجل الوطن الكبير !! وكان اخطر ما قاله هو .. (ان اجدادنا النوبيين القدامي قد هاجروا الي هذا المكان من مناطقهم داخل السودان من الآلاف السنين مخلفين وراءهم آثارهم . وفي هذه المنطقة خلقوا حضارة وخلفوا آثارها في بوهين وابو سمبل وغيرها من المعالم الاثرية . وربما تكون هجرة النوبيين مرة أخري إلي داخل السودان فاتحة خير) وقال لهم (فاذا وقع اختياركم علي شمال او جنوب الخرطوم أو الجزيرة أو نهر عطبره فانكم تعودون الي اوطان تركها اجدادكم منذ آلاف السنين) عن طريق هذه الشخصية الخطرة في المجتمع النوبي بثقله العائلي والوظيفي ، تم تمرير خدمة ما كان ليتجرأ عليها كل مفكري عبودومراكز دراساته .. خطورة هذا الدعم الفكري – بصرف النظر عن قوة المنطق وضعفه – لعمليات التهجير ، تجعل المقاومة اضعف مما كانت ، وقد تلقي في روع القلة المقاومة علاقة حميمة بين وادي حلفا وخشم القربة (التي لم تكن قد اعلن عنها) .

وان افترضنا جدلاً وجود أي نسبة من الحقيقة في هذه المزاعم فهي أن هذه المنطقة كانت مستنقعات وأحراش . قيل أن حكام النوبة كانوا يصطادون فيها الافيال والزراف كما يقول متوكل احمد أمين في كتابه (النوبة عبر القرون) واقوي مايقال عن (المصورات) وهي اقرب الآثار التاريخية لخشم القربة بأنها كانت إستراحات لرحلات الصيد هذه .

بعد أن تهيئت الأذهان بالطريقة التي وقفنا عندها . وإستطاع عبود أن يثير الضباب حول وعده القديم (رغبتكم هي رغبة الحكومة) .. جاءت مرحلة إعلان خشم القربة كخيار نهائي للتهجير رغم نتيجة الاستفتاء .. عند هذه المرحلة بدأ الخلاف طفيفاً بين داؤد والحكومة وكان حول مكان الاعلان .. فقد كان في رأي داؤد أن يتم



الإعلان في الخرطوم ، أما ضباط الثورة فقد قرروا (امعاناً في التحدي) علي إعلان في عقر دار اهل داؤد «مدينة حلفا» .

بعد إعلان خشم القربة كان لابد أن تظل العلاقة بين داؤد والحكومة لفترق طرق .. فالحكومة التي قبلت شروط داؤد عند تعيينه ولم تعد في حاجة إليه ، ولم تعد تتحمل (معاركه) لهذا تم إحالته للتقاعد الإجباري في ديسمبر ١٩٦٠م . إذن لماذا انتظر داؤد كل هذه المدة ولم يقدم إستقالته ..؟ الأمر هنا قابل للتفسيرات كما كان كذلك في أسباب اقالته .. ولكن رغم ذلك نستطيع ان نقول ان المزاج الشخصي والثقة بالخطط التي وضعها ، ونصيحة صديقه جمال محمد أحمد .. كل هذه العوامل دفعت السيد داؤد الصبر علي الحكومة ، يقول الاستاذ مصطفي محمد طاهر بان السيد داؤد شرح خطة قائلاً (الحكومة الآن تسير في طريق مسدود وستجد نفسها في مأزق في نهاية الطريق ، وعندها سوف يكون لنا حديث . ومن الأفضل أن نترك الحكومة تفعل ما تشاء في الوقت الحاضر ، لأنها في عنفوان شبابها وقوتها وعلينا أن ننتظر حتي تشيخ وتضعف) . وذكر مثلاً نوبيا (في معناه) انك لاتستطيع ان تحلب البقرة وهي تقف علي اليابسة وعليك ان تنتظر حتي تغوص بارجلها الاربعة في الوحل .. القضية هنا في صورتها العامة صحيحة وحكيمة ولكن الافتراضات لم تخلو من بعض التقديرات الغير موفقة للموقف . البقرة هنا لم تدخل الوحل أو ما كان يهمها الوحل أصلاً لهذا ذهبت بقرة داؤد بكل لبنها ! بالفعل شاخت حكومة عبود بل وسقطت بعد سنوات ثلاث . ولكن بعد أن أدت ما كان مطلوباً منها ، وهي تمرير المصالح المصرية وقوة مصر تكلمنا عنها من قبل .. وهي هنا واضحة حتي في احالة داؤد للتقاعد ..

وقد ذكر مؤلف الكتاب بأن عبدالناصر في زيارته للسودان آنذاك عبر عن مخاوفه من وجود السيد داؤد عبداللطيف . وقد نقل له الاستاذ محمد حسنين هيكل ذلك .. ومهما كانت صحة هذه الاخبار أن السيد داؤد في نهاية المطاف (وجد نفسه في دائرة مظلمة بعد أن أصبح المجلس الأعلي للقوات المسلحة يدير الامور بنفسه دون أن يعلم

أحمد ، حتي علي مستوي مجلس الوزراء ، حيث كانت كل المشاكل المتعلقة بالتهجير واختيار المنطقة تتم في اجتماعات المجلس العسكري في القصر) .. سعادة السيد داؤد بإحالته للمعاش لم تكن بأقل من سعادة حكومة عبود بالتخلص منه .. وقد يبدو هذا بوضوح في وقائع إبلاغه بخبر الاقالة .. فقد ذكر الاستاذ مصطفي محمد طاهر أن الاميرالاي أحمد مجذوب البحاري وزير داخلية عبود أكثر من إستعمال كلمة (ثورة) وهو يبلغه قرار الحكومة باقالته .. ذاكراً افضال ثورة عبود عليه وقدرة الثورة علي الحسم .. يقول المؤلف : عندها بادره داؤد بقوله (سعادتك انا بربري وما بعرف عربي كويس ثورة دي .. مؤنث بتاع ثور) .

بخروج السيد داؤد من رئاسة لجنة التوطين كانت قد إنطفأت القضية في مستواها السياسي .. وانتقل الأمر الي التفاصيل الفنية والشروع في التنفيذ . أما ما بقي من القضية فقد بقي علي شكل صراع بين العمد في منطقة حلفا .. المعارض من هؤلاء العمد كان قد انكشف ظهره ، أما الموالي للحكومة من العمد فقد اشتد خضوعه لحسن دفع الله (الحاكم العسكري) فلا غرابة إذن إذا أخذ (رجال الإدارة الأهلية يتبارون في إرسال البرقيات في مزايدات بدأت كانها اشبه بالنكاية في بعضهم البعض) ولا عجب من قول احدهم (لقد التف الناس هنا حول اختياركم الموفق لخشم القربة) ولا عجب كذلك من الآخر الذي رفع آيات الولاء (لزعيمنا المحبوب الرئيس عبود ورفاقه الميامين) .

الامور في نسقها الطبيعي اذا كان موقف هؤلاء العمد والمشايخ صدي لما كان يحدث في الخرطوم .. ولن يضيف الاستاذ مصطفي محمد طاهر جديداً ، اذا تهكم من هؤلاء .. باعتبارهم انهم قد بدلوا مواقفهم .. فلا يستقيم ان يقوم هؤلاء بأمر عجز عنه وكلاء النوبة في الخرطوم .

وتبقي الأسئلة :-

.. هكذا انعكست مواقف الصفوه علي الاهالي واشتدت الصراعات المحلية وتهاوت القضية ، وبرز من بين الصفوف من يقارن بين خشم القربة وخشم الجنة ..!! وبقيت



الأسئلة بكره ننتظر من الاجيال القادمة إجابة ؟؟

لماذا لم تثمر محاولات الرفض ..؟ وهل كل هذه الألوان التي ذكرناها من الترغيب والترهيب والاستلاب تكفى لتفسير انقياد الجماهير بهذه السهولة ؟ ألسنا نلمس شيئاً من اللامبالاة في سلوك الجماهير .. ووكلاء النوبة ؟!

ربما في هذه الإسئلة ما لايروق لك ولكن الذي لايجب أن نختلف عليه .. ان ارادة الرفض من قبل اهالي حلفا لم تكن بحجم القضية .. ذكر الاستاذ محمد سعيد محمد الحسن وهو صحفي رافق عبود عند زيارته للمنطقة .. بأن القري التي زارها عبود فاجأته بالاستقبال الحار وزغاريد النساء وترحاب العجائز ، حتي أن مشاعره إهتزت مرة وطفرت الدموع من عينيه ، ويقول انه كان بجانبه عندما مسح عيونه وهو يردد (إننا وافقنا علي قيام السيد العالي وعلي إغراق حلفا ، ورغم ذلك يحيطوننا بهذه المشاعر) .. * هل التساهل هنا له علاقة بالثقافة النوبية ؟! وهل التعلق المفرط باللغة النوبية يقلل من اسباب الارتباط بالارض ..؟

* هل حقائق الجغرافيا جعلت قضية الهجرة ممارسة قديمة ؟ .. وربما الهجرة الدائمة كانت سبباً في الارتباط المفرط باللغة .. حتي أصبح الوطن في وعائه الرمزي (الكلام) أهم بكثير من حفنة تراب ! ولأن الأمور هنا تأخذ برقاب بعضها نجد أن حقائق الجغرافيا قادتنا لمشكلة خطيرة اضعفت الموقف النوبي ، وهي انه لا يستطيع ان يقول شيئاً في حق مصر حتي وهو يغرق بسببه !! وهذا أمر قد بلغ حتى وجدان شاعر مفوه جاء ذكره في الفصل الأخير .

الباب الرابع

مجاهدات الفن النوبي فى تضميد جراحات الوجدان الممزق

الفصل الأول : نماذج من الفن النوبى المقاوم :

١. الفنان النوبي ولولي (أوجاع الروح)
٢. أغنية نوبية (أتذكر معى أرقين ؟!)
٣. عبده شيبون من كتاباته (أزمة المثقف من جيل الهجرة)

الفصل الثاني : صور الإنتماء :

١. الجروف في مضارب الحجياب .
٢. ليالي شيخ قرنين .
٣. معاني منقرضة .
٤. سيد إبراهيم .



الفصل الأول:

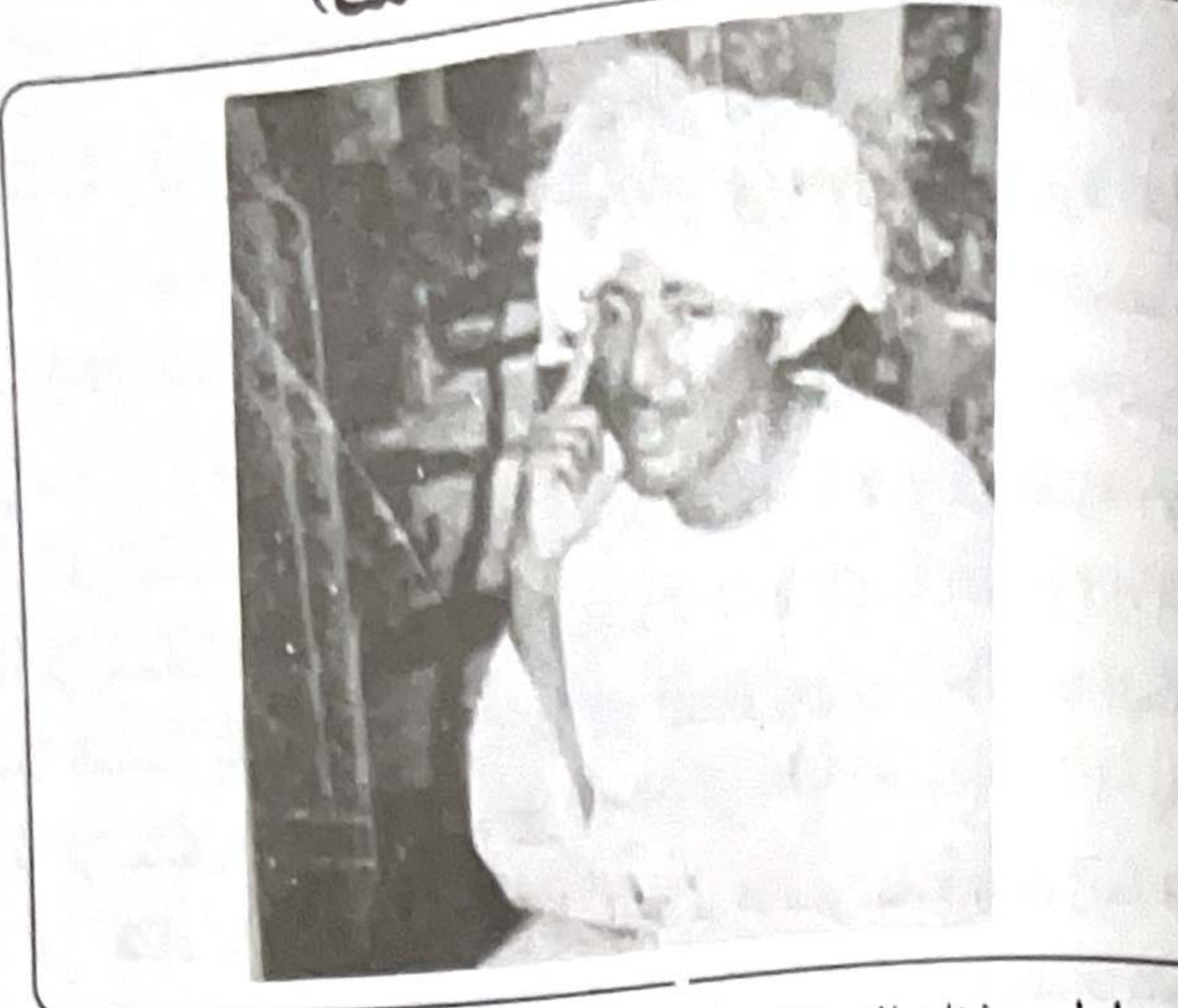
نماذج من الفن النوبى المقاوم :

١. الفنان النوبي ولولي (أوجاع الروح)

٢. أغنية نوبية (أتذكر معى أرقين ؟!)

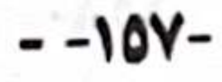
٣. عبده شيبون من كتاباته (أزمة المثقف من جيل الهجرة)

الفنان ولولي (أوجاع الروح)



صالح ولولي ، فنان النوبة المهاجره لأرض البطانة . حائز علي (الأبوه الفنية) بالتقادم، إذا إختلف الناس في إبداعه .. فهو مخضرم بين جيلين ، تصدي لمهمة (صياغة القيم) في المجتمع النوبي .. وذلك في شطر من الماضي وكل الحاضر . إستطاع أن يصبر علي الالحاح سنوات طويلة ، رغم أعاصير (صدمة الهجرة) التي كانت (ومازالت) تجتاح المجتمع النوبي في حلفا الجديدة لهذا كان لابد من أن تفتح أمامه تلك الأبواب التي ظل يطرق عليها وقد أخذ بالفعل مكانه في وجدان جيل الهجرة.

قد لاتطربك كلماته .. ولايشجيك لحنه .. ولكنك لاتستطيع أن تفلت من تلك المتعه التاريخية التي تستيقظ فيك ، إذا تذوقته كلا متكاملاً .. جلبابه ببياضه الناصع .. لفائف العمامه الحلزونية المترهلة .. ووثباته التي تسبق ايقاعات (الطار) الراقصة حتي تلك (البحه) التي في صوته والتي دائماتحتضن الكلمات التي تخرج من حنجرته متعبة .. وإلحاحه علي مهنة المغنى حتى في مستويات العمر المتأخرة .



هكذا أصبح جزءاً من مذاقات النشأة لجيل بأكمله وحشر نفسه بين إشواقه التاريخية .. حتي اولئك الذين كانوا لايؤمنون به ويفنه يضطرون احياناً الاستعانة به استجابة لرغبة (الاذواق البرية) في الإسر التي كانت تتطلع لإعلان الفرح . المرأة في فنه لاتمثل موضوعاً رئيسياً للحب .. إن أشار اليها لاتعدو الإشارة أكثر من (فتح شهية) لايلبث أن يتجاوزها لقضايا أخري في أغلب صورها قضايا اجتماعية ، لايبدو في ماضيه أو في حاضره انه كان علي وفاق مع المجتمع فكأنما (الآخر) في عرفة عقبه في عمليات التذوق، الا إذا أصبح إحدي عناصر تجربته الفنية ، بمعنى أخر يتغنى بمحاسن المجتمع إذا أصبح (تاريخاً) كما في أغنية (نوبللو) .. أما إذا كان يمثل الحاضر فلا يملك في سيرته غير ذكر المظالم والمثالب ..!! وربما السبب هنا إنه يريد أن يعايش المجتمع بكبريائه الفني .

في أغنيات مابعد الهجرة ، كان دور المرأة قد انحسر تماماً وذلك ربما لتقدم السن أو لظهور آثار الأزمة علي المجتمع وسهولة تناولها .. وربما هنا استفاد كثيراً من تلك (السوداوية) التي تحكم علاقته بالمجتمع .. فقد تسببت في زيادة جرعة (الرمزية) علي مواضيع الحب .. فهو الآن يعيد مفرداته القديمة أو حتي بعض الفقرات الكاملة من أغانيه القديمة ويعيد انتاجها مع بعض الاضافات ، بحيث لايظهر علي المتذوق آثار هذه الفروقات بسهولة .. وقد تظهر آثار هذه الحبكة بوضوح في أغنية (مسكين يا ملاك الجنة) رغم الضعف الواضح هنا باستعمال كلمات عربية صريحة غير مروضة محلياً ، الا انه بكثرة القفز بين المواضيع المختلفة يستطيع ان يشوش علي المتذوق حتى يخترق وجدانه ..!! واستطيع ان اقول بانني بعد سلسلة طويلة من التأويلات استطعت أن أصل إلي تلك العلاقة التي تربط .. محبوبته بالمؤامرات التي كانت تحاك ضده .. وربما أيضاً علاقتها (بنظرية الخطيئة) التي قسر بها سبب تهجير أهالي حلفا .

ولا أريد هنا أن أكرر ماقلناه في باب (خليل فرح) عن نظرية العشق !! ولكن إذا

قارنا هذه الأغنية (مسكين يا ملاك الجنة) بأغنية أخرى رائعة وصادقة لهذا الفنان ، صورها مترابطة ، سنستخلص معني واضحاً وهو أن الفنان يطارد ذاته المفقودة أو كياناً تاريخياً يحمله بين ضلوعه .. ولانستطيع أن نجد لهذه الأغنية الأخيرة عنواناً . والشعر لا يترجم ولكن أقوي فقرة يتساءل فيها (ماذا ساقول لمن يسألني) .. لا تستطيع أن تستبين نوع المخاطب هل هو امرأة أم شيء آخر ؟ كل الأمر إنه يلوم المخاطب عندما بدت عليه علامات التعب وهم بالرجوع من منتصف الطريق بعد أن أبدي رغبة شديدة وإرادة في بداية الطريق .. ، أيتراجع بعد كل الذي قاله ..؟ ويختتم بدموعه التي استحالت الي قطرات من دم ويقول بانه يخشي ان يكتشف أمر بكائه لأنه لايدري ماذا سيقول لمن يسأله ..؟ موضوع الحب في هذه الأغنية ، لم يكن إمرأة وإنما كانت ذاته أو كيانه وربما بهذه الأغنية الرائعة ، كان ينعي قريحته الفنية .. التي بدأت تحت تأثير صدمات الهجرة تتسع ازمتها .. وذلك بسبب تساقط المفردات .

التغيرات العنيفة في مجتمع المهجرين كانت اسرع بكثير من قدرات فنان مرهون لتاريخه وثقافته ، ولهذا في كل مؤلفاته يشكو مر الشكوي من انه لم يعد يفهم مايحدث .. فالكلمات حوله ما أكثر من (ضجيج) ففي أغنية (ككلوده) يستعين بذلك الطائر الخرافي ، ليصف معاني صعبة تستعصى علي الفهم وهي معان (خلو الذاكره من المفردات) وهي غيبوبة وتوهان في الوعي لايدري الانسان بعدها ماذا يفعل والي أين يتجه . خلاصة الأمر هنا أن أغنيات هذا الفنان أوضح تعبير لمعاني (اوجاع الروح) والتي افردنا لها فصلاً كاملاً في الباب الثاني .

رغم شكواه المتلاحقه حاول احياناً ان يجد حلاً في الفن التجاري وقد كان احياناً ينجح واحياناً يفشل . خبرته الطويلة في امتهان فن الغناء جعلت ذاكرته (الجمالية) غنية بالمفردات ، ولهذا ربما نجح كثيراً في أن يواري سوأة العاطفة الغائبة أو المواقف الغير صادقة .. عن طريق اختيار الكلمات الخفيفة التي تساعد الجيتار في الفن التجاري .. وعن طريق إغراق الساحة بالكلمات التي أصبحت الآن غريبة بفعل



التساقط .

في الأغنيات التي كانت من نصيب التجارة في فنه ، اختار للجيتار كلمات مثل (سيو) وهي كلمة تعنى (الرمل) لكونها سريعة النويان ، وذلك طبقاً لحاجة الوعي المستغرق في لحن الجيتار ورغم أن الحصيلة من ترديد هذه الكلمات أقرب للصفر في حساب الفوائد الفنية إلاّ أن الذي يتمايل بالرقص أو يتفرج أو صاحب الحفل كان يعود ببعض الرضا .

أما تلك الكلمات التي سقطت بفعل الزمن أو وتيرة التغير التي صاحبت صدمة الهجرة ، كانت ضرورية لاثارة الدهشه في غياب حرارة العاطفة ، ولكنها بطبيعة الحال ، كانت غير مستساغة لخيال الأجيال الجديدة .. ككلمة (ككلوده) .. أو رسم صورة المحبوب التي تحمل الماء لتملأ الزير أو إضطراره لإدخال كلمات عربية تحدث صدمات في المذاق كبقايا حصوات في طعام دسم !

وربما في ذلك إحساس بغياب التواصل بينه وبين المستمع الحديث وهم طبقة (الطفجية) .. أو بسبب غياب اللغة المشتركة أو للإنحطاط الحتمي (المنتظر) في أنواق الجيل الثاني في حلفا الجديدة .. وربما لهذا الفنان عذرة .. فمن الظلم أن نطالبه بالتصدي لتيار التساقط هذا .. رغم أن في ذلك مهمته .. فلا يستطيع وحده أن يصارع هذه العاصفة الرهيبة .. وبقي ايضاً أن ننوه أن للتجارة دور في إنجراف الفنانين خلف الأنواق المنحطة .. وان الدور الحقيقي للفن الراقي هو في عمليات صقل الأنواق المنحطة، بجرعات من الروح يمنحها للكلمات التي تقتلها الاسواق .

من محاولات المقاومة التي يبديها الفنان ولولي باجترار الاغنيات القديمة أو بث إبداعات حية جديدة . نستطيع أن نقول بأنه قد تضرر كثيراً من إضطراب القيم في المجتمع النوبي .. وماذكرناه من قبل بأنه كان ينعي نفسه إحدي تداعيات هذه الحقيقة .. وربما كانت صدمة الهجرة سبباً في أكثاره من المواعظ الدينية والنقد المرير لطقوس الزواج ولحال النساء في الأسواق والمزارع ، ولحساباته التي كان يصفيها مع

اعدائه .

ويبدو أن المعاني مهما كانت جارحة أو كانت الكلمات مكشوفة والصدمة مؤلمة كان المجتمع يقبلها من فنانه الأول .. وربما سبب التسامح هنا ليس قاصراً علي دور هذا الفنان التاريخي ، بل لأنهم يحفظون له ، بأنه يخاطب في وعيهم الغائب كياناً منسياً ، يطلق عليه إسم (نوبا) أي أنه في حالات السمو يلقي في وجدانهم بعض المسكنات ويضمد الجراح تماماً كما كان يفعل معطوب الوناس في الجزائر بين قومه البربر .

ولولي ونظرية الخطيئة :

نبدأ من حيث انتهينا في الفقرة السابقة بسؤال .. هل في الحقيقة المؤلفة التي ذكرها الفنان ولولي كتفسير للأسباب الحقيقية لتهجير أهالي حلفا .. دواء للوجدان الجريح ؟!

يقول فيما معناه بأن الله قد حكم بمصيبة السد العالي علي المهجرين .. لسوء طويتهم .. وضعف إيمانهم ..! فقد تركوا الصلوات الا لماماً .. ايام الجمعيات .. وحتي من يؤديها منهم لايؤديها الا ليخرج منها تواً لمجالس (القطيعة) !!

يقتبس من قصص القرآن ويقول ألم ترو كيف خرج آدم عندما بدأ يلاحقه الشيطان..! إن كانت في مزاعمه هذه أي نسبة من الحقيقة – وهذا أمر لايمكن رده – نستطيع ان ندعي بان فيها دواء مهما كانت مرارتها .. ولكننا أيضاً لانستطيع أن ندعي أن القضية قد حسمت .. لأن الفنان نفسه في مواقف أخري يتحسر علي ذلك الجيل .. عندما يتحسر علي (كبار السن) الذين خطفهم الموت في خشم القربة .. وكان قد زعم من قبل أن الأرض والسماء قد بكتاً علي حلفا المنكوبة .. وإن صدق فبالمقياس الدينى نفسه .. أن الأرض والسماء لاتبكي إلا العمل الصالح .. وللفنان مواقف أخري متناقصة .. أذكر أنه في اغنية بارك رئاسة عبود للسودان ثم عاد واتقلب عليه بالويل والثبور .. فلم يترك حتي أعضاء مجلس عبود فقد وصف عيني أحدهم يعينى (الغنم المذبوحة) .

هكذا كان قدر فناننا الكبير أن يهيم في الوديان شرقاً وغرباً طبقاً للرضي الشخصي .. ولا جديد في ذلك إذا حاولنا أن نفهمه في سياق فنه الكلي ، فالفنان كبندول الساعة لايستقر علي حال .. ولهذا الاهتداء بمعاييره انفع بكثير من تصديق مبرراته !! أذكر أن فناننا هذا قد ربط مره (شرطياً) بين وطأة الزمن علي روحه القلقة . وبين الضيق الذي يجد نفسه فيه عند رؤية (صاحب اللحية) فقد زعم انهم اجتمعوا عليه وتآمروا عليه في المساجد ولكن لن يمسوه بسوء .. وصاحب اللحية المقصود هنا لا يهمنا امره لانه موقف نفسي لان الفنان رغم هواجسه تلك لم يحرق كل مراكبه معهم .. ففي شمس يوم السبت التي لم تغرب كان التشبيه .. وفي هذا لمسات وإيحاءات للضيق المؤقت والذي ربما كان صادقاً فيه ، فلا يمكن أن يكون المرء جاداً عندما يتهكم من ظواهر الكون .. إذن لا يستقيم أن نستسلم تماماً لتفسير أسباب الهجرة بنظرية الخطيئة .. التي تري علي حد قول فنان النوبة الأول بأن الله (غاصب علي جيله) . والأمر وارد بإعتبار أن الأفعال كلها ، حدودها النهائية تنتهي في لانهائية (المشيئة الإلهية) وأسباب الضعف الإيماني متوفره كما فصلنا في (المزاج النوبي) .. ولكن لماذا لاتكون مصيبة الهجرة هذه دليل حب إلهي ؟ العذاب الادنى احياناً يأتي علي شكل ابتلاءات لإصلاح الحال بأقرب الطرق .. وذلك حتي في حالات المعصية ، وخاصة أن هذا الشعب – كما سنري في الباب الأخير – شعب فاق في تدينه الآخرين .. ولو كان بطريقته الخاصة !

سيظل التساؤل قائماً ، حتي اجيال قادمة .. لأن الزمن الكافي لم يستدر بعد ليحكم التاريخ حكمه النهائي . بدأت الآن عودة جماعية للقري القديمة حول البحيرة ، وربما لن يطول بنا الزمن لتوفر (الهمة والارادة) التي بدأت تحكم مجريات الاحداث بظهور إرهاصات إغلاق مشروع حلفا الجديدة أو خصخصتها .. ولو حدثت هذه العودة المتوقعة لن يكن هناك صعوبة في تفسير سبب الهجرة بنظرية (العناية الالهية) فمن قبل عاد الشعب اليهودي من بابل وهم أكثر ثراء بتجارب الحضارات الأخري ..

ورغم أنهم عادوا لإنعزالهم الأول . ولكن تجربة الغربة تلك جعلتهم وسط الشعوب وهم قلة (أكثر نفيرا) .. وهناك من يزعم بأنهم جمعوا هناك تراثهم الديني وكونوا قوتهم التي يقهرون بها الشعوب الأخري الآن .. ومن قبل عندما إختار الله مكة لحمل رسالة الإسلام والإنطلاق بها .. سلط المفسد علي المصلح ، حتي تمت الهجرة والعودة . بعد الإمتلاء والتثقيف والتآخي بالآخرين .. لو حدثت هذه العودة الحتمية ، ستعتبر هذه الاجيال التي تم سحقها في مستنقعات خشم القربة ، شهداء الحضارة الجديدة والمراحل الانتقالية .. أما أولئك الذين كابدوا ملحمة البقاء في حلفا القديمة ، فسيعتبرون (رواد الحضارة الجديدة) .. وعندها فقط ستهون المصائب والازمات ، لأنها ستبقي مجرد ذكريات .

لو كانت هناك فائدة واحدة ، يمكن أن تذكر من عملية تشريد الحلفاويين في خشم القربة . فهي إن (حلفا جديدة) علي ضفاف البحيرة ستكون أكثر قوة وحيوية في الاشعاع الحضاري والتواصل من سابقتها .. وربما حول تلك الضفاف وعند تلك الازمان يستطيع (أدروب صالح أبو سن دوسه) أن يكرر مرة أخري تلك النماذج التي درسناها في هذا الكتاب .. كالمهدي وخليل فرح ، وإبراهيم أحمد وجمال محمد أحمد.



ميرغني حمزة الوزير المقاتل
.. في مفاوضات مياه النيل

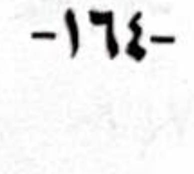
أغنية نوبية (أتذكر معي أرقين ؟!)



هذه الأغنية (الملحمية) مليئة بالإيحاءات والقضايا .. لديها القدرة علي التفتح في كل مناخات المعني واجوائه .. ولكن قبل أن نتوغل بك في تفاصيلها من المفيد أن نعجل إلي بعض الخلاصات الخطيرة التي تدعم هذا الكتاب .

للشاعر هنا نهج .. يخالف طريقة الفنان ولولي .. إذا كان كلاهما ينطلق من أزمة الإنسان في حلفا الجديدة .. أن الاستاذ محمد سليمان حسين شاعر هذه الاغنية توغل في التاريخ ونسي حاضره ولم يشر اليه بادني إشارة .. رغم أن الأحوال في خشم القربة ايقظت فيه الحنين الا أنه لم يحاول العودة مرة أخري ليعيد صياغة الواقع كما يفعل ولولي دائماً طبقاً لقوانين الماضي ..! الذي حدث انه استغرق في تفاصيل احداث الماضي والطفولة ولم يستيقظ إلاّ عندما واجه (فشل الفن الخالد) وذلك عندما إنتهت القصة بموت والده في مصر .

رغم أننا لسنا بصدد .. المفاضلة بين النهجين نقول بأن الجانب المضيء هنا أن في هذه الأغنية أقوي شهادة لمن أراد أن يؤرخ لخلفيات جيل الهجرة .. ومعروف بالطبع



ان الفن الشعبي أحد أبرز الوسائل الناجعة في غياب التاريخ المكتوب . تفاصيل الأغنية تغطي بالتقريب كل اوجه الحياة التي تعين المؤرخ .

وهناك فائدة أخري وهي اخطرها علي الإطلاق .. وهي محاولة تحسس موقع مصر في الوجدان النوبي المقهور .. وقد ذكرنا من قبل (الباب الثالث) أن أقوي أسباب القوة المصرية في السودان في انها إستطاعت بالبعثات التعليمية والغزو العسكري والفني إستقطاب القيادات المؤثرة وخلافه وأن تصبح إحدي مكونات الوجدان لدي الكثيرين أو بالاحري (القلة المؤثرة) وقلنا أيضاً بأنها أصبحت بذلك خصماً وحكماً في قضايا السودان .

هذا الإستلاب في الإنسان النوبي بحكم (الجغرافيا والتاريخ) قد بلغ مراحل ما بلغها في غيرة من السودانيين .. قد بلغ الي ابعاد سحيقة في حنايا الوجدان بحيث يربك حتي الشاعر المفوة .. وهذا امر قد بدي بوضوح علي الشاعر عندما صور امة تحتضن الرسالة القادمة من مصر بحجة من تريد رؤية صورة (ملكهم) ملك مصر .. ومن تريد أيضاً أن تشم رائحة مصر في الرسالة .

دليلي بأن العشق هنا إحدي مظاهر الإستلاب ، ليس فقط لقصص الإضطهادات التي سيحكيها الوالد فيما بعد ، بل لأن الشاعر نفسه تهكم من احتضانها للرسالة بانها لم تكن صادقة زاعماً بان حبها الحقيقي كان لزوجها سلوم ، وقد تجد هنا بوضوح مسألة المأزق الوجداني الذي يعاني منه الفنان النوبي مهما بلغت قدراته التعبيرية وذلك عندما تكون مصر احدي قضايا التجربة .

رغم مرارة الآلام التي حكاها علي لسان الوالد لم يستطيع الشاعر أن يتخذ موقفاً حاداً من مصر ، بل علي لسان جدته التي كانت تسأل عن مصير (داؤد آسيا) الطالب الازهري توقف عند التساؤل : (ماذا سنقول في حق مصر ؟؟!) . وفي موقف مشابه علي لسان والده الذي كان يرد علي زوجته التي كانت تلومه في مناجاة ، يقول بأنه كان يعرف الأحوال في بلاده ولكن ماذا سيفعل في مصر ؟ شاعر قد بلغت به الجرأة



حد (الخواجيه وملابسها الداخلية) لانستطيع ان نقول بأنه كان خائفاً من رقابة سوي انه كان يعبر عن وجدان مهزوم .

وربما لهذا نستطيع أن نفهم معني قبول فكرة السد العالي بمثل تلك السهولة وربما أيضاً في هذا معني أن تخرج الجماهير في استقبال عبدالناصر عقب إعلان خشم القربة كموطن بديل رغم توقعات وكالات الانباء .. بل وربما يظهر هنا معني أن تستقبل الجماهير الفريق عبود بحفاوة لم يصدها هو نفسه ؟!

وهناك فائدة اخيرة هي أن هذه الأغنية ، لم تستعن بكلمات عربية .. والتي دائماً تجدها في الأغنيات النوبية كدليل علي عدم نضج التجربة . إلاّ في موقف أو موقفين .. وفوق ذلك ايقظت هذه الأغنية بعض الكلمات واحيت بعض الكلمات التي كانت قد ماتت منذ زمن بعيد .

قصة الأغنية :

ظاهر الأغنية سهل قبل أن تمتنع ، تحكي الأغنية بلسان الشاعر الطفل ، بأن هناك رسالة وردت للأسرة في أرقين (القديمة) وهي قرية من قري وادي حلفا قبل أن تغمرها مياه السد ، وهي القرية التي عندها وقعت اولي مواجهات ود النجومي وهو في طريقه لمعركة توشكي ، وقد مر عليها احد الراحالة الاوربيين قبل أكثر من قرنين من الزمان وقارن بينها وبين عاصمة السودان أنذاك (مدينة سنار) من حيث الرخاء واسعار المحاصيل .

الرسالة تحمل للأسرة انباء ساره بقدوم رب الأسرة بعد غيبة طويلة في مصر .. والأغنية تحكي القصة مستعينة بصور متحركة مكتظة بالوان شتي من دقائق الوجدان تصور الأم وهي ثملة بغبطة الترقب والانتظار وهي تجري هنا وهناك تهيأ المنزل ومخدع الزوجية . والشاعر الطفل علي (المركب) المتجه لمكان اللقاء تاره يسد رمقه بحبات من البلح وأخري بقطرات من ماء النيل . يصل جمارك مدينة حلفا ويبدأ اللقاء والعناق وتصل النشوة ذروتها وكل يفرغ توتره بالبكاء وينتهي المشهد الاول .

أما الصور المتلاحقة في الاجزاء الباقية من الأغنية ، تنساب رويداً الي درك المأساة .. فمن الحاجة المأسة لوسيلة ترحيل (العفش) وهي (الحمار) وقد كانت محتكره لدي الاغنياء (ابو علي .. شبي .. صادق أويه) الي وصف الاب لعذاباته في مجتمع الباشوات في مصر وهو يناجي زوجته وعودته المأساوية مره أخري لمصر . بكل هذه الصور إستطاع الشاعر ان يبني هرماً من الاحاسيس ، تعايش فيها الحزن والفرح في وئام غريب ، حتي انه ليس من السهل عليك الامساك بهما في وعاء لفظي . ولاتستطيع وسط هذه النبضات المنتظمة للجمال إلاّ أن تعود وفيك طاقات لاتدري كنهها ..!! مأساة هذه الأغنية بفعاليتها التعبيرية وايقاعها المتوائم مع الوجدان النوبي الجريح ، ستظل مخنوقة لأسباب حضارية ونفسية ، منها أن وسيلة التعبير فيها غير شائعة والترجمة كما في الشعر جميعه مخله بالمعني ، وفوق ذلك أن السواد الأعظم من الذين يتعاطون اللغة النوبية ضحايا انفصام حضاري ، ينظرون اليها من زاوية إحتقار الذات . لذلك هذه الأغنية مضطرة لأن تقدم نفسها لمن يؤدونها في حفلات الأعراس بطريقة مبتذلة ، وربما العزاء هنا ، في أن تقلبات التاريخ لاتستطيع أن تظلّل حيوية الحقائق التي تأتي من الأعماق !!

المشهد الأول من الأغنية مليئة بالشذرات الوجدانية التي تغذي منها الطفل الذاهب للقاء والده ، لهذا إكتسبت الأشياء من حوله أبعاداً روحية وإنسانية واصبحت رموزاً لمعان صوفية ..

* إنزلاق المركب المحلي ببياض الشراع المنتشر في الهواء في إتجاه الجنوب في عز الضحي يماثل إنسياب الضوء في أعماقه بلهفة اللقاء .
* والإبتعاد عن مرسي القرية بحثاً عن مكان اللقاء في جمرك حلفا وهي بمثابة فقدان الهوية والشفافية في حاضرة ..
* تنظيم واجهة البيت والرمال المفروشة كان إستحضاراً للفرح الغائب ..
* أما حبات التمر وقطرات الماء التي إرتشفها من بين فروج الأصابع وهو يشرب



بملء كفيه ، كان رمزاً لضمور حقائق الجسد عندما تشتعل العاطفة . وهذه العاطفة المشتعلة هي نفسها التي أفقدت الزوجة قدرتها علي تركيز وعيها حتي استنجدت بالأخريات لتساعدنها في ترتيب الأمور .

فعالية التعبير توقفت في نهاية مشهد الفرح عندما عانق الطفل والده بالدمع الغزير وقد يبدو هذا بوضوح في إيقاع الكلمة التي تحمل لحظة الذروة وهي إسم مكان اللقاد (حلفا) فمن حنجرة المطرب (شاكر) – الذي إحترق بدوره في التجربة – خرجت الكلمة مشبعة بابعاد روحية متلاشية في اللانهائية .. وتلك طبيعة المواضيع التي تتلاشي عندها عاطفة الحب .. (حلفا) .. هنا تمثل عصير الصور المتحركة .. ففيها يتلاقي الانسان والطبيعة حتي اصبحت في نهاية الامر رمزاً للضمير النوبي الذي يطارده الشاعر بذكريات (ارقين) .

في نهاية تجربة الفرح هذه ، لابد أن تأتي برهة السكينة والصمت والسلام النفسي ، وهي بعبارة أخري تلك اللحظات التي تعقب إفراغ التوتر بالبكاء الحار .. لكنها قصيرة لاتدوم . والصورة المعبرة هنا هي رحلة العودة بالمركب الي شاطيء القرية .. عمق الصمت في هذه اللحظات أسعف الشاعر ليستبين الموسيقي الهائمة في الوجود . ففي إنتباه روحي عميق يسجل ذلك الايقاع الحادث من إرتطام الموج بمقدمة المركب المنزلق في حركة منتظمة شرقاً وغرباً . ظل معه هذا الإنتباه حتى دخوله البيت ، فقد شبه ضجيج المهنئين بالغناء .

الرجل يحكي بعد ذلك الضياع في مصر .. والاجر الزهيد الذي لايكاد يغطي ديونه الشخصية ناهيك من أن يرسل شيئاً لأهله ، وهناك أمور أخري لم يجد من يشتكي له منها . والزوجة تطلب منه أن يبقي في البلد وانها لاتريد منه أكثر من أن يبقي أباً لأولادها .

ربما هذه العاطفة التي لم تهتز بالفقر. والدموع التي كانت تترقرق سائلة علي الرمل وهي تتحرك بين المهنئات .. وهناك صورة أخري معبرة لصاحبات الزوجة وهن

يغمزن لها مهنئات .. كل هذه الصور إشارة لحرمان الزوجة من حقوقها في المعاشرة تحت وطأة متطلبات أغتراب الرجل في مصر . في نهاية المشهد رب الأسرة البائس يبحث عن من يسعفه بقيمة تذكره العودة بعد أن تنكر له تجار القرية .. وهنا تتدخل الطبيعة متمثلة في النخيل يعمل في قطعها وبيع سعفها . وبعد ذلك يعود لمصر .. ومرارة الوداع عالقة في ذهن الأسرة . تصل المأساة نورتها بورود نبأ موت الرجل في مصر .. والزوجة تولول صارخة في وجه الزمن الذي أنزل بها وبأولادها الضيم ينتهي المشهد الاخير من الاغنية.

الصور المتحركة في الشق الأخير للأغنية معبرة عن نفسها أكثر مما يستطيع أن يعبر عنها غيرها . جاءت معانيها من خلال الحوار وإيقاعات الأصوات المختلفة للزوج والزوجة . وربما علة الوضوح في هذه الفقرة هو عمق الحزن في أعماق الشاعر ، في بعض اللقطات كادت أن تصبح الصور حسية بحته . كتلك التي فيها غمزات العيون من قبل اتراب الزوجة وربما درجة الإنفلات التام عند ذكر الخواجيه وملابسها .

ومن تلك اللقطات لقطة حيه تجسد بحركة الام تطلعات الشاعر وكيف أنه يبحث عن المعني في أعماقه .. وعلي الرغم من أن شيئاً من التشوه لابد أن يلحق بها فلا بأس من نقل تلك الصورة .. بقيت الأسرة بعد أن سكت الضجيج وبعد أن تأكدت الزوجة من غياب عيون الرقباء دخلت خلسة الي مخدع الزوجية ليتناجيا في وحدتهما ولكن كان الطفل يراقبها :

فـي خـلـسـة تـتـحـركـين
ولـقـد رأيـتـك تـدلـفـين
أمـاه .. مـاذ تـبـتـغـين
.. تـبـتـغـي مـاض الـلـقـاء

هكذا أراد الشاعر أن يعانق روحه المفقودة في حلفا الجديدة ولكنه وجد بين كفيه الريح . وعندما لم يستطيع أن يحيا تلك المتعة التي هربت لطفولته . بني بهذه الأغنية



ساحة للركض خلف الروح ، مستعيناً في ذلك بمجموعة من الصور المتحركة .. تلاقح الحزن بالفرح في نسيج اللغة حتي ليحسب المتذوق أن الزمن قد توقف . وعلي أثره جيء بالتاريخ شاخصاً علي صور أرقين القديمة . حاجة الشاعر للطفولة أصبحت تماثل حاجته لارقين الذكري ، ولإستحالة تحقيق أياً من الرغبتين انتهت الأغنية بمأساة لاحل لها.

الغربة والعودة !!

يا سريري ويا شراشف امي *** يا عصافير يا شذا ياغصون
يا زراريب حارتي .. خبئيني *** بين جفنيك فالزمـــان ضنين
وأعذريني إذا بدوت حزينـــاً *** ان وجه المحب وجه حزين

نزار قباني

عبده شيبون من كتاباته (أزمة المثقف من جيل الهجرة) نسمة كجبار

إجتمعت به دون سابق معرفة ، وقد كان ملازماً لضفاف النيل في ضواحي الخرطوم ، يبدو انه كان كأبناء جيله هارباً من حلفا الجديدة باحثاً عن ملاذ آمن لشيخوخة بدأت تتسلق كاهله .. يحمل في داخله إنساناً جميلاً ، ربما كان سبباً في تلك المسحة من الحياء التي لاتدعك إلاّ بعد أن تلقي في روعك بعض الإرتباك .. وخاصة أن كنت عفوياً معه .. مرهون ثقافياً (لومضة الستينات) .. فيه بقية من ظاهرة (اليسار العفوي) التي وقفنا عندها في مصطفي محمد طاهر «قوة الإنتماء» .

رغم حيائه ونعومة مظهره وصوته الخفيض يحمل في حناياه أغواراً تضج بألوان من النزعات تحمل الشعر والتأمل والغضب ..! وفاؤه لثقافته القديمة ومأساة قومه في حلفا الجديدة أشعلت عشقه للتاريخ ، حتي لم يعد مهموماً بغيره .. يبدو انه بالكتابة فقط يكمل ذاته .. لهذا عندما يمارس حريته هناك .. تترنح الكلمة باثقال من معاني الوجدان .

يندفع في القول كمن يريد أن يقول كل ما عنده في لحظات محدوده .. فكأنما يخشي أن يداهمه الصمت .. من هذا الباب يدخل عليه التجريد احياناً أو ربما لهذا يهبط من عوالمه الغامضة إذا أراد أن يصف واقعه .. فلكي يجيب علي السؤال .. (لماذا تتعرض النوبة للإهمال) يقول (سؤال حائر والإجابة عليه هو الشكف ووضع الحقيقة علي منضدة الصدق . وكذلك الإتكاءة علي مخدة الحياد .. والعودة الي منابع التاريخ وأصوله ، والتجوال في منعرجات الامكنة ومناحيها والجلوس تحت ظلال الاقبية للتأمل في دقات أجراس الكنائس وسماع التراتيل ، والنظر إلي الهلال في قمة المآذن والسماع عن (الله أكبر) وخشية الله تعتري .. والغوص في عمق التاريخ والتخيل في (الكنداكة) زوجة الملك المروي) .

عندما تلوح له لحظات تعبير في عملية الكتابة ، يطاردها ليتقيأ في وعائها ما أختمر في وجدانه بفعل الأزمات المتلاحقة .. ولا يرضي لذلك إلاّ أن ينزع أحشاءه



دفعة واحدة ويضعها علي الورق . يلاحق الأحداث ويحاول أن يجمع كل تلك القرون في .. دقائق معدودة .. يمر بالدولة النوبية القديمة .. وبالعهد المسيحي والفتح العربي .. ليصور لنا في نهاية المطاف مأساة الإنسان النوبي في خشم القربة .. أسمعه يقول (ثم ذلك الزهق والمحو للنوبة بتهجيرهم الي منطقة لايريدونها ولا تريدهم . فكانت ضربة مؤلمة يعانون عذابها حتي الآن .. القلق والتوتر وكذلك الوباءات الغريبة عليهم مثل الفشل الكلوي نتيجة لتلك المياه الملوثة التي يشربونها .. والاستسقاء نتيجة مرض البلهارسيا المزمنة ثم تدني مستوي التعليم .. وكذلك فشل الزراعة) . أما في موقف آخر .. يبدو انه كان يبحث عن نسمة هواء في حواري (الكلاكلة) الضيقة وقد وجدها في أغنية تبكي قري سد كجبار الموعودة بالتهجير .. وربما أثارت شجونه تلك الفقرة التي تحث قري كجبار لتسأل أرقين وهي قرية الشاعر في وادي حلفا (فلديها الخبر اليقين) ! يستغرق في التذوق لدرجة انه يثبت جملة كاملة باللغة النوبية رطبة كما أنزلت .. يقول .. (حينما ينقر السأم مداخل النفس يقوم المرء بفتح الأبواب والنوافذ للهواء لكي يبعثر الأشياء في دواخلنا تمهيداً لتشكيلها من جديد .. ودافعاً السكون والخمود .. مسترعياً التأمل المرهف في الانسان) يهبط كعادته للواقع المظلم فتصل (رحلته التأملية) الي معانقة قصيدة لشاعر من كجبار فيقول بأن إستغاثة الفنان باللغة النوبية «مشحونة بالحسرة والألم تجعل السامع يقطر دماً» ويصف هذا الفنان بانه يعي تماماً تاريخه وقصته عن قريته وانه يدق نواقيس اليقظة لأنه لم يعتد الإتكاءة والإرتخاء ويقول (يأتي صوته صارماً وحنوناً ايضاً لانه لايقدر علي اخماد جذوة احساسه حيال قريته مهما كانت الفائدة من ترحاله أو عدم الفائدة المرجوة .. يتوسل قريته (مشكيلة) أن تسأل أرقين ما فعلت بها جمرة الإقتلاع من جذورها ، فأرقين سوف تكون صادقة فيما تقول) . هنا يتلاشي الكاتب تماماً في عمليات التذوق فتتعطل اللغات ولاتبقي الا اللغة الام فيقول بالنوبة (دوهي تك دوشكشت دغيم جاند كنان) . والتي تعني بالعربية (ان الشريحة الوصولية هي التي ساهمت في بيع حلفا)

لذا يحذرهم منهم) .

يطارد نسمة اخرى وهو يبحث عن (طيوب عشق قديم) في تجربة الاستاذ علي صالح داؤد الشعرية : يقول عن بعضها . (تجربة موجعة ذلك الواقع الماثل الذي اسكن كل شئ في نسيجه ، فتعتريه صحوة فهو خيط الجرح النازف والساقي جداول الانكسار والانكفاء علي جدار الحيرة واليأس . شاعرنا يعانق المكان ويناجيه وهنا تتحول نغمة العتاب الي التباكي والحسرة :) : يواصل حتي يصل نقطة (فهذا ليس هو المصاب الاول للنوبة فان الضربات الموجعة تلاحقها منذ تعلية الخزان الاولي والثانية ثم الهجرة من الجنة الي الجحيم تلك الهجره القاسية والمؤلمة ..) ويبدو هنا ان مفرداته تفقد القدرة علي العطاء لهذا يرهن نفسه تماماً لكلمات الشاعر فيردد:

عشت يأم للفداء مناراً *** وشعاراً لكل طبع نبيل

المفردات هنا ملطخة ببقعه من دم الوجدان الحار . (فيها الروح الشبابية) وقد تكون غريبة علي لغة الشيوخ .. وقد يعتبرها البعض شرطاً من شروط الابداع ، وهي بالفعل كذلك اذا كان المطلوب هنا هو معني الابداع وشروطه .. اما والامر لم يكن كذلك فاننا هنا نقرأ ابداعات الاستاذ عبده دهب في سياق الازمة التي يعاني منها جيله من مثقفي الهجره .. فالقضية بمعني أخر هي .. اذا تجاوزنا الجانب الايجابي لهذه الظاهرة في تحريك الابداع ، فالجانب المظلم فيها سببه فداحة الازمة علي المثقف النوبي هذه الطاقة الابداعية ربما كانت تستطيع ان تقدم الكثير لو توفرت لها الظروف دون ان تختنق وتتفجر علي شكل (فورة شيخوخة) .



الفصل الثاني:

جذور الإنتماء

١. الجروف (في مضارب الحجياب)
٢. ليالي شيخ قرنين
٣. معاني منقرضة
٤. سيد إبراهيم
٥. صور وكلمات

سيقان الذرة الفارهة التي تحمل الخضرة والثمار ، في هذه الصورة كانت أن تضاهي في قامتها أشجار النخيل الباسقات . وفي الصورة مزارع يجلس في كبرياء يحتسى الشاي من فنجان هو من أوعية المترفين .. المقامات هنا لاتحددها الاشكال .. انما هي احساس .. أعطته لهم الأرض حتي أطمئنوا لها .. لهذا كبرياء الزرع هو كبرياء الإنسان .. تقرأ هنا اللقاء الحميم بين الأرض والإنسان كأنما الأرض هنا من مكونات المزاج .. لايتركونها حتي في فترات الراحة .. فهي لا تمنحهم الخضرة والثمار فقط .. بل ألقت في نفوسهم نوعاً من الكبرياء .. يظل مبهماً إذا لم تجد جذورها في طينة هذه الجروف . البون شاسع بين البيئة والتكنلوجيا ولكنهم رغم ذلك امام جهاز التصوير يقفون بتلقائية خالية من الإرتباك ..! الإنسان هنا ممتلىء احساساً بذاته ، مستغرق في كبريائه لهذا لايهمه علي أي صوره يبدو . فليكن قائماً أو جالساً أو متأبطاً حزمة من سيقان الذره !

هذا اللقاء الحميم بين الأرض والإنسان هو سر تغلغل الثقافة النوبية وسيطرتها علي الإنسان ووعيه ، ففي مثل هذه الاجواء العبقة بالكبرياء تتولد المفردات وتتجدد اللغة .

عندما ينزلون مصر بعد هذا الارتواء ، كل الذي يلاقونه هناك يصبح جزءاً من ثقافتهم .. أنظر هنا أزياء الريف المصري التي تراها علي أجسادهم تبدو كأنها من منتجاتهم . حاولنا أن نشرح بهذه الصورة معني (العلاقة الحميمة) التي يريدها الباحثون لحل مشكلة مشروع حلفا الجديدة ، أولي المقترحات (الخيالية) التي يلح عليها الدارسون ، هي أحداث علاقة حميمة بين الأرض والإنسان .. ولا ندري كيف سيتم هذا اللقاء والأرض قد فقدت ما عندها من عطاء ؟!

والقضية هنا ليست فقط انقطاع التواصل بين الارض والانسان في خشم القربة . ولكن حتي ذلك الكبرياء المنتج الذي تذوقناه في الصورة استحال هنا الي عواطف سالبة.

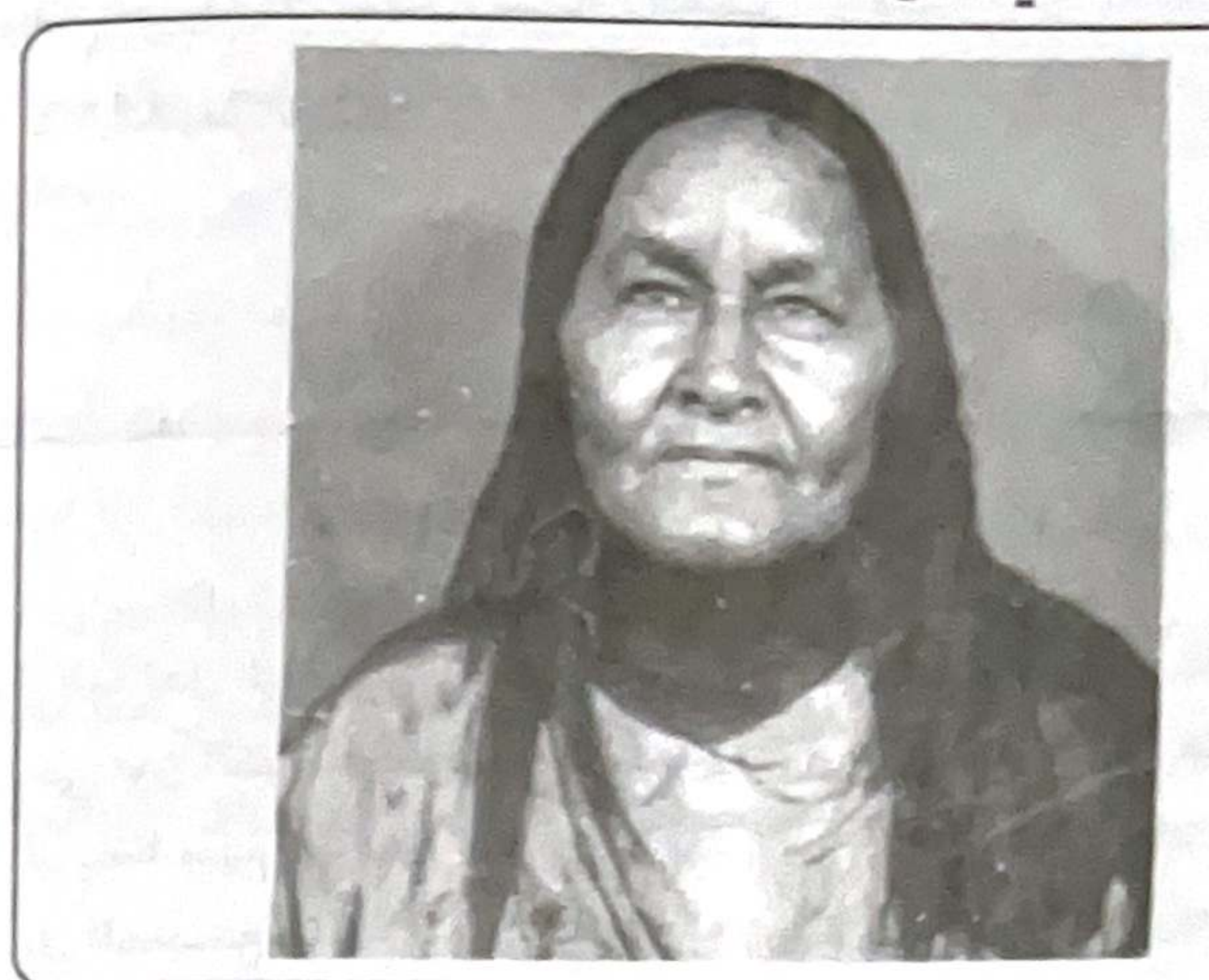
نتيجة لتآكل روح هذا الجيل بالفقر والملاريا وكل صدمات الهجرة ذادت قابلية الانسان في حلفا الجديدة للاشتعال وسرعة الغضب .. وأصبح الفرد فيهم مرهوناً بالكامل لوجدانه ، فاذا رضي عنك فهو كالطفل الصغير وإن غضب منك لا يترك من (السباب) شيئاً للغد .

لماذا كان هذا الموقف ؟

(..اما اهل الريف من معتوقه .. الي بلاجة التي وصلنا اليها فكلهم قاموا في عون الكفره ، وحزبوهم كل تحزب . ومن عهد دخولنا ديارهم الي الآن لم يأتنا منهم وارد ولا معرج ولا راغب في الدين ولا من يريد تجارة ، بل الجميع حملوا الاسلحة النارية وحاربونا اشد المحاربة ، وما من قرية من قراهم التي بشاطئ البحر الغربي الا رأينا اهلها قد قطعوا أثقالهم بالشرق او ادخلوها الجزائر وتركوا القرية خالية لتكون حصناً لهم وللكفرة لحرب الانصار ..)

رسالة من النجومي الي عبد الله التعايشي قبل معركة توشكي

ليالي شيخ قرنين (جذور الإنتماء)



هنا أرجو من القارئ العزيز أن لايضيق من انفاسي اذا صادف أمراً يخصني وحدي .. والتمس السماح لاطارد جذوري في أعماق الأرض علّنا نقف عند النبع الذي يروينا جميعاً .

منطلق الاشواق كمنتهاها عند كل البشر .. واوائل الامور كأواخرها تنتهي في مساحه اختص الله بها نفسه .

الثقافات مختلفه ، عندما تحرك الاحداث والوقائع ، اما وهي في مرحلة الفكر يضيق الاختلاف شيئاً فشيئاً . واذا صفا الفكر اكثر من ذلك تتراجع عنه اللغه لينتهي الامر عند الاسطوره ، في مرحلة الاسطورة هذه سدرة منتهي«العقل» . بعد ذلك كل شئ ممكن . فالعقلاء هنا هم من تسميهم بالدراويش . فلا عقل هنا ولا لغة .

مرحلة الاسطورة والدروشه في ثقافتي تنتهي في ليالي « شيخ قرنين » ..!! وهي ليال معهودة كانت تقام حول ضريح جدنا الكبير شيخ محمد حجي .. ولكن قبل أن

نتوه فيها تعالوا معاً نتفحص الارض والانسان .

«جمارا» شريط من الارض كانت تمتد من البحر حتي الصحراء . مارأيته منها .. كثباناً من الرمل تجثم فوق اطلال يقال انها كانت منازل الشيخ الكبير «محمد حجي» وحولها بقايا بيوت الحجياب قبل أن يتفرقوا عقب الفيضان ..

لم يفكر احد منهم البناء فيها مره أخري ، لهذا انتشرت بين الاطلال بعض اشجار النخيل وكثير من اشجار السنط .. هذه الاشجار كانت متشابكة كادغال موحشه نسجت حولها الاساطير .. ومنهم من كان يعتقد بأنها مسكونه .

هذه الاطلال كانوا يقدسونها كأرض للانتماء والتجمع الأول لقبيلة الحجياب .. وربما الأحواض الخضراء للفول المصري والتي كانت تنتشر حولها .. زادت من مذاقات هذه الشواهد التاريخيه ..

هذه هي الارض بحاضرها وماضيها أما الانسان الذي تجمع عنده اريج العز الغابر .. فقد كانت بنت العوض «لقية أليسه» .. « ست القصعه وقدح الضيفان »وهي احدي امهات البطون .. كرصيفاتها .. صالحه .. وصليحه .. وخيره .. واليسه .. وحجه ..

والمرأة في الحضارة النوبية مقدسة ، كما هو معلوم فقد ذكروا أن العقودات كانت لاتتوثق إلا أذا بصمت عليها الأم . وقصة الملك النوبي الذي أرسل للسلطان أشرف بن قلاوون أن يفك أسر والدته لتكون طرفا في المفاوضات حسب تقاليد النوبة قصة معروفـــه النساء كنّ يدرن ملوك النوبة ، وكما هو معلوم أن نظام التوريث كان يفضل «ابن البنت» وهناك من يعتقد أن هذا النظام جلب الخراب ، فالحكام غير النوبة دخلوا علي العرش النوبي من هذا الباب .. وربما سيطرة النساء كانت موضوعيه .. لهجرة الرجال وكثرة الاناث .. مهما كان السبب ، الذي لاخلاف عليه أن الحضارة النوبية هي حضارة أمومة .

تحملت لقيه أليسه مسئولية اكبر بطون الحجياب وهي أم لسته من البنات وثلاثه

من الرجال .. حملت اعباء إرث الشيخ الكبير حتي في وجود زوجها «ابن الشيخ» .. لم يترك لهم الشيخ الكبير سوي ضريح في مقابر «شيخ قرنين» . كانت تحي ليالي الشيخ وتطعم الضيوف مما كانت تجمعه بكدها الغليظ ..

في احدي سنوات الجفاف وقد كانت كثيره ، قيل انها وضعت حفنة من الذرة في قصعة لتطعم حواري الشيخ الذين وفدوا اليها بمراكبهم الشراعية من قري الضفة الشرقية .. أمام دهشة المشفقين اطعمت ضيوفها بما تجمع لها من طعام من هنا وهناك .. وقد ذكروا أن أحد هؤلاء المشفقين قال .. بمن نتبرك .. بهذا الذي في الضريح ام بهذه التي هزمت فقرها باصرارها . عند هؤلاء الدراويش إجتمعت الأرض «جماراً» بالإنسان (لقيه أليسه) .

من المعانى التي تنطلق من لقاء الأرض بالانسان تتشكل ثقافة هؤلاء .. ثقافتهم مرهونة تماماً للغة النوبية .. ثقافة لديها قدرة عالية علي الإحتواء حتى الطقوس الدينية تعاد صياغتها طبقاً لقوانين الواقع ، لتخرج بعد ذلك في سلوكهم كأنها ولدت عندهم .. حبهم لنبى الاسلام دفعهم ليربطوا دهشة الفرح بالصلاة عليه .. وهذا أمر من المدح والحب ما بلغه سواهم ..! ولكنك أن سئلت من كانت من النساء (تزغرد) بالصلاة علي النبى فقد لاتجد في همومها عبادة واضحة المعالم .. متديون والدين في هواهم ولكن بطريقتهم الخاصة !! لهذا لايهم من هو الشيخ .. الذي ينطقون أسمه كما يحلو لهم هكذا (شيح قرنين) وأياك أن تسأل عن هذا الشيخ وعن تاريخه .. فيكفي انه (خلاص اسطوري .. متعة تاريخية تشكل الوعي .. سانحة للإجتماع والتناجي والإستغراق ..) الكل ذائب في الرقص والايقاع ولايهم بعد ذلك الكلمات ولامعاينها .. احفظ منها الكثير رطبة كما كانت تقال .. ولا أريد أن بحث عن أصولها ، وإن صادفتنى ، كما حدث معي في ديوان البوصيري . اهرب منها لكي لاتفقد مذاقها بعمليات الضبط والنطق الصحيح .. هي كلمات عربية ضلت الطريق منذ زمن بعيد ولكن متعتها في اعوجاجها .. تماماً كاضرحة الشيوخ (شيخ بيرك .. شيخ

قرنيق .. شيخ عبدالله .. شيخ نور .. شيخ يعقوب .. شيخ عمر) وأذكر انه لم يلتفت احد لما كان يقال بان شيخ قرنين صنيعة انجليزية .. للمحافظة علي كنوز فرعونية مدفونة في الجبال .

هكذا تمتد جذور الانتماء الي هذا التيه ، لتشرب من ليالي (شيخ قرنين) .. والانسان هنا هو مقياس نفسه .. ان وجدت غموضاً فهو كذلك ، وان فهمت شيئاً فقد بانت لك سوءة الدنيا . هي حالة امتزجت فيها الارض بالانسان .. العلم والجهل .. والاسطورة والحقيقة . الجفاف والخضرة .. فقر الظاهر وغنى الاعماق .. الدروشه والحكمة .. الصدق والكذب . هذه الوقائع المتداخلة والمعاني المتلاطمة الإفصاح عنها صعب .. حتي علي لغات البيئات الغنية فما بالك بلغة كالنوبية محاصرة بالفقر والغزو الثقافي من هنا وهناك .

لهذا الانفعال والقابلية للتوتر وللغضب السريع بضاعة رائجة وسط الناس هنا ولكنها كانت مروضة قبل التهجير لخشم القربة .. بتوزيع الأرض .. والمسافات بين البيوت والزعامات المحلية .. والمقامات المحفوظة .. والقناعة .. ولكن أخطاء التوطين والخوف من المصير .. وأمراض الملاريا .. والفقر .. والاجيال الجديدة وانتشار الماديات ودخول الاغراب في حلفا الجديدة .. وقد تغيرت الاحوال .. فقد استحالت تلك المميزات الي سيئات مع إشتداد الازمة في حلفا الجديدة لم تعد هناك مساحة تمارس فيها ضعفك البشري اختفت قيمة التسامح لأن الإنسان مشغول بنفسه .. الإرتباك يظلّل الناس كسحابة سوداء مجهولة .. المزاحمة علي الرزق انبتت بذور التوجس والكراهية .. جدول اضعف من أن يسقي (١٨٠فدان) اجتمع عليه اناس لا تجمعهم عشم القرابة .. ولا معانى العيب .. اختزلوا المسافات بين البيوت الي امتار معدودة فانكشفت العورات .. وظهرت امراض التوجس تصيب علاقات الجيرة ظناً من انهم يتصنتون .. الإرتباك والفوضى في غياب الزعامات الرشيدة جعل الفرد سيد نفسه فعلي أثر ذلك إنتشرت طموحات فردية طغت عليها مادية خشنة .. وانسحبت علاقات



الرحم الدافئة القديمة .. حتي أن التجمعات أصبحت غير بريئة ، في أغلب اشكالها ، ان لم تكن للقطيعة والمؤامرات فهي للصراع والمحاجية الغير منتجة .

لهذا كنت مضطراً للبحث عن العلاقة القديمة بين الأرض والإنسان .. لأصل لتلك الينابيع التي يسيل في جوفها الفرح .. فجذور الإنتماء لاتنتهي في كل البشر إلاّ هنالك وكان لابد من (ليالي شيخ قرنين) التي تموت عندها كل اللغات وتنتهى عندها كل الثقافات .

الحدود السودانية المصرية !!

لماذا تم اختيار خط ٢٢ْ شمال في مفاوضات ١٨٩٨م كحد فاصل بين السودان ومصر ؟!

يجيب الكاتب : ليس هناك من سبب سوى ان هذا الخط من ((شأنه ان يثير مشكلة اقليات في البلدين ـــــــ نتج من هذا الوضع كتفرقة بين ابناء القومية الواحدة فاصبح منا نوبيون مصريون ونوبيون سودانيون وصار اللقب العرفي لهاتين المجمعتين «برابرة» لا هم بسودانيين ولا هم بمصريين» ويقول ان التفرقة تأكدت رسمياً عندما اطلقوا علي الملك فؤاد ملك مصر وبلاد النوبة ..))

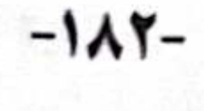
كتاب الغربان في سماء النوبة



اطباق مصنوعة من سعف النخيل ، في بطونها حفنة من تمر أو قمح أو حتي بقايا خبز جاف أو أي شيء يقضون به واجباً أو ينفع صاحبه عند الزيارة .

وضع الاطباق بالكيفية التي تراها في الصورة ، أو بالكيفية التي كنّ يضعن بها (صفائح) الماء علي رؤوسهن .. بنت في النساء قواماً معتدلاً وفارها من مزاياه الجمالية إخفاء الترهل والشحوب التي تحدث نتيجة لسوء التغذية والولادة .. ولابد أن يكون له آثار في الحمل والولادة ، والتي كانت تتم دائماً بعيداً عن الطب رغم الشروط البيئية السيئة .. وأيضاً من مزايا القوام المنتصب .. زيادة قابلية الانسان للتفاؤل كالابتسامات التي تراها مرتسمة علي الوجوه دون سبب مقنع . قيمة الهدايا المحمولة علي الاطباق كرموز للتواصل معهودة ومفهومة ولكن رغم ذلك لها هنا مذاقات أخري .

هنا تقرأ سياق علاقات اجتماعية غاية في المتانه فمثل هذا العدد من النساء في الزيارة الواحدة ، يوحي مدى ثقل المجتمع في صياغة قيم المجتمع .. وكما هو واضح من عدد الأطباق التي علي رؤوس النسوة في مؤخرة الصورة ، ان هناك أخريات



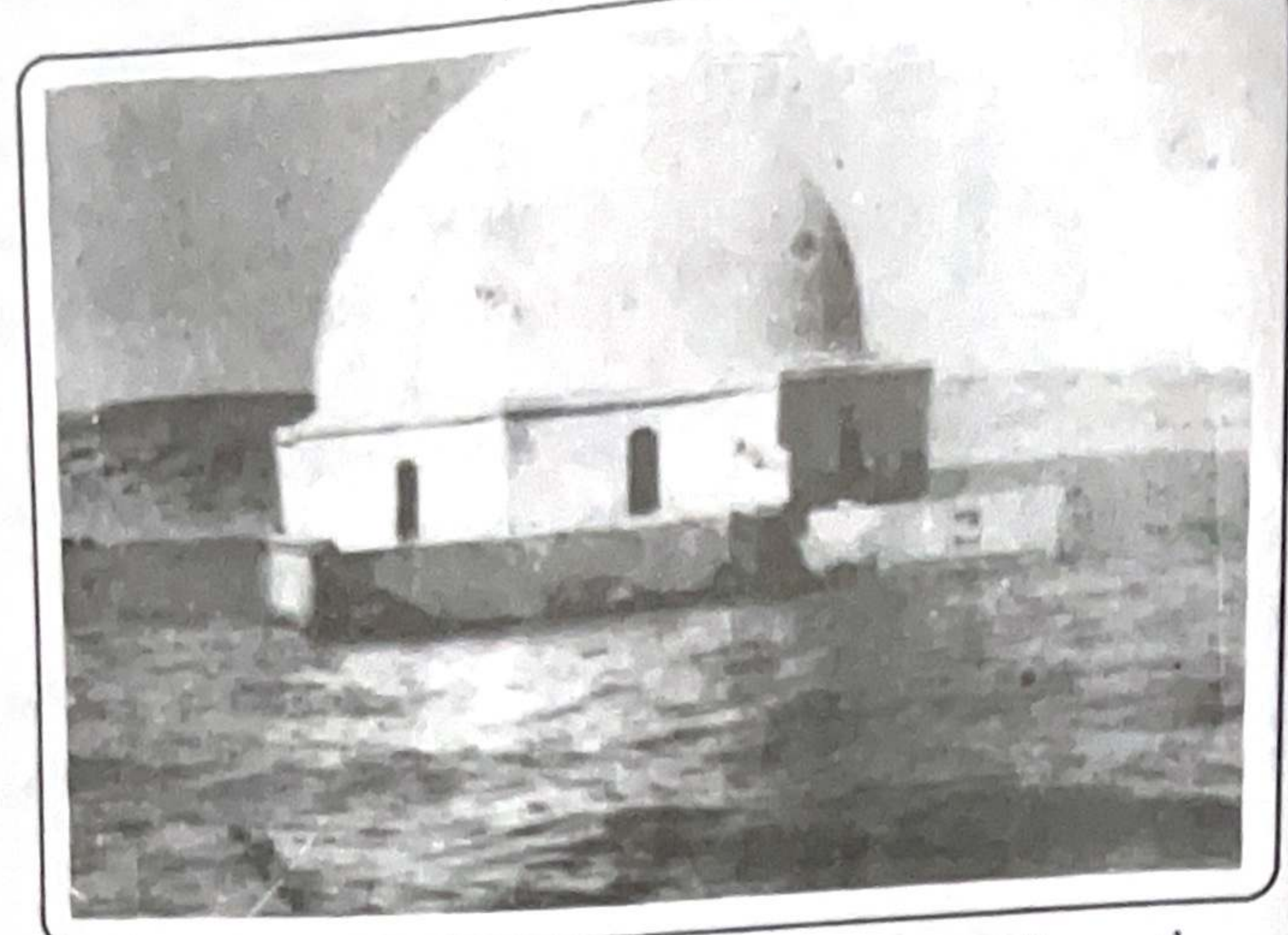
اكتفين بإرسال هداياهن . ودائماً يكون السبب اما لعذر حقيقي او للمعاملة بالمثل او للاحتجاج .. وفي هذا الموقف تقويم لاعوجاج في العلاقات الاجتماعية يخشاه الناس هنا كثيراً . ربما طغيان سلطة المجتمع علي الفرد بهذه الصورة قد يؤدي لقتل المبادرة الفردية والخصوصية المنتجة . ولكن في جوانبه المضيئة يرسخ في الانسان بالمراقبة الدائمة شرفاً مكتسباً يوفر كثيراً من جهد المصلحين الذين يطمعون في بناء المجتمع الفاضل .

الامن وظلال النخيل

ما لقـومي تأهبوا للرحـيل *** ونأوا عنك يا عروس النخيل
واستباحوا حمـاك للنـيل لما *** جاء بالخطب والبلاء الوبيل
انكروا شـطك الوديع وراحوا *** يرسـلون الدليل تلو الدليل
ينشدون الامان في كل ارض *** فاذا الامن في ظلال النخيل

الشاعر علي صالح داؤد

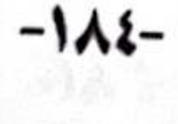
سيد إبراهيم



أصبح لإسم هذا الشيخ مع الايام مذاقاً قائماً بذاته .. فان قلت سيدنا إبراهيم أفرغته من مذاقه .. المعاني المطلوبة هنا ليست تلك تجدها في القواميس انما تلك التي تشير لحقائق الوجدان .. (سيد إبراهيم) هكذا ينطقونه وهو يعني فيما يعني ان هناك ابعاداً تاريخية لابد أن تستيقظ فيك ..!!

لهذا لايفكرون في تاريخه كثيراً ولايهم أن كان ولياً أو شيخاً أو خلافه .. الاهم أن هذا الضريح يروي عطش الاسطوره فيهم . والاسطوره دائماً هي الاساس الذي ينبني عليه الوعي . قليل منهم كان يعتقد فيه .. وأكثرهم لاموقف له ، والبعض الآخر كان يعده خرافة ، بل كان منهم من يمد لسانه .. ولكنهم جميعاً يحملونه في وعيهم..!!

كان قد أصبح جزءاً من تاريخ المنطقة .. وضريحاً في بلاد (قليلة القباب) ظل بعيداً في حضن جبل يرمقهم في الغدو والرواح .. حتي حفر في وجدانهم ما استطاع .. القيمة التربوية لمزار (سيد إبراهيم) في حلفا ، في إعتقادي تكمن في إختراقه لشعب ذي مزاج طليق .. لايؤمن أكثرهم بالمركزية ، بل يضيق منها وان كانت علي



صورة شيخ أو زعيم حاكم .. المؤمن فيهم شيخ نفسـ .. ومن ضعف ايمانه منهم يقدس مزاجه ، قد يكون الفرد فيهم مقصراً في اداء الفرائض ، وقد تجده يعاقر الخمر ولكنه في لحظات الصفاء الدين حاضر فيه ، كحضور ضريح المهدي في وعي خليل فرح وهو علي فراش المرض :

الضريح الفاح طيبه عابق *** السلام يا المهدي الامام

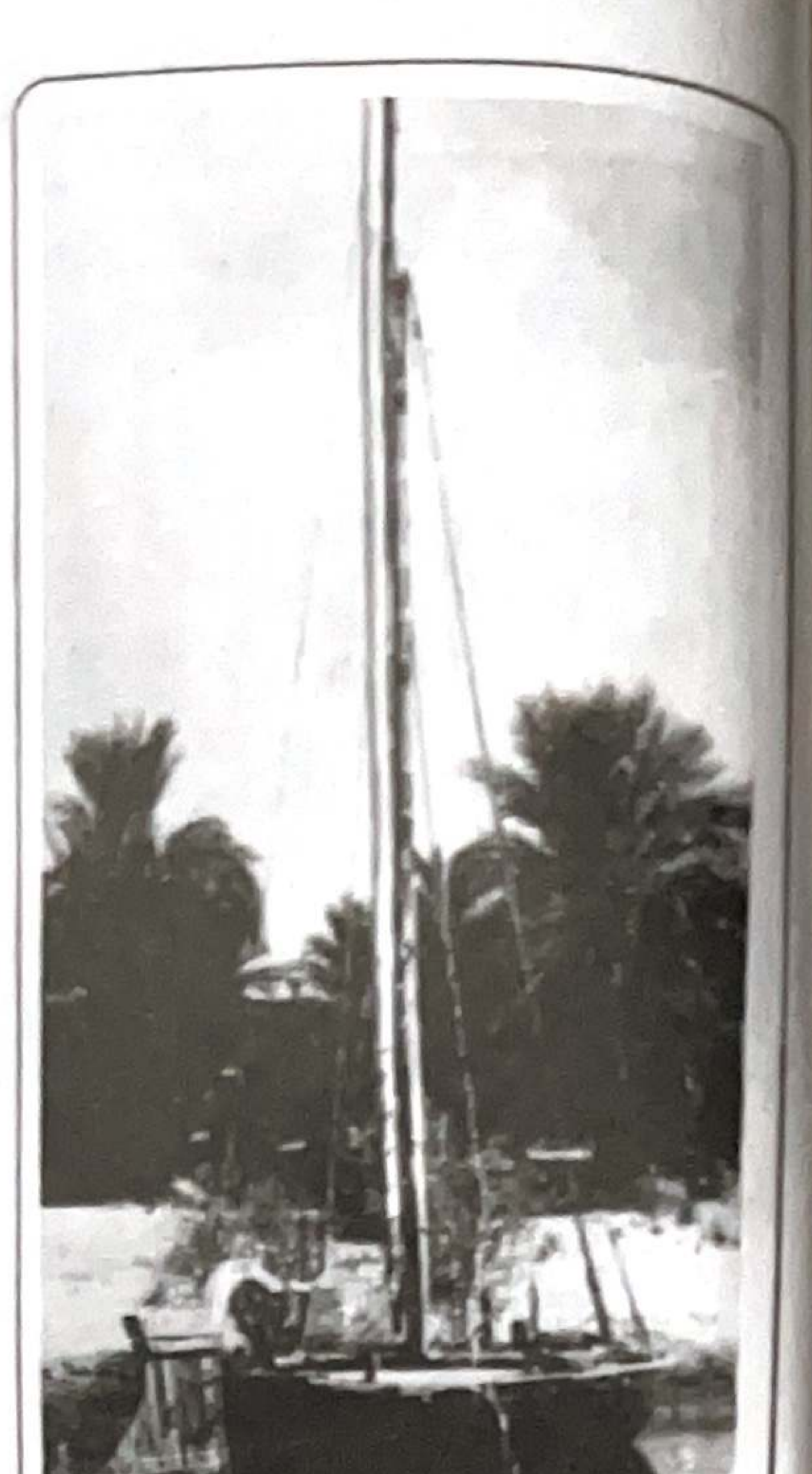
قد يفوقون غيرهم في التدين ولكن لهم طريقتهم ومذاقهم .. لهذا صاحب الضريح هنا هو (سيد ابراهيم) وليس سيدنا ابراهيم .

اعتراف نوبي بالجميل ..

مصر .. ايتها الرائعة (العتيقة) ..
كم عاد منك اليتيم غنياً ..
ورأي (الصابون) ابناء الجداول ..

اغنية نوبية قديمة

المرسى الآمن



النخيل في هذه الصورة أعطت الظل والحماية من الريح ..

ومدت المياة ظهرها حتي مستوي اليابس..

والمركب كما تراه ينعم في حضن آمـن ..

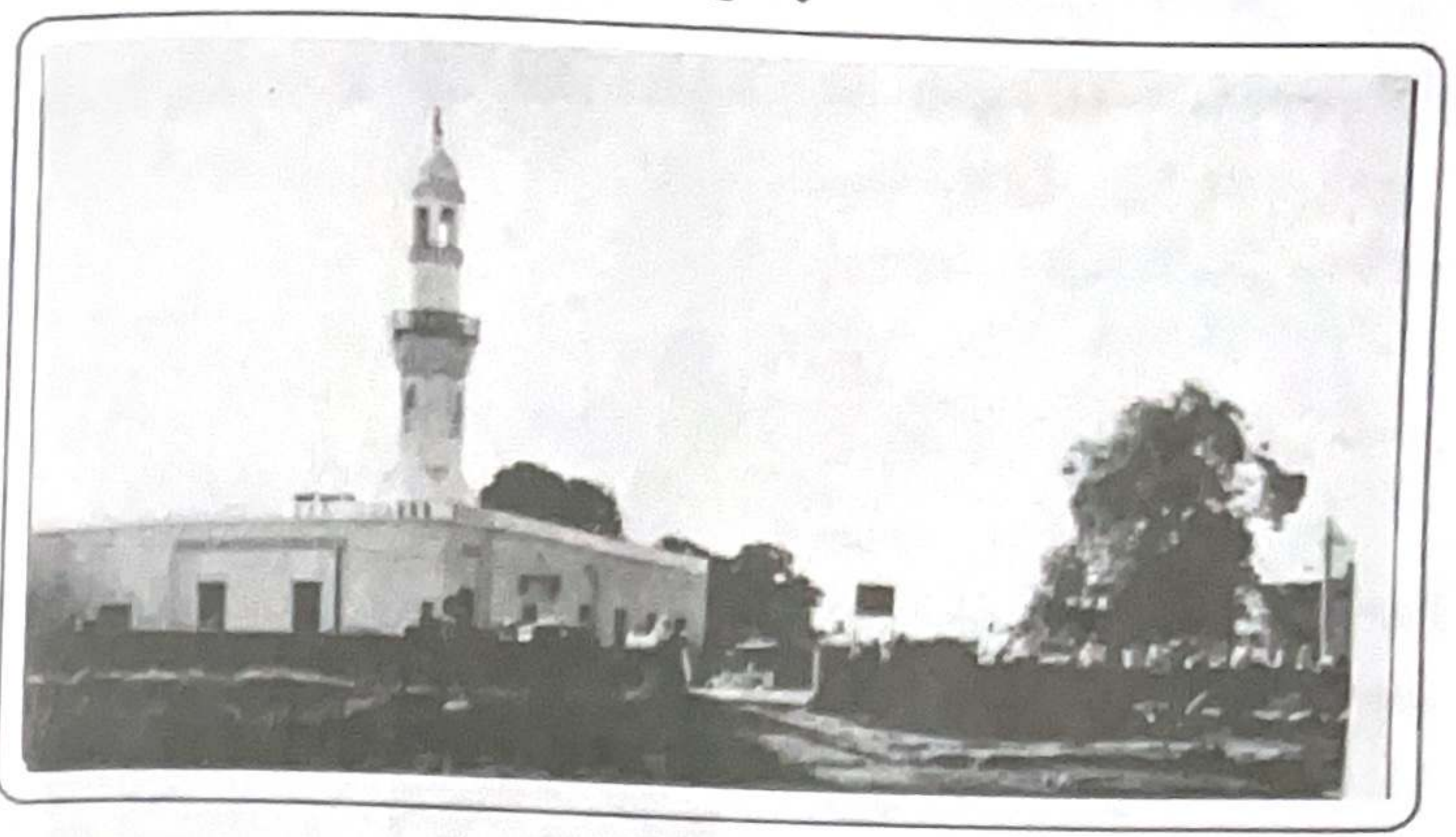
هذا البناء المنظم يلقى في الروع إحساساً بالذات يلازم الإنسان النوبى حتى في حالات الضعف !!

وهذه الطبيعة الذلولة واحدة من حوافز الإنتماء ..

أما في الصورة القادمة فالظلال الذائبة في الماء تمنحك صورة أخري لحوافز الإنتماء .



المسجد والسوق



العلاقة الحميمة بين الأرض والإنسان .. وعدم الخوف من غوائل الطبيعة تبدو بوضوح إذا تأملت صور المسجد والسوق .. فعلي حافة الجروف تم بناءهما .

ولكن عندما تدخّل الإنسان بطموحه وخوفه من المصير جاء بناء السد العالي .. فاختل التوازن ليتحول النيل الي وحش كاسر ..



اللقاء التعيس



الجرجار والطورية .. وملحمة اللقاء البائس بين الأرض والانسان فى مشروع حلفا الجديدة

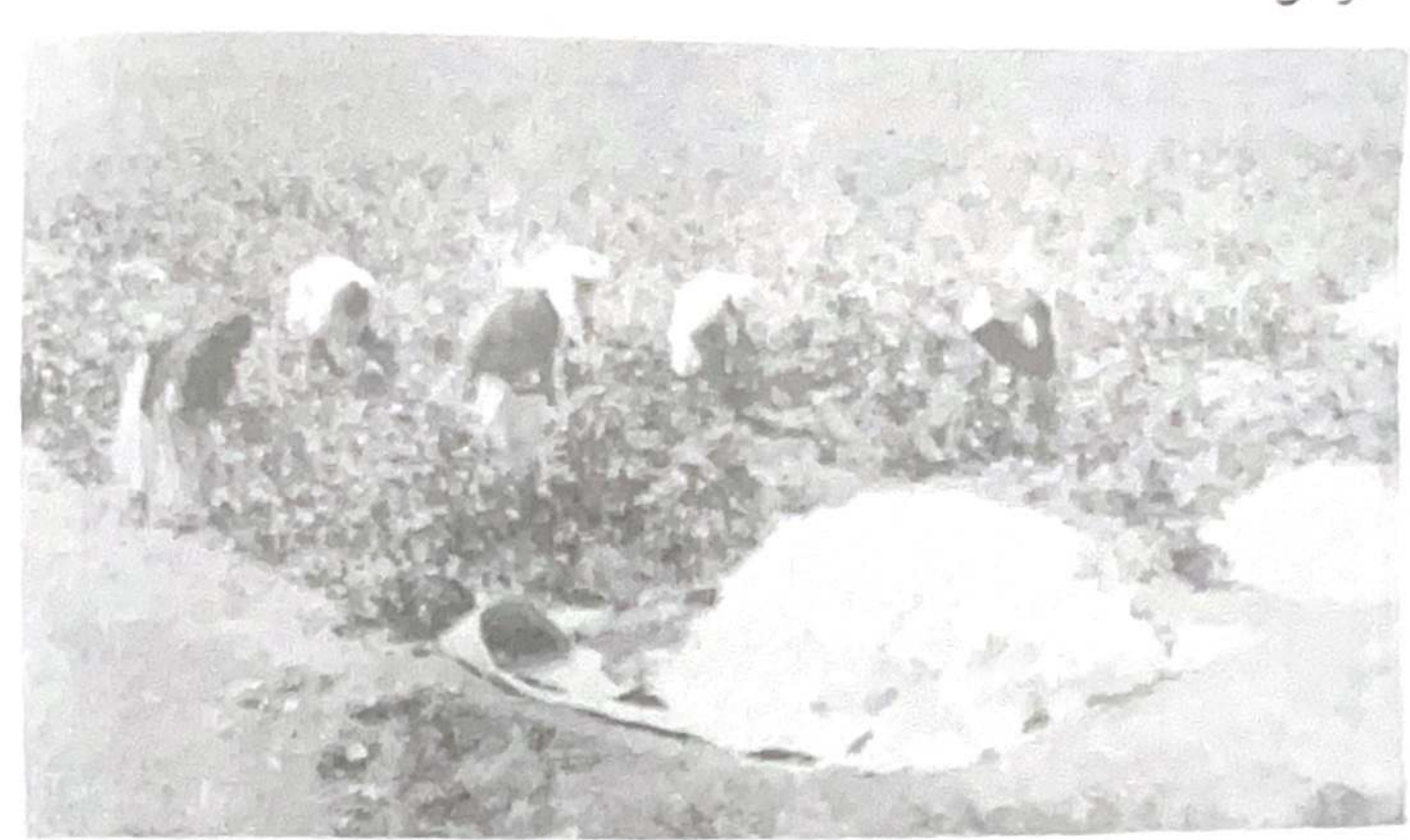


مراعى خشم القربة

الترلة

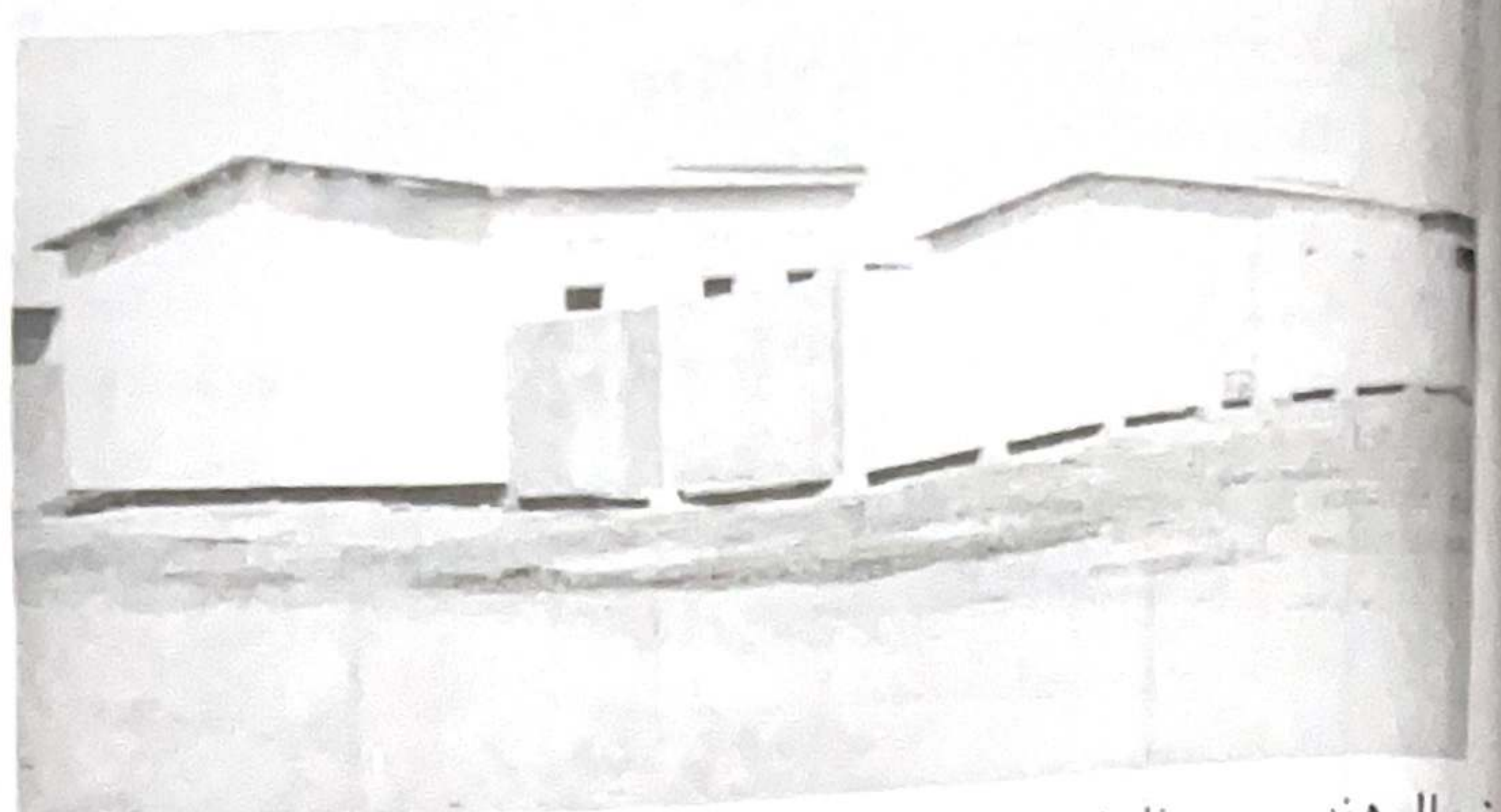


مقطورة زراعيه كانت فى السنوات الاولى تنقل المحاصيل وبالات القطن كما تبدو فى الصوره .. ولكنها الان بعد تراجع عصر الانتاج ، تستعمل كمسرح لحفلات الأعراس !! ..



هكذا كانت تبدو الحواشه فى بداية أمرها ولكن الصوره قد تغيرت بعد عصر المسكيت وشح المياه .

بيوت التوطين



خيال هندسى موغل فى التجريد ، غير متحسب لمعطيات الواقع .. من بين هذه المنازل شواهد باقية منذ فضائح غطاء «شركه تيرف» تفاصيلها فى صحف الستينات .



امام كل من الفول السودانى جلس متأملاً وربما حالماً .. ولكنه فى نهايه المطاف لا بد أن يفتح عينيه أمام سياسات التسويق والتسعيره والديون وافرازات التضخم ..

شاعر من بربر

زايلة الدنيا يا الغدارة ..
يا حلفا الجميلة خسارة ..
ذاك عبود معاه جمال ..
باعوك واشتروك بالمال ..
هكذا يفعل الدولار..
ياحلفا الجميلة خسارة ..

احمد الطاهر (...)

المراجع

أغلب الحقائق التاريخية التي وردت في هذا الكتاب ، وبعض الإستنتاجات التي إستعنا بها .. موجودة في هذه المؤلفات .

١.	السد العالي ومأساة النوبيين	مصطفي محمد طاهر
٢.	رواد الفكر السوداني	محجوب عمر باشري
٣.	قصة إختفاء أجمل مدينة سودانية	محمد سعيد محمد الحسن
٤.	النوبة عبر القرون	متوكل أحمد أمين
٥.	داؤد عبد اللطيف	مصطفي محمد طاهر
٦.	إبراهيم أحمد	عثمان سيد أحمد
٧.	هجرة النوبيين	حسن دفع الله
٨.	الغربان في سماء النوبة	أحمد إبراهيم أحمد
٩.	مذكرات	عبداللطيف البغدادي
١٠.	مذكرات	خضر حمد
١١.	السيادة السودانية	حسين يوسف ذوالفقار
١٢.	حكايات من سره	جمال محمد أحمد
١٣.	وجدان أفريقيا	جمال محمد أحمد
١٤.	الأصول الثقافية للقومية المصرية	جمال محمد أحمد
١٥.	جمال محمد أحمد كاتب سره شرق	مجموعة كُتّاب
١٦.	الثورة المهدية مشروع رؤية جديدة	عبدالعزيز حسين الصاوي ومحمد علي جادين
١٧.	نقوش علي قبر الخليل	الهادي الصديق
١٨.	التغذية والسرطان	د . أحمد جمال الدين الوراقي
١٩.	أيدلوجية المهدية	الصادق المهدي
٢٠.	الصاغ صلاح سالم والسودان	محمد سعيد محمد الحسن
٢١.	خبايا وأسرار في السياسة السودانية.	بشير محمد سعيد
٢٢.	كراسة السد العالي	الحكومة المصرية
٢٣.	الإسلام والنوبة في العصور الوسطي	مصطفي محمد مسعد

كتاب للمؤلف

محالس السنوات

* مخطوط تحت الطبع ..
* يسجل مراحل التطور الفكري للكاتب ..
* فيه من إهتمامات سن الصبا .. أبرزها تحليل الأغنيات ..
* بناديها .. مرحباً يا شوق .. الجندول والليالي .. لويهمسه .. بلقيس ..
* صلوات في هيكل الحب .. أراك عصي الدمع .. أسفاي وغيرها ..
* من الشعراء .. إدريس جماع .. الدوش .. خليل فرح وغيرهم ..
* محاولات روائية تغلب عليها الجانب الفكري ..

أصوات في سكون الأرحام .. مأزق الفقهاء (وهي قصة من وحي الأزمة في الجزائر) . وقصص قصيرة أخري ..

* فيه أيضاً بعثرة لأرشيف المقالات القديمة .. وهي محاولات لوضع النوازع والاهواء في مشرحة العقل .. (الزواج) .. (العلم والخلافة) .. (العاطفة والعقل في البناء الحضاري) .. (العولة) و(مقالات أخرى سياسية وغير سياسية) .
* نصوص مختارة من قراءات قديمة .. وملخصات لكتب .. (حوار صحفي مع جن مسلم) .. (موسم الهجرة الي الشمال) ..
* وأخيراً مقالات جديدة (تأملات وآيات) ..

إستدراكات واخطاء

الصفحة	الخطأ	الصواب	الصفحة	الخطأ	الصواب	الصفحة	الخطأ	الصواب
٧	جملة	جمله	٦٧	فساد	فساداً	٩٨	ريالات	ريات
٨	وهن	وهم	٦٧	سمو	سمواً	١٠٢	تمديك	تدميك
٨	ـة/ة	ـه/ه	٦٩	ميقناً	متيقناً	١٢٥	ذمام	زمام
١١	تحاوله	تحاول	٧٣	افرزت	أفرز	١٦٩	ذورتها	ذروتها
٢٠	ابن أحمد	ابن أحد	٧٤	الجنواب	الجوانب	١٧١	شكف	كشف
٢٥	إنشار	إنتشار	٧٦	النمت	النمط	١٣١	العسرية	العسكرية
٣٠	لان	لانه	٨٢	اثناؤه	أثناءه	١٣٢	المحكمات	المحاكمات
٤٠	موجهه	موجهاً	٨٤	زراعى	ذراعى			
٣٧	معاصرى	معاصرو	٨٤	لم تستطيع	لم تستطع			

رقم الايداع
٦٣ / ٢٠٠٠

قال عن هذا الكتاب :-

((.. قرأت هذا الكتاب اي الصرخة النوبية الصادرة عن وجدان من استوعب مأساة النوبيين ارضاً وبشراً ، حالاً ومستقبلاً ، وكل من يقرأ هذا الكتاب سوف يعيش هذه المأساة التي يعيشها النوبيون في حلفا الجديدة وفي ظهرهم بحلفا القديمة ، ويرى كيف اغفل اهل السودان عن الارض والتاريخ وكيف ضل النوبيون ، وكيف خدر السياسون ، واصبح النوبة ضحية السياسة المصرية الطامعة في كل شئ تحت شعار «الخوة» وألوان الخديعة .

وهو كتاب موثق فيه الحوادث العامة والصراعات والشخصيات وسجل للاخطاء ، وفيه كيف يواجه النوبيون في خشم القربة ، في ارض ليست ارضهم وبيئة ليست بيئتهم ، وكيف يساكنون جيرانهم علي اختلاف العادات والامزجة ، [illegible] الموسكيت ووباء الامراض ، وكيف فشل المشروع الزراعي وكيف اصبح النوبيون في موطنهم الجديد بغير هدف وغرقى في الحيرة .

الكتاب يبدأ بالنوبة في ارضهم وكيف جاء السد ثم يأخذ رموز النوبة ابراهيم احمد ، داود عبد اللطيف ، خليل فرح ، مصطفي محمد طاهر ، جمال محمد أحمد ، ثم يدخل في الحال في خشم القربة مجسماً المأساة ، ثم يحدد الاخطاء ويعري الشخصيات بالصدق ودون مواربة .

انه كتاب جيد وينبغي ان يطالعه كل سوداني ليري ماذا حل بهذا القوم دون ذنب اتوه واني اتوقع له انتشاراً بين النوبيين وبين المثقفين عموماً . ولغة الكتاب الرائعة والاسلوب الشاعري مما يغري القارئ اياً كان لونه . وهو وثيقة مهمة تبين كيف نتعامل سياسياً واجتماعياً مع القضايا العامة كائننا مخدرون ..))

البروفسير / محمد ابراهيم ابو سليم

مطبعة البريد الحديثة تلفون : ٤٦٧٦٩٩